تمرد طرفة

أسبابه وأصداؤه في شعره

تاليف

دكتور

زكريا عبد المجيد النوتي

مدرس بقسم الأدب والنقد
في كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر – بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة – خلف الجامع الأزهر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤



مقدمة

أحمد الله تعالى ، وأصلى وأسلم على صفوة خلقه سيدنا محمد .

وبعد :

فقد كنت — إلى وقت قريب — اقرأ الشعر الجاهلى بعيون القدماء ، فأراه — كما رأوه — ساذجا ، سطحيا ، بسيطا ، ليس فيه من عمق ، أو تأمل ، أو تعقيد ، ذلك أنه يصور حياة الجاهليين البسيطة .. يقول ابن طباطبا : « واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها ، وأدركه عيانها ، ومرت به تجاربها ، وهم أهل وبر ، صحونهم البوادى ، وسقوفهم السماء ، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها »(١) .

وتابع معظم المشتغلين بالأدب القدماء فى ذلك .. يقول الدكتور يحيى الجبورى — مثلا — : وأفكار الشعر الجاهلى ومعانيه واضحة بسيطة تلائم الفطرة ، وتنسجم وطبيعة المجتمع البدوى ، ولا شك أن البساطة والوضوح أثران من آثار البيئة ، وصفاء الذهن ، واعتدال المزاج ، وهما يدلان على عقلية هادئة مستقرة ، لا اضطراب فيها ولا قلق ، فلا غموض ولا تفلسف . فجاءت معانيهم واضحة بسيطة ، لأنها عالجت

---

(١) عيار الشعر ص ١٠ تحقيق د/طه الحاجرى و د/زغلول سلام .

حيـاة بسيطة واضحة ، بعيدة عن الحضارة إلا قليلا »(٢) ٠

لقـد جـروا فى تفسيرهم للشـعر الجاهلى على هـذا الفهم ٠٠ وكانت بعض الأبيـات فى الشعر الجاهلى تستوقفنى فأشـعر أن هناك قصـورا فى تفسيرها ، وأن الشاعر الجاهلى لا يمكن أن يكون سـاذجا إلى هـذا الحـد ٠٠ لابد أن يرمى إلى شىء أكبر ٠٠

حتى قرأت عـدة كتب أضاءت لى الطريق ، ووضـعت كثيراً من النقـاط على الحروف — كما يقولون — فكأننى وجـدت ضالتى ٠٠٠ ومن بين هـذه الكتب : « الأساطير — للدكتور أحمد كمال زكى ، صوت الشـاعر القـديم ، قراءة ثانية لشـعرنا القـديم — وكلاهمـا للدكتور مصطفى ناصف ، والصـورة الفنية فى الشعر الجاهلى على ضـوء النقد الحـديث للدكتور نصرت عبد الرحمن ٠ ومطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية للدكتور عبـد الحليم حفنى ، وعبقـرية العربية للدكتور لطفى عبد البديع ٠٠ وغيرها من الكتب فى هـذا الاتجاه الذى يؤكد أن الشعر الجاهلى فى حاجـة إلى أن يقرأ من جـديد ٠٠

فهـو ليس سـاذجا ، ولا بسيطا ٠٠ « والقـول بوضوح وبساطة الشعر الجاهلى أخطر حكم أصـدر على هـذا الشعر ، فالحكم على أى شـعر بالوضـوح والبسـاطة يعنى أنه كالأرض الموات التى لا تنبت ، والوضـوح فى الشعر سذاجة غير محببـة ٠٠ والقـول ببساطة الشعر وصـدق صوره يجافى الفـن عامة ، والشعر الجاهلى خاصة ، ذلك أن

---

(٢) الشعر الجاهلى — خصائصه وفنـونه ص ١٩٩ — مؤسسة الرسالة — بيروت ٠

الشاعر الجيد لا يشاكل بصوره الواقــع الذى يصوره مشاكلة حقيقية ، لأنه لا يصــور هــذا الواقع فى ذاته ، ولكنه يعكس رؤيته لــه · ومن ثم فإنه حين يعرض لتصويره يحرص على أن يخلق صــورته خلقا جــديدا يعكس هــذه الرؤية أو تلك · وقــد بلغ الشعر الجاهلى درجــة عالية من التعقيد الفنى فى اللغــة والأساليب والأوزان والصور الشعرية ·

والفــن عامة — والشعر خاصة — لا يقصدان إلى تصوير الحياة كما هى فى حقيقتها تصويرا فوتوغرافيا ، أو بمعنى آخر : غاية الفــن ليست نقــل الواقع كما هــو فى ذاته ، ولكن رؤية هــذا الواقع الشعرى من خلال الواقــع الحقيقى(٣) ·

وإن « أروع ما فى الفــن أنه يقول شيئا لا تقــوله الحياة ، ويرسم باللون أو بالكلمة أو حتى بالحجر نور المعرفة »(٤) ·

وإن الشاعر ليجنح إلى نسق من الأشياء يخالف ما نرى وما نعرف من أجــل الوصول إلى حقــائق مستقرة باقيــة ، ومن أجــل ارتياد دقائق وأسرار(٥) ·

والذين كتبــوا عن الحيــاة العــربية من خــلال الشعر الجاهلى انطلقوا من خلال هــذا الفهم المؤسس على سذاجة الجاهليين وبساطتهم ، وبعضهم يظن أنه بذلك يضفى على لغــة الشعر الجاهلى سحرا بحــديثهم

---

(٣) الشعر الجاهلى قضاياه الفنية والموضوعية د/إبراهيم عبــد الرحمن ص ١٩٣ ، ص ٢٥٨ ومدخــل إلى الشــعر الجاهلى د/مصطفى الشــورى ص ١٠٦ ·

(٤) الأســاطير د/أحمــد كمال زكى (المقــدمة) ·

(٥) الصــورة الأدبية د/مصطفى ناصــف ص ١٥ ·

عن بساطتها لبساطة أصحابها ، وكونها غفــلا من الفكر لخلو أصحابها من كل فكر معقــد(٦) ٠

والذين شــكوا فى الشعر الجاهلى ذكروا أن من بين دوافــع شكهم أن الشعر فى نظرهم ساذج ، بسيط ، فى حين أن أصحابه ــ كما وصفهم القرآن ــ ليسوا سذجا وليسوا بسطاء ، بل هم أهــل جــدل وخصومة ولجــاج ٠٠

الم يقــل القرآن **« فإنمــا يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنــذر به قــوما لــدا »**(٧) ، **« وقالــوا آآلهتنا خير أم هــو ما ضربوه لك إلا جــدلا بل هم قــوم خصمون »**(٨) وغير ذلك !!

ولــو أحسنت قراءة الشعر الجاهلى ، فقرىء قراءة متأنية ، تفيد من التفسير اللغــوى والتفسير القــديم ولا تتابعــه كلية لانتهت إلى : « أن ما بين أيدينــا الآن من الشعر الجاهلى يقــدم واقعــا شــعريا عن الإنسان الجاهلى وعن فلسفته ونتــائج تأمله ٠ وأن الواقــع الذى تدل عليه الصورة فى هــذا الشعر يخالف ما قيــل عن ذلك الإنسان ٠ وهــذه القراءة المتأنية للقصيدة الجاهلية تطلعه على ما وراء النص ، وهنــا تتحــول القصيدة من تجربة محــدودة إلى عمــل متكامل يشمل الرؤية الشــاملة للوجــود(٩) ٠

هــذه القراءة المتأنية تكون فى ضــوء معتقدات أصحابه بعيدا عن التعسف فى التفسير والتأويل ، لأن عزل الشــعر الجاهلى عن الحيــاة

---

(٦) الشعر الجاهلى وقضية التفسير د/السيد فضــل ص ١١ ٠
(٧) ســورة مريم آية ٩٧ ٠
(٨) ســورة الزخرف آية ٥٨ ٠
(٩) مدخــل إلى دراسة الشعر الجاهلى د/مصطفى الشورى ص ١٠٥ ، دراســة فى لغــة الشعر د/رجاء عيــد ص ٢٠ ٠

الحقيقية لأصحابه كان وما زال حائلا دون فهمه . والباحث الآن لابد أن يسأل : كيف يتم عزل دراسة الشعر عن حياة اعتقد أصحابها فى وجود أرواح خيرة وأرواح شريرة ؟ واعتقد أصحابها فى الحيوان وخصوا بعضه بالعبادة ؟ واعتقد أصحابها فى قدرة خيالية للإنسان فقدسوا رؤساءهم ؟ واعتقد أصحابها فى أن المرأة كما أنها لحم ودم فهى إلهة مقدسة تقترن بالخصب ، وتلحق بالشمس .. ؟(١٠) .

لقد ظلم الشعر الجاهلى ظلما بينا بقراءته قراءة عابرة سريعة ، دونما إمعان نظر أو إنعامه فحال ذلك دون سبر أغواره ، واستكناه بطائنه ، وفك غوامضه ، وكشف أسراره ..

فرئى شعر الأطلال - عموما - تقليدا جامدا ، ودورانا فى دائرة ضيقة ، فالشعراء يشبهون ما بقى من الديار بالوشم أو بالكتابة .. وما شابه ذلك .

ورأوا الغزل يتشابه فى التشبيه بالغزال والشمس ... ورأوا فى وصف الناقة أو الحيوان تقليدا جامدا - كذلك - يختلف فيه الشعراء من حيث الكم ، فهذا وصف ناقته فى خمسة ، وذاك فى عشرة ، وذلك فى ثلاثين ... وهكذا .

وهذه قراءة لشعر واحد من أبرز شعراء الجاهلية ، وهى قراءة مستعينة بالبحوث والدراسات الجادة القيمة فى هذا الاتجاه ..

قراءة لشعر طرفة بن العبد البكرى - ابن العشرين - ، ثانى أصحاب المعلقات - بعد امرىء القيس - . بدأت أقرأ معلقته مع طلاب

---

(١٠) الشعر الجاهلى وقضية التفسير ص ١٨ .

السنة الأولى فى كلية اللغـــة العربية ٠٠ فشغفت بشعره ، وامتلأت إعجابا به ، واستوقفنى — فى المعلقة — نبرة التمرد الواضحة ٠ فعـــن لى أن أدرس هـــذا الموضوع ، وأخـــذت أقرأ ديوانه باحثا عن أسباب تمرده ، وما أدى إليـــه التمرد من غربة ، وأصـــداء هـــذا التمرد فى شـــعره — فكان هـــذا البحث الذى استغرق عـــدة سنوات ٠

وإنى لأرجـــو أن أكون موفقا فيما بذلت ، محققا الهـــدف الذى رجـــــوت ٠

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ٠٠

دكتـــور زكريا عبد المجيد النـــوتى

القـــاهرة ١٩٩٤/٨/٣٠

تمهيد

١ ـ فى المصطلح

التمـــــــرد :

فى اللغـــة :

قال ابن منظور : مرد : المــارد : العــاتى ٠٠ وتمرد : أقبل وعتا ٠

وتأويل المرود : أن يبلغ الغاية التى تخرج من جملة ما عليــه ذلك الصــف ٠

والمــارد من الرجال : العــاتى الشديد ، وأصله من مردة الجــن والشياطين ٠ وتمرد : أى جاوز حــد مثله(١) ٠

ومرد الإنســان مرودا : طغــا وجــاوز الحــد ٠٠ والمــارد : الطاغيـــة(٢) ٠

وقال صاحب القاموس القــويم للقرآن الكريم(٣) :

مرد ـ كــكرم ـ فهــو مريد : عتــا وتمــادى فى الشر ، قــال تعالى : « **ويتبــع كل شــيطان مريد** »(٤) ٠

ويعــد « البير كامى » أحــد أبرز المؤصلين لظاهرة التمرد ، فهــو

---

(١) اللسان : مــرد ٠
(٢) معجم الألفــاظ والأعلام القرآنية ٤٩٢ ٠
(٣) ٢٢٢/٢ ٠
(٤) الآية رقم (٣) ســورة الحج ٠

يرى أنك إذا ما رفضت أداء عمــل أكرهت عليه فهــذا يعنى فى دخيــلة نفسك إرادة غامضة نوعا ما من أداء نقيضــه (٥) .

ويقــول (٦) :

إننى أتمــرد إذن أنا موجــود .

٢ ـــ تمــرد الشــعراء

على مدى كل العصور هنــاك شعراء متمردون .. فلمــاذا تمردوا ؟

« لقــد أجبر الشعراء العرب الكبار على التزام وضــع اجتماعى مهين ، فقــام فى نفوسهم الصراع بين هــذا الوضع المهين وبين ثرائهم الروحى .. كانوا يستبشعون فيما بينهم وبين ذواتهم أن يكون دورهم فى الحيــاة دور المهرج الوضيع ، أو الخادم التبيــع ، فتعرضــوا عنــدئذ لنــوبة حادة من نوبات تأنيب الضمير ، واختلفت ردود أفعــالهم .. فلجأ بعضهم إلى القسوة على الحياة والناس بالسخرية الجارحة والهجاء المقذع كصنيع « بشار بن برد » .. ولجــأ آخرون إلى المــلذات العنيفة والموت ســكرا كصنيع « أبى نواس » وعصابته .. وحاول بعضهم الدوران مــع الحياة وإلغــاء شخصيته الفردية كما فعــل « البحترى » .. وعانى آخر شقاء لا حد لـــه بين ضيقه بوضعه الاجتماعى وطلبه للسيادة الفعلية بالاستحواذ على ملك ، أو ولاية ، أو نبوة زائفة كما فعل « المتنبى » .. وأوســع أحــدهم الدنيا ذما وتجريحا وطلب الموت طلابا ملحــا ، وذلك

---

(٥) ألبير كامى ـــ حياته وأدبه من خــلال كتاباته ـــ مورفان لوبيسك ١٢٥ .

(٦) المتمرد : ألبير كامى ص ٣٠ وهـــو كلام فيـــه نظر .

هــو « المعرى العظيم »(٧) ..

غير أن متمردى الجاهلية من الشــعراء كثير .. وبلغ الأمر بهم ان كونوا طــوائف ..

لأن البيئة الجاهلية كانت أرضــا خصــبة للتمرد ..

كيف ذلك ؟ وما هى دوافــع التمرد عندهم ؟

هــذا ما نحاول الإجابة عنــه فى الصفحات التالية .

* * *

(٧) قراءة جــديدة لشعرنا القــديم . صلاح عبد الصبور ص ١٨ ، ٦٩ دار العــودة ــ بيروت ــ ط ثالثة .

الباب الأول

التمرد في الجاهلية

الفصل الأول

بيئة التمرد

الفصل الثاني

اسباب التمرد في الجاهلية

الفصل الثالث

اسباب تمرد طرفة

الفصل الأول

بيئة التمرد



- ١ -

البيئـــة الجاهليـــة

البيئـــة الجغرافيـــة :

اختلف جغرافيو العرب فى تحـــديد الديار العربية :

فبعضهم أدخـــل بلاد الشام كلها وأجزاء من العراق ومصر ضمن بلاد العرب(١) • ويحـــدد « الاصطخرى » ديار العرب بـــ « الحجـــاز ، ونجـــد المتصل بأرض البحرين ، وبادية العـــراق ، وبادية الجزيرة ، وبادية الشام واليمن ... الخ(٢) •

وجزيرة العرب خمسة أقسام : تهامة ، والحجاز ، ونجد ، والعروض ، واليمن • والقسم الرابع يشمل : اليمامة ، والبحرين وما والاهما •

والبحرين ـــ موطن شاعرنا ـــ اسم جامع البـــلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمـــان ، فيها عيـــون ومياه ، وقـــد نزلت بهـــا « عبد القيس » فى الجاهلية ، وهى تعرف بـــ « الإحساء » وتشمل : الكويت ، وقطر ، وعمـــان .

وقـــال الآلـــوسى(٣) :

« بلاد البحرين قطر متسع ، كثير النخيل والثمـــار ، والمشهور فيها من البـــلاد : هجـــر ، وكانت هـــذه البلدة قاعـــدة البحرين ، وخربها

(١، ٢) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ١٦٢ ، تاريخ العرب : فيليب حتى ١٥/١ ـــ ١٦ ، المفصـــل فى تاريخ العرب/جواد على ١٤٢/١ ، المســـالك والممـــالك •

(٣) بلـــوغ الأرب ١٩٥/١ •

القرامطة عند استيلائهم على البحرين ، وبنوا مدينة « الإحساء » ، وهى مدينة كثيرة المياه والنخيل والفواكه » .

فى هذه المنطقة انتشرت قبيلة بكر بن وائل التى ينتمى إليها شاعرنا « طرفة بن العبد » .

يقول البكرى(٤) :

اقامت سائر قبائل ربيعة من بكر وتغلب وغفيلة وعنزة وضبيعة فى بلادهم من ظواهر نجد والحجاز ، واطراف تهامة حتى وقعت الحرب بينهم فتفرقوا ، فتبددت تغلب فى البلاد ، وانتشر بكر بن وائل وعنزة وضبيعة باليمامة ، فيما بينها وبين البحرين إلى اطراف سواد العراق ومناظرها ، وناحية الأبلة إلى هيت وما والاها من البلاد .

ويمكن تقسيم بلاد العرب من حيث : البيئة الطبيعية إلى أقسام ثلاثة :

- مناطق استقرار طبيعى حيث الماء والزرع والمناخ المعتدل مما يستتبع نشوء دول مستقرة كما فى اليمن والشام والحيرة .
- مناطق صحراوية تصيب بعض الغيث ، وفيها استقرار نسبى .
- مناطق صحراوية نادرا ما يصيبها الماء ، ولذا فاهلها دائمو الرحيل .

والبحرين تدخل فى القسم الأول .. جوها معتدل نوعا ما لقربها من البحر ، ولقربها من الحيرة كانت خاضعة لنفوذها ، وكانت الحيرة ملتقى الأفكار والديانات والمذاهب المختلفة ، وتعيش قسطا من الحضارة .

---

(٤) معجم ما استعجم ٨٥ .

ولقرب البحرين من العراق وإيران يمر بهـا الكثير من المسـافرين بين هـذه البـلاد .

كل هـذه الأمور كان لهـا الأثر الكبير فى أفكار وعقليات أبنـاء البحـرين (٥) .

- ٢ -

البيئـة وشـخصية العـربى

ومن البدهى أن للبيئة أثرا فى طبـع أهلها بطابعها ، ومن هنـا يختلف البدوى عـن الحضرى . ولـذا قال رسـول الله - ﷺ - : « من بدا جفـا » (٦) .

وقـد طبعت البيئة العربية أهلها بطـابع ميزهم عن غيرهم .. فالعربى قـوى الشكيمة ، صعب المراس ، رفيقـه سلاحه وفرسه .

وذلك لأن الصحراء العربية « لم تكن سخية ولا رحيمة بأهلها ، ولم يكن أهلها رحمـاء بينهم ، ولا متناصفين ، فالحياة تقـوم على التنافس الشديد ، والعنف الذى لا هـوادة فيه ، والقسوة التى لا تلين ..

القـوة فى كل صـورها هى المثـل الأعلى الوحيد الذى آمنوا به وحرصوا عليه ، فكل ما نالته يد القـوى فهو حـق لـه (٧) .

---

(٥) راجـع : أعلام الشعر الجاهلى (طرفة) د/خفاجى ٦ ، ٧ .

(٦) الحـديث أخرجـه الإمام أحمد فى مسنده ٤/٢٩٧ عن البراء بن عازب ، وكذا فى ٢/٤٤٠ عن أبى هريرة من حديث طويل . وانظر الوساطة ص ١٨ للقاضى الجرجانى - تحقيق أبى الفضل والبجاوى .

(٧) الهجـاء والهجاءون د/محمد محمد حسين ص ٦٦ .

يقــول طرفــة(٨) :

فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى

عــداوة ذى الأصحاب والمتوحد

ولكن نفى عنى الرجال جراءتى

عليهم وإقدامى وصدقى ومحتدى

كان المكان الأول هناك للظــالم الغاشم ٠٠ ولــذا كان على كل فرد فى المجتمع أن يكون قــويا ٠٠ فإذا لم تتذاب اكلتك الذئاب ٠٠

يقــول شــاعرهم(٩) :

ومن لا يــذد عن حــوضه بســلاحه

يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

وقــال المتنبى :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

ذا عفــة فلعـــلة لا يظــلم

عاش العربى فى هــذه البيئة الصحراوية قلقــا ، تراوده عــوامل شتى من الجبن والخوف ، يقــول المسعودى : — معللا لذلك —(١٠) :

« لأن الإنسان إذا صــار فى مثل هــذه الأماكن يوجــد لــه تفكر ووجــل وجبن ، وإذا هــو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية

---

(٨) معلقتـــه ٠

(٩) زهـــير — معلقتـــه

(١٠) مروج الذهب والمعـــول للعقاد ص ٥٠ نقــلا عن الظواهر الفنية ص ٦٢ ٠

الفاســدة ، فصورت لــه الأصوات ، ومثلت لــه الأشخاص وأوهمتــه المحــال بنحــو ما يعرض لذى الوسواس ، وقطب ذلك وأســه ســوء التفكير وخروجه على غير نظــام قــوى ، أو طريق مستقيم ســليم ، لأن التفرد فى القفــار مستشعر للمخــاوف ، متوهم للمتالف ، متوقــع للحتوف ، لقــوة الظنون الفاســدة على فكره وانغراسها فى نفسه » .

ولشدة ما عانى من هــذه الصحراء تمنى أن لو كان حجرا حتى لا يحس بشىء .. يقــول تميم بن مقبــل :

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر

تنبو الحوادث عنه وهــو ملموم

هــذه هى الحالة النفسية للعرب فى الصحراء ، ومن هنــا كان البكاء ملازما لهم فى مطالع قصــائدهم .. كأنه كان فرصــة للشــاعر ، « أن يبــكى مــع الطلل نفســه ، وأن يستعبر على حيــاته من خــلال دمعاته المتألقة على آثار داره وقــوته »(١١) .

نعم ، لقــد كانت عــوامل الفنــاء والبقــاء تتجاذبان العــربى ، وتشغلان باله بصورة حادة .. إلا أن عوامل الفناء كانت تلح عليه أكثر ..

ومن هــذه العــوامل :

الارتحال القهرى حين يعصف المطر الشديد ، والريح العاصف التى تقتلع الخيام ، وتكفىء القــدور ، ومن هنــا كان وقوف الشــاعر على

---

(١١) د/ســعد ظلام .. من الظواهر الفنية ص ٦٢ ولنــا وقفة طويلة فى تفسير « الوقــوف على الأطلال » فى الباب الأخير .

الأطلال يبكى الشاعر فيها رمزا لمعاناته النفسية ، وقلقه الذاهل ، وتعبيرا عن خواطره المثارة دائما ..

لقد كانت المقدمة الطللية تمثل إشارة « الجمجمة والكارعين » التى نضعها على مواطن الهلاك ، أو للتوعية والتبصر بأماكن الخطر (١٢) ..

وقسوة الصحراء هذه جعلت العربى يجمع بين المتناقضات فهو يحبها رغم قسوتها ، وكان البدوى رحيما وسفاكا للدماء ، كريما وبخيلا ، غادرا وأمينا ، حذرا وشجاعا (١٣) .

- ٣ -

مجتمع القبيلة

وعلى اختلاف مجتمعات العرب ساد النظام القبلى الذى اضطر العرب إليه اضطرارا ، نظرا لعدم قيام حكومة تحفظ للناس أرواحهم وممتلكاتهم ، وتطعم الجائع ، وتغيث المنكوب .

والقبيلة - فى أبسط تعريف لها هى : الوحدة السياسية والاجتماعية ، بل الدولة المصغرة التى انضوى تحت رايتها كل أفرادها .

لقد توافرت للقبيلة كل شروط الدولة من وطن ، وأبناء ، ورئيس ، ومجلس ، وراية أو شعار .

---

(١٢) راجع « عوامل الفناء » فى كتاب الدكتور سعد ظلام من ٦٣ - ٨٢ وقد اختصرناه هنا .

(١٣) قصة الحضارة - ول ديورانت ١٣/١٣ .

فالقبيلة هى دولة الأعرابى ، وموئله فى تلك الصحراء . وكما أن لكل دولة رئيسا فكذلك كان لكل قبيلة رئيس أو سيد أو شيخ إذ :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا

تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحت
فإن تولت فبالأشرار تنقاد

إذا تولى سراة القوم أمرهم
نما على ذلك أمر القوم فازدادوا

ولم يكن وصول السيد إلى كرسى القيادة أمرا سهلا ميسورا لمجرد وراثة ، بل كان أمرا صعبا .. يقول حبيب بن عبد الله الهذلى :

وإن سيادة الأقوام فاعلم
لها صعداء مطلبها طويل

اترجو أن تسود ولا تعنى
وكيف يسود ذو الدعة البخيل ؟

« ونظرة فى حياة القبيلة تكشف عن شيئين تقوم حياة العرب بهما وعليهما :

الخضوع المطلق لشيخ القبيلة أو رئيسها ، والتحرر المطلق فى صلاتها الخارجية ، وهاتان الظاهرتان تفسران كل ما كان يحدث فى المجتمع العربى »(١٤) .

وكل من رئيس القبيلة وأفرادها له حقوق وعليه واجبات .

---

(١٤) شعر الهذليين فى العصرين الجاهلى وصدر الإسلام ص ٧٤ .

وقــد ذكر الشاعر « معاوية بن مالك بن جعفر بن كــلاب » بعض ذلك فقــال(١٥) :

نعطى العشــيرة حقهــا وحقيقها

فيهــا ونغفر ذنبهــا ونســـود

وإذا تحملنــا العشــيرة ثقلهــا

قمنــا بــه ، وإذا تعود نعود

وإذا نوافــق جرأة أو نجـــدة

كنا ، سمى بهــا العــدو نكيد

بل لا نقــول إذا تبــوأ جيرة

إن المحـــــلة شـــــعبها مكـــدود

الـــخ .

وقــال لقيــط بن يعمــر الإيادى مبينــا اهم واجبـــات الرئيس وصـــفاته(١٦) :

وقلـــدوا امركـــم لله دركـــم

رحب الذراع بامر الحرب مضطلعا

لا يطعم النــوم إلا ريث يبعثــه

هم يكاد ســـناه يقضم الضلعــا

مســهد النــوم تعنيــه أموركــم

يروم منهــا إلى الأعــداء مطلعــا

(١٥) المفضليات . المفضلية ١٠٤ .
(١٦) مختــارات ابن الشجرى ص ١ .

ما انفك يحلب هـذا الدهر أشـطره
يكون متبعـا طـورا ومتبعـا

حتى استمرت على شزر مريرته
مستحكم الرأى لا قحما ولا ضرعا

وليس يشـغله مـال يثمـره
عنكم ولا ولد يبغى لـه الرفعـا

ويبـدو لى أن « لقيطـا » قـد اكتوى بنيران شيخ فيـه هـذه الصفات السيئة .. لا يهتم بأمر القبيلة ، ولا يشغله سـوى مال ينميـه ويثمره ، وولد يبتغى لـه العلو والرفعة .. شأن كثير من الزعماء فى المجتمعات المتخلفة . ولـذا فهـو يضع أسسا ، ويناشـد القبيلة ألا تقلـد أمرها إلا لمن تحققت فيـه هـذه الأسس وبها يستأهل قيادة القبيلة .

ولكن العرف القبلى أعطى رئيس القبيلة حقوقا فى بعضها ظـلم وإجحـاف للرعيـة .

فهـذا الرئيس لـه حقوق مادية ، وغير مادية ..

فمن حقوقه المـادية : أن لـه المرباع خالصـا ، وكذلك النشيطة ، والصـفى ، والفضـول(١٧) .

قال عبد الله بن عنمة الضبى يرثى بسطاما(١٨) :

---

(١٧) المرباع : ربع الغنيمة . النشيطة : أن ينشط شيخ القبيلة عند قسمها فإذا استحلى شيئا نفيسا أخـذه لنفسه . الصفى : الشىء النادر ، الفضول : فضول المقاسـم .

(١٨) الأصمعيات .. الأصمعية رقم (٨) .

لك المـــرباع منهـــا والصـــــفايا

وحكمـــك والنشـــيطة والفضـــول

وواقع البادية الذى لا يأمن المرء فيـــه على نفسه بمفرده دفـــع ابنـــاء القبائل دفعـــا إلى التعصب . فالأمن فى التكاتف والتكتل تحت لـــواء القبيلة . يقـــول أعرابى(١٩) :

ولم أر عـــزا لامـــرىء كعشـــيرة

ولم أر ذلا مثل نأى عن الأصـــل

لكن الرجل قـــد ينضوى تحت لـــواء القبيلة على كره منه ، فهـــو غير راض عن بعض المواقف والآراء ، إنه تابع على مضض ، عليه أن يخـــدم رأيها الجماعى ، فلا يخرج عليـــه ، ولا يتصرف تصرفا بدون رضـــاها ، ولا يكون سببا فى تمـــزيق وحـــدتها أو الإســـاءة إلى سمعتها بين القبائل ، أو تحميلها ما لا تطيق(٢٠) .

اسمع قـــول أبى ســـفيان(٢١) :

« لست أخالف قريشا ، أنا رجـــل منها ، ما فعلت فعلت » ، أو قـــول دريد بن الصمة(٢٢) :

وما أنا إلا من غـــزية إن غـــوت

غويت وإن ترشـــد غزية أرشـــد

---

(١٩) الكامل للمبرد ١٤٨/١ .
(٢٠) الشعراء الصعاليـــك د/يوسف خليف ص ٩٢ .
(٢١) مغازى الواقـــدى ص ٢٠٠ .
(٢٢) ديوانه ، ط دار المعارف ص ٦٢ تحقيق الدكتور عمر عبد الرسول من قصيدته فى رثاء أخيـــه .

وقـد قال ذلك رغم معاناته وتجـرعه قسوة عـدم انتصاحهم ، وعـدم مبالاتهم لرأيه ٠

كما كان من أمثالهم(٢٣) : « فى الجريرة تشترك العشيرة » ٠

وقـال شـاعرهم :

لا يسألون أخـاهم حـين يندبهم

فى النائبات على ما قال برهانا

وهكذا « كان العربى يحمل لقبيلته من القـداسة والإجـلال مثـل ما يحمل المواطـن لوطنـه ، بل أشـد ٠ وكان للفرد على قبيلتـه من الحقوق ما يشبه حـق المواطن على وطنـه ، فهى مكلفـة بحمايته من أى اعتداء ، وهـو بعـد هـذا مسؤول أمامها ، مرتبط بها ، لا رأى إلا ما رأت ٠وهـو يضع سيفه ولسانه فى خـدمتها ، ولهـا أن تحرمه من جنسيته بأن تتبرأ منه ، وتعلنه طريدا ٠٠٠ ويكاد الشخص يفنى فى قبيلته ، يحس بإحساسهم ، ويرى بأعينهم ، ويسمع بآذانهم »(٢٤) ٠

« كان العربى يتأرجح دوما بين قطبين : فردية تدفعـه إلى رفـع كل ضغط ، وتثبيت الحقوق الدائمة « للأنا » تجـاه الحقوق الجماعية ، وتعلق من ناحية أخرى بجماعته بصورة عميقة وذاتية قـد يصل إلى حـد التضحية بالنفس »(٢٥) ٠

---

(٢٣) مجمع الأمثال للميدانى ٤٤٣/٢ ط الحلبى ٠

(٢٤) الهجـاء والهجـاءون ص ٢٣ ٠

(٢٥) تاريخ الأدب العربى — بلاشير ص ٣٥ تعريب الدكتـور إبراهيم كيلانى — دار الفكر دمشق سنة ١٩٥٦ وكذا : مدخل إلى الأدب الجاهلى — إحسان مركيس ١٠٤ — ١٠٥ دار الطليعة — بيروت ٠

ولــذا كان شــعر الشعراء فى خــدمة قبـــائلهم ، وإلا فلمـــاذا يقيمون الأفراح لمولــد شاعر فى القبيلة ؟

ومن هنــا كانت « القبيلة تنكر على الشاعر أن يقصر شــعره على ذات نفسه ومشاعره الشخصية ، فإن ذلك لم يكن يرضيها ، ومثل هــذا الشاعر لم يكن جــديرا بالاحترام والتقــدير لديها ، ومن هنــا تفسير ما يقــال : من أن « حجــرا الكنــدى » قــد طرد ابنــه « امرأ القيس » لأنه كان شــاعرا ٠٠ والأولى أن يقال : إنه طرده لأنه كان شــاعرا ذاتيا يقــول الشعر فى لهــوه ولــذاته ، ولم يكن يعنى بشؤون الملك ، لا قولا ولا فعلا ، فطرده أبوه إذ رآه غير جــدير باحترام كندة ومليكها »(٢٦) ٠

وفى نظرهم أنه ما ينبغى لابن القبيلة أن يوجــه « جهده — أيا كان معنويا أو أدبيا — لغير قبيلته ، وإلا كان موضعا للوم والذم ، على نحــو ما يقــول أبو دبيــة الطــائى(٢٧) ٠

وأنت امرؤ منــا خلقت لغــيرنا

حيــاتك لا ترجى وموتك فاجع

كان هنــاك تفاوت شــديد بين طبقات المجتمع الجاهلى داخــل القبيــلة نفسها ، وقــد رأينا كيــف كان ســيد القبيــلة يستأثر بالكثير من الغنــائم ٠

وصوت الزعيم لا يعــلو فوقــه صوت ، بل لا يدانيه ، وقــد ينفرد بقرارات لا تروق بعض الرجال ٠

من هنــا ظهر فى المجتمــع الجاهلى من تأبى الظلم ، وتمــرد عليه ، ورفض البغى وتصــدى لــه فى حــدود إمكاناته ٠

(٢٦،٢٧) ظاهرة التكسب فى الشــعر العــربى ص ١٢ ، ١٣ درويش الجنــدى ٠

وكان أحرى النـــاس بذلك هؤلاء الذين رأوا فى أنفسهم تميزا ، أو فتـــوة ، أو وسائل مضادة للظلم(٢٨) ٠

نعم « كان هناك صوت ذاتى يتردد من حين إلى حين فى زحمة هذه الالتزامات القبلية ، يعزفــه حتى شــعراء القبائل على قياثرهم الخاصة بهم ، يعبرون بهـــا عن جوانب حياتهم الخاصة التى لا تشاركهم فيهـــا قبائلهم ، ويتغنون فيــه بمشاعرهم وعواطفهم الذاتية التى لا تنطـــوى عليها نفوسهم بعيدا عن دنيـــا القبيلة ٠

« وكانمـــا آمنت هـــذه الطائفـــة من الشـــعراء « الذاتيين » بأن « الفن للفن » ، لا لخــدمة مجتمع القبيلة ، وأن شـــعرهم ملك لهم ، لا تشركهم فيـــه قبائلهم ، وأن ريشتهم التى يرسمون بهـــا لوحاتهم خاصة بهم وحـــدهم ، وليست شركة بينهم وبين القبيلة ، وأن العقـــد الاجتماعى بينهم وبين القبيلة يجب ألا يتحدى حدوده الاجتماعية والسياسية »(٢٩) ٠

ومن هـــؤلاء من يضيق بمـــا حـــوله ومن حـــوله ، فيرى الخوف والقلق فيمن ينتظر منهم الأمن ، ويجد الأمن فيمن يتوجس منهم الخوف ، يقـــول الشـــاعر(٣٠) :

---

(٢٨) راجع : شـــعر الصعاليك ٠٠ منهجه وخصائصه د/عبـــد الحليم حفنى ص ٥٥ ٠

(٢٩) الروائع ٠ د/يوســـف خليف ص ٢٥ ، ٢٦ ٠

(٣٠) البيت لتأبط شرا ديوانه ص ١٦٠ ويقال للأحيمر السعدى ت ١٧١ ، قالـــه وهـــو هارب من السلطان ٠٠
وجـــدير بالذكر أن الأحيمر أحـــد صعاليك العصر الأموى ٠
راجـــع : الشـــعر والشـــعراء ٧٨٧ ، الوحشيات ٣٤ ، المؤتلف والمختلف ص ٤٣ ، والشعراء الصعاليك فى العصر الأموى ص ٩٢ د/حسين عطـــوان ٠

عوى الذئب فاستانست بالذئب إذ عوى

وصـــوت إنســـان فكـدت أطـــير

رأى الله أنى للأنيس لشـــــانىء

وتبغضـــهم لى مقـــــلة وضــمير

فلليــل إذ وارنى الليــل حكمــة

وللشمس إن غــابت على نــذور

وقـــال شـــاعرهم(٣١) :

ولى دونكم أهــلون ســيد عملس

وأرقط زهلـــول وعرفـــاء جيــــال

هم الأهـــل ، لا مستودع السر ذائـــع

لديهم ولا الجانى بمــا جر يخذل

قــد يسوء ســلوك أحــد أفراد القبيلة من الناحيـــة الخلقية حتى يصبح وجـــوده وصمة عار فى جبينها ، وسبة فى مجــدها وشرفها .. حينئذ تتخــذ قرارا بإبعـــاده ، و خلعـــه حتى لا يكون سببا فى إنحراف شــباب القبيـــلة .

وقــد حــدث ذلك كثيرا .. فهـــذا « البراض بن قيس الكنانى » كان ســـكيرا ، فاسقا ، فتبرأ منه قـــومه .. وهـــذا أمير شعراء الجاهلية « امرؤ القيس » الذى هم أبوه بقتـــله ثم طرده ، لأنه كان غارقا فى اللهو

---

(٣١) هـــو الشنفرى ، الشاعر الصعلوك ـــ والبيتان من لاميـــة العرب انظر لامية العرب ـــ بشرح عطاء الله المصرى ـــ تحقيق الدكتور عبد الله الغزالى ـــ ط الكويت ص ٤٢ .

والمجـــون والخلاعة بصـــورة غير مالوفة (٣٢) ٠

واحيانا يخرج الشخص من القبيلة معترضا على قانون ظالم ، او عرف غير رائق ، فيخرج حينئذ ٠٠ وقـــد ينتسب إلى قبيلة اخرى ، او يرضى بالطريق لـــه ماوى وملاذا ، وينطلق منه فى هجماته ليـــلا على الاثرياء ٠٠٠ وهكذا فعـــل الصعاليك ٠

على اية حال فإن « الخليع يجـــد نفسه أمام مشكلة خطيرة ، هى مشكلة الحياة أو الموت ٠٠ لقـــد سحبت منه « الجنسية القبلية » ، ورفعت القبيلة عنه حمايتها ، وطردته من حماها ، ولم يعـــد أمامه إلا أحـــــد أمـــــرين :

إما أن يفـــر إلى الصحراء ليـــلاقى مصيره فى البادية القاسية فقيرا ، مفردا ، لا اعتماد لـــه على أحـــد ، ولا على شىء ٠

وإما يلجـــأ إلى من يحميه ويعيش فى جـــواره » (٣٣) ٠

★ ★ ★

---

(٣٢) وقـــد يكون طرده لانه لم يوظف شـــعره فى خـــدمة القبيلة كما سبق أن ذكرنا ٠ ولنـــا وقفة معه فى نهاية هـــذا المبحث ٠ ويحسن مراجعة مقال (غربة الملك الضليل — عبد الرشيد صادق/فصـــول المجلد الرابع — العـــدد الثانى ص ١٣١ وما بعـــدها ٠

(٣٣) الشعراء الصعاليك ص ٩٥ ٠



الفصل الثانى

أسباب التمرد فى الجاهلية



اسـباب التمـرد فى الجاهليـة

لقـد تضافرت عوامل عـديدة كانت سببا فى تمرد من تمرد ٠٠ وهـذه العوامل كانت عامة ٠٠ يضاف إليها أسباب خاصة مباشرة لـدى كل شخص ٠

ويمكن ان نلم بأبرز هـذه العوامل العامة فيما يلى :

● عـدم وجـود دولة ٠٠ ومن ثم لم ير الافـراد حاجـزا على سلوكهم ، ولا حائلا بينهم وبين ما يرتضونه لانفسهم من سـبل السلوك ، سـواء اكان السلوك صعلكة ام غيرها ٠

● عـدم وجـدو قانون كصورة من صور القـوى المهيمنة المحددة لسلوك أفراد المجتمع ، وبدهى انه ما لم توجـد دولة لا يوجـد قانون ، لانه حتاج إلى سـلطة منفـذة حامية لـه ، وإلا صبح وجـوده كـلا وجـود ٠

ولـذا انزل الله الحـديد مـع الكتاب والرسل حتى يعمل الميزان ((لقـد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنـا معهم الكتـاب والميزان ليقـوم النـاس بالقسط وانزلنـا الحـديد فيه باس شـديد ومنافـع للنـاس ٠٠٠٠))(١) ٠

● شيوع الظلم فى المجتمع ٠٠ حتى اعتقد الجاهليون انك إذا لم تظلم تظلم ٠٠ يقـول زهير :

---

(١) الآية ٢٥ من سـورة الحـديد ٠

. . . .

ومن لا يظـلم النـاس يظـلم(٢)

ومن مظاهر هـذا الظـلم ما أسـلفنا من اسـتئثار شـيخ القبيلة بالمرباع ، والنشيطة ، والصفى ، والفضول ، وغيرها ٠

وليت الاستئثار والأنانية توقفـا عند هـذا الحـد ، بل بالـغ بعض شيوخ القبائل فى ذلك مبالغة كانت عاقبتها وخيمة ٠ ولعل أبرز مثال على ذلك « كليب وائل » الذى يضرب به المثل فى الظلم ، وإن كان بعض العـرب يسـمونه « عـزا » فيقـولون فى أمثالهم : « أعـز من كليب وائل »(٣) ٠

لقـد بلغت أنانيته وظلمـه وبغيه إلى حـد أنه كان هـو الذى ينزل ربيعة منازلهم ، وهـو الذى يرحلهم ، ولا ينزلون ولا يرحـلون إلا بأمره ، وبلغ من عناده وبغيه أنه اتخـذ جرو كلب ، فكان إذا نزل منزلا به كلأ قـذف ذلك الجـرو فيـه فيعوى ، فلا يرعى أحـد ذلك الكلأ إلا بإذنه ، وكان يفعـل هـذا بحياض المـاء ٠ وكان يحمى الصيد ويقـول : صـيد ناحية كـذا وكـذا فى جوارى ، فلا يصيد أحـد منه شـيئا ، وكان لا يمـر بين يديه أحـد إذا جلس ، ولا يحتبى أحـد فى مجلسـه غـيره ٠٠

وكان عاقبـة ذلك أن قتله « جساس »(٤) ٠

---

(٢) راجـع فى ذلك : شـعر الصعاليك منهجـه وخصائصه للدكتـور عبد الحليم حفنى ص ٤٦ ٠

(٣) مجمع الأمثال للميدانى ٣٨٨/٢ ٠

(٤) راجـع لذلك : الحيوان للجاحظ ٣٢٠/١ ، مجمع الأمثال ٣٨٨/٢ ، والعقـد الفريد ٦٩/٦ ـــ ٧٣ دار الكتب العلمية ـــ بيروت ٠

والشعراء القدماء كانوا يهددون الظلمة بسوء العاقبة ، وبمصير اشبه بمصير كليب .

يقول العباس بن مرداس لكليب السلمى(٥) :

اكليب مالك كل يوم ظالما
والظلم انكد وجهه ملعون

قد كان قومك يحسبونك سيدا
وإخال انك سيد معيون

فإذا رجعت إلى نسائك فادهن
إن المسالم راسه مدهون

وافعل بقومك ما اراد بوائل
يوم الغدير سميك المطعون

وإخال انك سوف تلقى مثله
فى صفحتيك سنانها المسنون

وقال النابغة الجعدى(٦) :

وبلغ عقالا أن خطة داحس
بكفيك فاستأخر لها أو تقدم

تجير علينا وائلا بدمائنا
كأنك عما ناب أشياعنا عم

(٥) ديوانه ص ١٠٨ ، ١٠٩ قصيدة رقم ٣٨ ، الوحشيات ٢٣٨ ، الحماسة البصرية ١/١٠ ، معاهد التنصيص ١/١٢ .

(٦) شعر النابغة الجعدى ط اولى دمشق ١٩٦٤ ص ١٤٢ ، ١٤٥ .

كليب لعمـــرى كـــان أكثر ناصرا

وأيسر جـــرما منـــك ضرج بالـــدم

رمى ضرع ناب فاستمر بطعنـــة

كحاشية البرد اليمـــانى المســـهم

وما يشعر الرمـــح الاصم كعـــوبه

بثروة رهـــــط الأبلـــخ المتظـــلم

فقـــال لجســـاس اغثنـــى بشربة

تمـــن بهـــا فضـــلا على وأنعـــم

فقـــال تجـــاوزت الأحص وماءه

وبطن شبيث وهـــو ذو مترســـم

وهكذا كان الظالم فى نظرهم لابد أن يصـــيبه ما أصاب كليبا ..

على أن الاحتكار لم يقتصر على المـــاديات ، بل إن زعمـــاء القبائل كانوا ينفردون بالرأى ، ولا يشركون احـــدا فيـــه ، وقـــد يكون الراى فاســـدا وعواقبه وخيمة ، ومـــع ذلك لا صوت فوق صوت الشيخ ..

ونادرا ما يرتفـــع صوت معارض ، وإذا ما ارتفـــع فلا يأبه به أحـــد .. لقـــد قـــال الشـــيخ ولا قـــول بعـــده .. فتكون النتيجة ندما وحزنا ، ثم هم بعـــد ذلك لا يعتبرون .

وأبرز مثال لذلك ما كان من « عبد الله بن الصمة » وأخيه « دريد » .

فقـــد غـــزا « عبـــد الله » غطفـــان ، وأصاب منهم إبـــلا عظيمة فاطردها ، فقال لـــه أخـــوه « دريد » : نشدتك الله ألا تنزل فإن غطفان ليست بغافلة عن أموالها ، لكن « عبد الله » تعجـــل نصيبه « المرباع » ،

فاقسم الا يريم حتى يأخذ « مرباعه » ، وينقع نقيعه فيأكل ويطعم ، ويقسم البقية بين أصحابه ٠

وكانت العاقبة الوخيمة ٠٠ لقد قتل عدد كبير من هوازن وعلى رأسهم « عبد الله بن الصمة » — الدكتاتور — فكان قول « دريد » أخيه يرثيه (٧) :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى

فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

فلما عصونى كنت منهم وقد أرى

غوايتهم وأننى غير مهتد

وهل أنا إلا من غزية إن غوت

غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

ارأيت كيف أنه لم يعتبر بما حدث ؟! إنه رغم ذلك كله يجاهر ، بأنه جندى ، وهو تابع ، فهو غاو إن غوت القبيلة ، وراشد إن رشدت ، ولا رأى إلا ما ترى القبيلة ، أو بالأحرى شيخ القبيلة ٠

وإن مرارة الغربة لواضحة فى هذه الأبيات ، فما قيمة الرجل بين قومه وهو لا رأى له ، ولا وزن ، حضوره وغيابه سواء ٠٠ وتأمل قوله (عصونى) تجدها تفيض حسرة وألما ، ورغم ذلك كله فهو لا يملك رد فعل سوى قبول هذه الحياة التى ليست بأفضل كثيرا من الموت ٠

(٧) ديوانه ص ٦٢ وما بعدها والقصة فى الأغانى ١٠/١١ ، العقد الفريد ٣٢/٦ ، ٣٣ (يوم اللوى) ٠

وقــد يكون تفسير ســكوت الناس على شيخ القبيلة تلك النظرة المقــدسة إلى شيخ القبيلة ، وفى شــعر الجاهلية ما يؤكد ذلك ٠٠

كان هنــاك بعض الفتيان والشباب الاحرار ذوى نفــوس متوثبة تأبى الضيم وترفض الظلم والجــور ٠٠ نظروا فوجــدوا القبيلة كلهــا تعمل لحساب فرد ، وعــز على أنفسهم أن يكونوا عاملين لحساب هــذا الفــــرد ٠٠

لقــد شعروا بالظلم البين ، ووجــدوه سلسلة لا تنقطع ، ولا ينتظر أن يرده أحــد عنهم إذ « ما حــك جلــدك مثل ظفرك » ٠ وعلى كل أن يذود عن نفسه ، يقــول شــاعرهم(٨) :

إن الهوان حمــار الحى يعــرفه
والحــر ينكــره والرســلة الأجــد

كونوا كبكر كما قــد كان أولكم
ولا تكونوا كعبد القيس إذ قعدوا

يعطــون ما سئلوا والخــط منزلهم
كما أكب على ذى بطنه الفهــد

ولا يقــــيم على خسف يراد به
إلا الأذلان : عير الحــى والوتد

هــذا على الخسف مربوط برمته
وذا يشــج فمــا يرثى لــه احــد

إذا لم يرحــل :

وفى البــلاد إذا ما خفت نائرة
مشهورة عن ولاة الســوء مبتعــد

---

(٨) ديوان المتلمس الضبعى ص ٢٠٨ ٠

يقـــول عبد قيس بن خفـــاف البرجمى(٩) :

واترك محل السوء لا تحــلل به

وإذا نبـــا بك منزل فتحـــــول

دار الهـــوان لمـــن رآهـــا داره

أفراحـــل عنها كمن لم يرحـــل

وقـــال الشـــنفرى(١٠) :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيها لمن خاف القـلى متحـول

كانت تلك إحـــدى السبل للتخلص من هـــذا الظلم وذلك الهـــوان وقـــد سلكه طائفة الصعاليك ، فخرجوا من قبائلهم . وتجمعوا فى أماكن معينة ، واخـــذوا يمارســـون هـــوايتهم فى قطـــع الطرق على الأغنياء والســـادة الظلمـــة .

وآخرون وجـــدوا السلوى فى الخمر والنساء ، وحاولوا من خلالها أن ينسوا همومهم وظلمهم ، فانكر ذووهم ذلك منهم ، أو انهم — أصلا — كانوا محبين للخمـــر والنســـاء واللهـــو ، وأسرفوا فى ذلك فطردوا من قبـــــائلهم ..

ومن هؤلاء : أمير شـــعراء الجاهلية « امرؤ القيس » القائل :

---

(٩) المفضليات رقم ١١٦ ص ٣٨٥ .

(١٠) لامية العـــرب/شرح عطـــــاء الله المصرى الأزهـــرى — تحقيق د/عبد الله الغزالى ص ٤٠ ط الكويت .

واصبحت ودعت الصبا غير أنني

أراقب خــلات من العيش أربعــا

فمنهـــن قـــولى للندامى ترفقـــوا

يداجـــون نشاجا من الخمر مترعا

ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنـــا

يبـــادون سربا آمنـــا أن يفـــزعا

ومنهم شاعرنا : طرفـــة بن العبد البكرى القائل(١١) :

وما زال تشرابى الخمور ولـــذتى

وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلـــدى

إلى ان تحـــامتنى العشيرة كلهـــا

وافردت إفراد البعـــير المعبــــد

كما « أن المجتمع الجاهلى كان يخلو — مـــع كثرة الفراغ — من وســـائل اللهـــو والمتعـــة والتسلية ، إلا من الخروج للصيد ، أو الاختلاف إلى الحانات لشرب الخمر ، أو لعـــب الميسر ، أو الرهان على ســـباق الخيل ، أو تتبع المرأة للهـــو بهـــا ، وقـــد استشعر الجاهليون هـــذا الفراغ وحاولوا أن يقطعوه بهـــذه الوسائل »(١٢) .

---

(١١) الديوان — من المعلقـــة .

(١٢) مقـــدمة القصيدة فى الشعر الجاهلى ص ٦٢ .

(١٣) الديوان — من المعلقـــة .

يقـــول طرفـــة (١٣) :

ولـــولا ثلاث هن من عيشة الفتى

وجـــدك لم أحفل متى قام عودى

فمنهـــن ســبق العـــاذلات بشربة

كميت متى ما تعـــل بالمـــاء تزبد

وكرى إذا نادى المضـــاف محنبـــا

كســيد الغضـــا نبهتـــه المتـــورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

ببهكنة تحت الخبـــاء المعمـــد

★ ★ ★

الفصل الثالث

اسباب تمرد طرفه



اسباب تمرد طرفه

بينا فيما مضى كيف كانت الحياة القبلية تدفع أبناءها ذوى النفوس الأبية إلى التمرد عليها وعلى رئيس القبيلة ·· وكان ذلك عاما فى القبائل ··

وقد يضاف إلى هذه الأسباب العامة أسباب خاصة لدى كل متمرد ·· فما هى هذه الأسباب الخاصة بطرفة ؟

أولا — الظلم :

وهذا السبب وحده كفيل بتمرد طرفه ·

كان الظلم شائعا فى المجتمع الجاهلى بين القبائل ·· داخل القبيلة وخارجها ·· كما أسلفنا ·

وعلاقات القبائل بعضها ببعض قائمة على الظلم ·· القوى يغير على الضعيف فيسبى ويغنم ويقتل ·· حتى صارت حياتهم قائمة على ذلك : كما قال شاعرهم (١) :

يغار علينا واترين فيشتفى
بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة
فما ينقضى إلا ونحن على شطر

ولكن الظلم يكون أشد حينما يكون المغار عليهم الإخوة وأبناء

---

(١) دريد بن الصمة · ديوانه ص ٩٧ ·

العم ، يقـــول الشاعر(٢) :

واحيـــانا علــى بكـــر أخينـــا

إذا ما لم نجــــد إلا اخــــانا

إذا : الظلم متوقع ، وهــو شائع ٠٠ أما أن يكون الظلم من الرجل لابن أخيــه ٠٠ الصغير ٠/٠ اليتيم ٠٠ !!!

فذلك أمر مستبشع ٠٠ ولذا كان تعبير القرآن الكريم وتصويره لمـــن يظلم اليتيم يأكل مالــه بهــذه الصورة المرعبة **(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافــوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ٠٠ إن الذين يأكلــون أموال اليتامى ظلمــا إنمــا يأكلــون فى بطونهم نارا وسيصلون ســعيرا)(٣) هكذا ٠٠ (يأكلون فى بطونهم نارا) ٠٠**

يقـــول الأستاذ ســـيد قطب(٤) :

« هكذا تمس اللمســة الأولى شغاف القلوب ، قلوب الآباء المرهفة الحساسية تجـــاه ذريتهم الصغار ، بتصور ذريتهم الضعاف مكسورى الجناح لا راحم لهم ولا عاصم ، كى يعطفهم هـــذا التصـــور على اليتامى الذين وكلت إليهم أقـــدارهم ، بعـــد أن فقـــدوا الآباء ، فهم لا يدرون أن تكون ذريتهم غـــدا موكولة إلى من بعـــدهم من الأحيـــاء ، كما وكلت إليهم هم أقـــدار هـــؤلاء ٠/٠ مع توصيتهم بتقـــوى الله فيمن ولاهم الله عليهم

---

(٢) البيت للقطامى التغلبى يصـــور الحيـــاة فى الجاهلية انظر ديوانه ص ٨٦ تحقيق الدكتور السامرائى ٠

(٣) الآيتـــان ٩ ، ١٠ من ســـورة النساء ٠

(٤) فى ظلال القرآن — تفسير ســـورة النساء ٠

من الصغار ، لعـل الله يهيىء لصـغارهم من يتـولى أمرهم بالتقـوى والتحرج والحنان . وتوصيتهم كذلك بأن يقولوا فى شأن اليتامى قـولا سـديدا ، وهم يربونهم ويرعونهم كما يرعـون أموالهم ومتاعهم .

أما اللمسة الثانية فهى صورة مفزعة : صورة النـار فى البطون .. وصـورة السعير فى نهاية المطاف .. إن هـذا المـال نار .. وإنهم ليأكلون هـذه النار .. وإن مصيرهم إلى النار ، فهى النار تشوى البطون وتشوى الجلود . هى النار من باطن وظاهر . هى النار مجسمة حتى لتكاد تحسها البطون والجلود ، وحتى لتكاد تراها العيـون وهى تشوى البطون والجـلود .

إن هـذا التحـذير وذلك الوعيد فى هـذه الصورة المفزعة المرعبة ليدل على أن أكل أموال اليتامى كان أمرا شـائعا لدى الجاهلية .

ولكن « هـذه النصوص القرآنية بإيحاءاتها العنيفة العميقة فعلت فعلها فى نفـوس المسلمين ، خلصتها من رواسب الجاهلية .

هزتها هـزة عنيفة ألقت عنها هـذه الرواسب ، وأشاعت فيهـا الخـوف والتحرج والتقـوى والحـذر من المساس .. أى مساس بأموال اليتامى كانوا يرون فيها النار التى حـدثهم الله عنها فى هـذه النصوص القـوية العميقة الإيحاء .... » .

وكان النهى فى القرآن الكريم عن ظلم اليتيم صريحا وفى أكثر من موضـع (فأما اليتيم فلا تقهر)(٥) ، (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى

(٥) الآية ٩ من سـورة الضحى .

هى احسن)(٦) .. وغير ذلك ..

« إن اليتيم ضعيف فى الجماعة ، بفقده الوالد الحامى والمربى ، ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة ، على أساس التكافل الاجتماعى الذى يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعى »(٧) .

إن ظلم اليتيم فى صغره يرضعه لبن الحقد والكراهية على مجتمعه، وإن هؤلاء الصغار الأفراخ، زغب الحواصل فى حاجة لمن يعوضهم عن آبائهم، فيمسح دموعهم ، ويوجههم وينصحهم ويقيل عثراتهم، ويدفع عنهم ما لا يستطيعون من غوائل الدهر .

أما حين يفتح طفل صغير عينيه على الدنيا ، فيفاجأ بالخوف ممن ينتظر منهم الأمن ، والظلم ممن يتوقع أن يدفعوه عنه ، وبدلا من أن يمسحوا دمعته يكونون سببا فى انهمارها ....

حين يحدث ذلك فإن الطفل الصغير لا يكون أمامه سوى هدف واحد .. هو الانتقام لنفسه ، حين يستطيع ذلك ..

كل ذلك حدث لطرفة بن العبد البكرى ، ذلك الطفل الصغير ، الذى تخطفت أباه المنون ، وأسلمه الدهر إلى أعمامه ، الذين أبوا أن يقسموا الميراث ، ويعطوا أبناء أخيهم « العبد » حقهم ..

تفتحت عينا هذا الطفل على هذا الظلم البين من أعمامه ، ونظر فوجد أمه والدموع تنسكب على خديها .. فماذا عساه أن يفعل طفل لا حول له ولا قوة !!!

---

(٦) الأنعام الآية ١٥٢ .

(٧) فى ظلال القرآن ـ تفسير سورة الأنعام .

كما انه ليس لــه إخــوة كبار يأخــذون حقهم ..

هــذا العجز يزيد الغيظ .. وكانت ثمرة ذلك فى فترة مبكرة من عمر « طرفة » شــعرا يطفح بالغيظ وتحين الفرصة للانتقام .. لنتأمل هــذه الأبيــات(٨) :

ما تنظرون بحــق وردة فيــكم
صغر البنون ورهــط وردة غيب
قــد يبعث الأمر العظيم صــغيره
حتى تظــل لــه الدمــاء تصبب
والظــلم فــرق بــين حيى وائــل
بكــر تســاقيها المنــايا تغلب
قــد يورد الظلم المبين آجنـــا
ملحــا يخــالط بالذعاف ويقشب
والصــدق يألفــه اللبيب المرتجى
والــكذب يألفــــه الدنى الأخيب
ادوا الحقوق تفــر لكم اعراضكم
إن الــكريم إذا يحــرب يغضب

إن هــذه الأبيــات تفيض ألمــا وحسرة ، وتطفح غيظا وحنقــا ، بسبب العجز عن أخــذ الحــق (صغر البنون) ..

---

(٨) الديوان القصيدة الأولى ص ٣٢ . وردة : أم طرفة . رهط وردة : أخــوال طرفة . آجنــا : ماء متغيرا . الذعــاف : السم القاتل . يقشب : يخلط . تفــر : تصــان وتحفظ . يحرب : يسلب مالــه أو يهيــج .

واخـــوال « طرفة » لا وجـــود لهم ، ســواء تخاذلوا ولم ينهضوا لانتزاع حـــق ابنـــاء اختهم ، أم كانوا غائبين عن الســـاحة ٠٠ والأول أرجـــح ٠

فماذا يفعـــل الصغار ؟ لا شيء ٠٠

إلا أن الأمر فى نظر طرفة مختلف ٠٠ « فقـــد يبعث الأمر العظيم صـــغيره » فيكـــون هـــذا الصـــغير ســـببا فى إشـــعال حرب طـــويلة لا نهـــاية لهـــا ٠

أو أن المعنى أن الامر قـــد يكون صغيرا فى نظر آكلى الحقـــوق لكن « معظم النـــار من مستصغر الشرر » ٠

وانظر إلى طفـــل صـــغير ـــ المفترض فيـــه أن يكون بريئـــا ـــ وهـــو يقـــول :

. . . .

حتى تظـــل لـــه الدمـــاء تصبب

كيف تحـــولت الدنيا أمامه إلى ســـاحة حرب ممتلئـــة بالدماء وهى « تتصبب » مـــع استمرار ذلك « تظـــل » ؟! ٠

ثم كيـــف تخيل الفتى الصغير حربا تشتعل بين أبناء « العبـــد » وبين أعمامهم على غرار تلك الحرب التى نشبت بين بكر وتغلب ـــ وهما أخـــوان أيضا ٠٠ ولا غرو فالسبب فى كلتيهما واحـــد ٠٠ إنه الظلم ٠

وفى آخر الأبيات يطلق إنـــذارا لأعمـــامه بأن يؤدوا الحقـــوق وإلا عرضوا أنفسهم وأعراضهم لمـــا لا تحمد عقباه ٠

إن الذى يبعث على شـدة الألم أن يأتى الظلم ممن يتوقع منـه النصرة ، ويشتد الألم حين يحـدث ذلك تحت سمع وبصر القبيلة وسادتها الذين يتوقـع أبناؤها — فى ظلها — حمايتهم وعزهم وإغاثتهم ..

لكن شيئا من ذلك كلـه لم يحـدث ، فكان ذلك — وحـده — سببا كافيا وكفيلا لتمرد طرفـة على هـذا النظام — أو اللانظام — الجـائر ..

إنه مجتمع الغاب ، القـوى يأكل الضعيف .

إن الإنسان يعيش غريبـا بين أهله وقـومه حين يتخلون عنـه ، ولا يجـدهم وقت الحاجـة ، نصيرا لـه حينئذ يعـز النصير ، وظهيرا لـه على خصومه حين يلوونه حقـه ، وهـو لا حول لـه ولا قوة .

ولعل بيتا واحـدا لطرفـة ينبىء عن مدى ما يحسه ويشـعر به من ظـلم الأقـارب .

هـذا البيت لأنه نفثة مكلوم ، وزفرة مظلوم ، كان معبرا أصـدق تعبير ، ومصورا أقـوى تصوير عن هـذا المعنى ، ومن هنـا ضرب مثلا ، يقـول الشاعر(٩) :

وظلم ذوى القربى أشـد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

ثانيا — خـذلان قـومه لـه :

وإذا كانت القبيلة قـد قعدت عن أخـذ حقـه من أبنائها فإنهـا تخاذلت أيضاً عن نصرته ، ولم تأبه به ، وذلك :

---

(٩) الديوان — المعلقـة .

(أ) حين سجن بأمر « عمرو بن هنـــد » ، وعبر « طرفة » عـــن ذلك قائلا (١٠) :

ابلـــغ سراة بنى بكـــر مغلغـــلة
فجـــدع الله من آذانهـــا اليمنـــا

عنيت ثعلبـــة العجـــلى مألـــكة
عند الحوادث إذ ألى وإذ غبنا

والمرء قيسا يرى نواحـــــة بعثت
تبكى لميـــت ولا تبكى به شـــجنا

وهانئـــا هانئـــا فى الحى مومسة
ناطت ســـخابا وناطت فـــوقه ثكنـــا

ما دافعـــوا فـــيرى فيهم مكانهـــم
ولا سمعنا لهـــا من ذكرها حسنا

إنه يبعث إلى السادة الأكابر من قـــومه رسالة يستغيث بهم لفـــك أسره ، وإخراجـــه من سجنه ، لكنهم قعـــدوا عن نصرته ، ولم يبالـــوا بنـــدائه ، وصموا آذانهم دونه ..

ولذلك أخـــذ يدعـــو عليهم — متألمـــا من رد فعلهم — بأن يجـــدع الله آذانهم حتى لا يسمعوا بها .. لقـــد عطلوها عن وظيفتها المنوطـــة بها..إذا فلا فائدة من هذه الآذان التى لا تسمع استغاثة قريب منكوب ..

---

(١٠) الديوان ص ٢٣٢ . مغلغلة : رســـالة سريعة . مألـــكة : رسالة . ألى : أقصر وأبطـــأ . مومســـة : فاجـــرة . ناطـــت : علقت . ســـخاب : نوع من القـــلائد .

وهـــل هناك أجـــل وأعظم وظيـــفة للأذن من سماع اســتغاثة قريب !! ألا فليجــدعها الله طالمـــا أنهم لم يسمعوا بها ٠

ويخص طرفـــة من بين شرفاء قـــومه :

« ثعلبة العجلى » ـــ وهـــو أحـــد أجـــداده ـــ يقصد بنيه ٠٠ ثم يسلط الهجاء على شـــخصين هما :

« قيس » الذى كان كل ما فعله حين بلغته الاستغاثة أن أخـــذ يبكى وينـــوح كما تنوح النائحة على ميت ٠٠

وكأنى بالشـــاعر يقـــول :

إذا كان النـــواح وبكاء الميت سيردانه إلى الحيـــاة مرة أخرى فإن بكاء « قيس » ونواحـــه سيكونان سببا فى إخراجى من السجن ولـــكن هيهـــــات ٠٠

ثم إن بكاء « قيس » ليس بكاء حقيقيا ، إنما هو مصطنع مثل نواح النائحة المـــأجورة التى تبكى وتنوح على قـــدر أجرتها ٠

وأما « هانىء » فهـــو كامرأة فاجـــرة ، ضـــمخت نفسها بالمسك ، وتزينت بالحلى لتجـــذب أنظـــار الناس إليهـــا ٠٠ هـــذا كل هم قيس وتلك حياته ٠٠٠ أما أن يغيث مستغيثا من قـــومه ، أو يعير نداءه اهتماما ٠٠ فـــــلا ٠

لقـــد قعـــد قومه عن نصرته ، وهـــذه وصمة عار فى جبينهم ، إذ فرطـــوا فى شرفهم وكرامتهم ، ولم يقـــوموا بواجبهم ، فلم ينشر لهم ذكر حسن ولا أثر طيب ٠

وفى أبيـات أخرى يقـول طرفة (١١) :

يا حقبـة السوء بنـا اسـجحن
قـد كنت عـن هضبتنا نازحـة

اسلمنى قـومى ولم يغضـبوا
لسـوءة حلـت بهم فادحـة

كـل خليـل كنت خاللتـه
لا تـرك الله لـه واضـحة

كلهـم أروغ مـن ثعـلب
ما أشـبه الليـلة بالبارحـة

إنه متألم ـ أيضا ـ لخـذلان أصحابه له ، وعـدم نصرتهم إياه ، ويقول . لقـد ارتكبوا بذلك جـرما شـنيعا ، وهم ـ مـع ذلك ـ لم يبالـوا بمـا وصموا به بسبب ذلك من الخزى والعار وقبيح الصفات .

ويقـول : إنهم لا إحساس لديهم .. لم يغضبوا لمصيبة المصائب التى حلت بهم وألبستهم ثوب الـذل والعار ..

ثم يدعـو على كـل من كانت لـه معه صـحبة ، أو صـداقة ، أو تظاهر لـه بذلك فيسأل الله ألا يبقى لـه سنا ، أى يدعـو عليـه بالحزن الدائم أبدا ما عاش .

---

(١١) الديوان ص ٢٥ . اسجحن : أرفقن . الهضبة : معروفة والمـراد بهـا هنا العز . نازحة : بعيدة . سوءة : خلة قبيحة . واضحة : أى الأسنان تتضح عند الضـحك .

وذلك جزاء على تخليهم عنه ، وقعودهم عن نصرته ، وعدم قيامهم بواجبهم تجاهه من المؤازرة له والدفاع عنه .

لقد كانوا أروغ من الثعالب ، وكلهم كذلك ، لم يسلم واحد منهم من هذه الخلة السيئة .

وقوله : (ما أشبه الليلة بالبارحة) : أى هم سواء فى سواد القلب ، وسوء الطوية ، وفساد النية ، وعدم الإخلاص ، والغدر .

وتلك طبيعتهم ، وقد تكرر منهم هذا الموقف .

وهذه إشارة إلى أنه كان قد استغاث بهم مرتين ، مرة حين سجن ، وهذه هى الثانية .

أو أنه يقصد بالبارحة يوم خذلوه وأمه وإخوته حين ظلمه أعمامه .

والأبيات — على قلتها — « طافحة بشعور قائلها ، إنها أشبه بالأنين المكبوت .. صادرة عن نفس مترعة بالألم وخيبة الأمل ، وهى زفرة نفس مكلومة ، مهيضة ، متألمة مما أصابها من تخاذل الصحب والخلان ساعة العسرة »(١٢) .

(ب) موقف « مالك » ابن عمه منه .

---

(١٢) راجع : طرفة بن العبد — د. محمد على الهاشمى (١٨٢) بتصرف وإيجاز .

يخص « طرفة » — فى المعلقة — ابن عمه هذا بأبيات يقول فيها(١٣) :

فمالى أرانى وابن عمى مالكا
متى أدن منه ينأ عنى ويبعد

يلوم ، وما أدرى علام يلومنى ؟
كما لامنى فى الحى « قرط بن أعبد »

وأياسنى من كل خير طلبته
كأنا وضعناه على رأس ملحد

على غير شىء قلته غير أننى
نشدت فلم أغفل حمولة معبد

وقربت بالقربى وجدك أننى
متى يك عهد للناكثين أشهد

وإن ادع للجلى أكن من حماتها
وإن تاتك الأعداء بالجهد أجهد

وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسقهم
بشرب حياض الموت قبل التهدد

بلا حدث أحدثته وكمحدث
هجائى وقذفى بالشكاة ومطردى

---

(١٣) الديوان ص ٥٤ وما بعدها — والأبيات من المعلقة . ملحد : وضع فى اللحد . الجلى : الأمور الخطيرة العظيمة . القذع : القبح والفحش . ومطردى : جعلنى طريدا .

فلو كان مولاى امرءا هو غيره
لفرج كـــربى أو لأنظرنى غـــدى
ولــكن مولاى امرؤ هـــو خانقى
على الشـــكر والتسآل أو أنا مفتـــد
وظلم ذوى القربى اشـــد مضاضة
على المرء من وقـــع الحسام المهند
فذرنى وعرضى إننى لك شـــاكر
ولـــو حل بيتى نائيا عند ضرغـــد
فلـــو شاء ربى كنت قيس بن خالد
ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد
فاصبحت ذا مـــال كثير وعـــادنى
بنـــون كـــرام ســـادة لمســـود

ويحسن بنـــا أن ننقـــل هنا كلام الدكتور طـــه حسين بعبـــاراته الرشيقة واســـلوبه السلس العـــذب .. يقـــول(١٤) :

« نحـــن أمام شـــاعر يؤذيه تقصـــير ابن عمـــه فى ذاته ، وإيذاء ابن عمـــه لـــه ، وإسراف ابن عمـــه عليه ، والتـــواء ابن عمـــه بحقوق المودة والقربى بخلا وشحا وأثرة ، فهـــو يألم لذلك ، ويضيق به ، ويشكو منه ، ولا سيما وهـــو فى سيرته بعيد كل البعـــد عن هـــذه الخصال ،

=

ضرغـــد : حرة ببـــلاء غطفـــان .

(١٤) حـــديث الأربعـــاء ٧٣/١ .

مرتفــع كل الارتفاع عن هــذه الهنات ، فمن حقــه أن يلقى من أكفــائه ونظرائه مثلمـــا يلقى منه الأكفاء والنظراء .

والذى يحتقر أعراض الحيـــاة ، ويصغر المــــال ويزدريه ، بل يصغر المنافـــع كلها ويزدريها ، ولا يكبر إلا الخلق الكبير ، ولا يقـــدر إلا السيرة التى هى خليقة أن تقـــدر ، لأنها مملوءة بمـــا ينفـــع النـــاس ويصلح أمورهم ، الرجـــل الذى لا يبخـــل بالمـــال حين يطلب إليـــه المـــال ، ولا يبخل بالحيـــاة نفسها حين تطلب إليه الحيـــاة ، خليـــق أن يزدرى البخل والجبن ، وأن يزدرى معهما البخيل والجبان ، وهـــو خليق أن يألم حين يرى من أكفائه أو ممـــن كان يعـــدهم أكفاءه جبنـــا وبخـــــلا (١٠) » .

ولكن ما الذى حـــدث بين طرفـــة ومالك ؟

شاعرنا يذكر أنه طلب إلى ابن عمـــه أن يساعده فى الحصول على الإبل التى ضلت ، أو ربمـــا سرقت ، وكانت هـــذه الإبل لأخى طرفـــة « معبـــد » .. ولكن ابن عمـــه بدلا من أن يعينه فى ذلك نأى عنـــه ، وأكثر من لومه ومؤاخـــذته ، وأيأسه من كل خير يرجى منه .

ثم يتعجب الشاعر من موقف ابن عمـــه ، ويقـــول : لقـــد وقفت إلى جانبـــه فى السراء والضراء ، فهـــل يكون جـــزائى منـــه الشتم والسب وتأليب القـــوم على !!!

وعلى قـــدر أمل طرفـــة فى ابن عمـــه كانت صدمته قاسية ، ولذا شبهه بالميت الذى لا يرجى منه نفـــع ولا خير .

إن طرفـــة لم يأت جناية ، ولم يرتكب جرما .. يقول :

على غير ذنب قلتـــه غير انني

نشدت فلم اغفـل حمولة معبـد

اى اننى حينما ضاعت الإبل لم اهمـل أو اقصر فى طلبها وإعادتها ·· فمـاذا جنيت !؟

لكن مالكا كان مـع قومه ، بل محرضا لهم ، واتخـذوا موقفـا واحـدا من طرفة ، بعـد أن حكموا عليـه حكما جماعيا بأنه مهمـل مقصر ، وإلا فكيف ضاعت الإبل ؟؟

كان طرفـة يتمنى لـو شـذ « مالك » عن القبيلة ، وانحاز إلى جانبه ردا لجميل طرفـة فى المـاضى ·· لكن مالكا كان كأغلب العرب ـــ مـع قبائلهم ـــ فى غيهم ورشـدهم ، لا يرى إلا ما تراه القبيـلة ، وإلا طـرد ··

ويرى محقق الديوان ان الإبل هـذه التى طلبها « طرفـة » ليست الإبل التى ضلت منه ، وإنمـا هى حـق « طرفـة » وإخـوته الذى اكـله اعمـامهم فى بطونهم وآلت إلى مالك ـــ فذهب « طرفـة » يطلبها فرفض مالك ·

لكن سياق الأبيـات هنـا يدل على أن الإبل هى الإبل التى ضيعها طرفة ، وإلا فكيف يدنو « طرفـة » من « مالك » وهـو آكل حقـه ؟؟ ثم كيف يقـدم لـه هـذه الايادى الطوال وهـو آكل هـذا الحق ؟؟ ·· ثم بعـد ذلك يلوم وهـو آكل الحـق ؟؟

ولـو كانت الإبل المطلوبة هى حـق طرفة وإخوته لمـا ذكر انهـا (حمولة معبـد) لأنها حـق الأسرة كلها ···

ثم إن طرفـــة يقـــول :

وأياسنى من كـــل خير طلبته ٠٠

ولم يقـــل « حـــق » ٠٠ وإنمـــا هـــو طلب الإعانة فى البحث عن الإبل المفقـــودة ٠

وقـــــــوله :

فلـــو كان مولاى امرأ هـــو غيره

لفرج كربى أو لأنظرنى غـــــدى

يدل دلالة واضحة على ان المطلوب هـــو المساعدة فى البحث عن الإبل المقصودة وهـــذا هـــو الكرب ٠٠ كرب طارىء ، وليس ظلمـــــا قـــــديما ٠٠

وقـــــــوله ٠٠

٠ ٠ ٠ ٠ أو لأنظـــرنى غـــــدى

الصـــق بالمعنى الذى ذكرنا ٠٠٠ فالشـــاعر يقـــول : كان عليـــه الا يعجل فى الحكم على ، ويتأنى فى أمرى ٠٠ ويعطينى فرصـــة ربمـــا حصلت فيهـــا على الإبل ٠٠

أما بيتـــــه :

وظلم ذوى القربى اشـــد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

فهـــو بيت يشمل كل المواقف التى ظلم فيها طرفـــة من أقربائه ، ســـواء من القبيلة أو من اهـــله الادنين ٠٠ وكان تضييعه الإبل وموقفهم منه ، هـــو بداية مشكلاته معهم ٠٠ والذى اتخـــذوا منه هـــذا الموقف

المضـــاد فاعتبره ظلمـــا ٠٠ وكان يمكن الا يحـــدث لـــو أن ابن عمــه ساعده فوجـــد الإبل(*) وتحاشى بذلك محاكمة القبيلة لـــه ٠٠ ومن هنـــا كان نكيره على ابن عمـــه ٠٠

يقـــول إيليا حاوى(١٥) :

إن « هـــذه الأبيـــات تظهر لنـــا طرفـــة بوجهه الواقعى الخاص ، فى تنازعـــه مـــع أهله ، فضلا عن تنازعه مـــع ذاته ، لقـــد ظلمـــه ابن عمه ، وهضم حقـــوقه ، كما كان قـــد هضم حقوق والدته وظلمهـــا قبلا ، فاضطر الشاعر ان يتشفع لديه لينال إبل أخيه ٠ ثم يرتد فيظهر لـــه قوته فى المدافعة عن عرضه ، ومدى بطشه وشـــدته ، ولا يعتم أن يتظلم إليه ، مظهرا الغـــبن الذى يلحقـــه به بالرغم من محبتـــه لـــه ، ومدافعتـــه عنـــه » ٠

وتشعر فى هـــذا الكلام بشىء من التناقض ٠٠ فكيف يسوغ أن يكون مالك هـــو الذى اكل حـــق طرفـــة وهضم حقـــوق أمه قبلا ، وطرفـــة يحبه ويدافـــع عنه ؟؟ هـــذا مستبعد ٠

وإنمـــا الذى اكل حقـــوق أمه وإخـــوته ، إنمـــا اعمامه وليس ابناء الأعمـــــام ٠

(*) وهناك راى يقـــول إن الإبل اخـــذها مالك ولم يردها لطرفـــة فكان سبب الغبن الذى وقـــع عليـــه ٠

(١٥) فى النقـــد والأدب ـــ جـ ١ ص ٢٥٠ ط دار الكتـــاب اللبنانى ـــ بيروت ٠

(جـ) موقف صهره — عبد عمرو بن بشر — منه :

لقــد كان حظ طرفــة نكدا فى أقاربه — كما بينا — ، وها هــو صهره — كذلك — عبد عمرو بن بشر زوج أخت طرفــة ، لم يسلم منــه طرفــة ، بل ظلمــه ، وأســاء إليــه مرتين :

الأولى : حينما أساء معاملة أخته ، وظلمها ، فشكت إلى طرفــة فقــال يهجــوه(١٦) :

فياعجبا من عبــد عمرو وبغيــه
لقــد رام ظلمى عبد عمرو فأنعما

ولا خير فيه غير أن لــه غنى
وأن لــه كشحا إذا قام أهضما

يظل نساء الحى يعكفن حــوله
يقــلن عسيب مــن سرارة ملهمـــا

---

(١٦) الديوان ١٤١ ، ١٤٢ . أنعم : بالغ وزاد . الكشح : الخصر . أهضم : ضامر لطيف ، وأصــل الهضم : النقصان . يعكفــن : يقمن . العسيب : جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها . سرارة كل شىء : وسطه وأفضله . ملهم : موضع باليمامة كثير النخــــل .

=

لــه شربتــان بالنهــار وأربــع
من الليل حتى آض سخدا مورما

ويشرب حتى يغمر المحض قلبه
وإن أعطــه أترك لقلبى مجثمــا

كأن الســلاح فــوق شــعبة بانة
ترى نفجــا ورد الأسرة أســحما

وطرفــة يعجب من ظلم ابن عمــه ، وهو غاضب من سوء سلوكه ، ولــذا جاءت أبياته بهــذه السخرية اللاذعــة كاشفة عمــا بداخــله من ألم يعتصره ٠٠

وهــو يصف عبد عمرو بن بشر بأنه ليس رجــلا ، إنمــا هـــو مخنث فهــو يجمع النساء حــوله — من جهــة — ، ومن جهــة أخرى هــو يتشبه بالنساء ، إنه ذو كشح أهضم ضــامر ، وهــذا على ســبيل التهكم لأنه كان فى الحقيقة بدينــا مترهلا ٠ وهــو — حين يتجمع النساء حــوله — يكون كعسيب ملهم المفضــل ٠

وهــو كثير الشرب للبن ليــلا ونهــارا ، ولا عمل لــه سوى الأكل والشرب ، ومجالسة النساء ٠٠ ولــذا انتفــخ جسمه وترهــل فصار يتثنى فى مشيته ويتضمخ بالطيب والزعفران ٠٠

آض : صــار ٠ الســخد : ماء الرحــم الــذى يخرج مــع الولد وهــو ماء أصفر غليــظ ٠ مــورما : منتفخــا ٠ المحض : اللبن الخالص ٠ يغمر قلبه : يكون فوقه ويكثر عليه ٠ مجثم : موضع ٠ شعبه : طرف الغصن ٠ البانة : شجرة ضعيفة لينة ٠ نفجا : ضخم الأرداف ٠ الأسرة : أسرة البطن ، الأسحم : الأسود الذى ليس بخالص السواد ٠

وهـــو لإسرافه فى شرب اللبن يضيق نفسه ، ولا يبـــقى لقلبـــه مكان ، ويظل يشرب حتى يفقـــد وعيـــه ٠

وهـــو وإن كان لابسا سلاحا إلا أن السلاح معلق فـــوق غصن بان ، رخـــو ، لين ٠ ففيـــه ترهـــلات ، وقـــد علت طرائق بطنـــه حمـــرة مشـــوبة بســـمرة ٠

وهـــذا الهجاء الساخر يذكرنا بهجاء « ابن الرومى » الذى برز فيـــه ٠ غير أن طرفـــة سبق عصره بمسافة بعيدة ٠٠ فقـــد استغل العيوب الجسدية ورسم لمهجوه بها صورة « كاريكاتورية » ساخرة جعلته مثـــلة شـــوهاء مضـــحكة ٠

وهـــو هجاء ينم عن عاطفـــة مشبعة بالحزن والأسى ٠

الثانية : يبـــدو أن « عبد عمرو بن بشر » هـــذا كان صاحب أخلاق ســـيئة ، فلا خير فيـــه لأهـــله وذويه ، بل كان أنانيـــا ، يبيـــع كل شىء من أجـــل عرض الدنيا ، فهـــا هـــو يشى بطرفة لدى عمرو بن هند ، إثر مزح من طرفـــة لم يفهمه « عبد عمرو » على حقيقته بل اعتبره جـــدا لا هـــزلا ، ومن هنـــا ســـارع بإبلاغـــه لعمـــرو بن هنـــد — فســـبب ذلك لطرفـــة أذى كبيرا ، وجرحـــا عميقـــا ، وعاقبـــة غير محمودة ٠٠ ولـــذا قال طرفـــة يهجوه(١٧) :

ألا أبلغا عبد الضـــلال رســـالة

وقـــد يبلغ الأنباء عنـــك رســـول

---

(١٧) الديوان ص ١١٨ ، وما بعـــدها ٠ وهى فى فصـــل المقـــال فى شرح كتاب الأمثال للبكرى ص ٢٦٢ ٠

دببت بسرى بعد ما قد علمته

وانت باسرار الكرام نسول

وكيف تضل القصد والحق واضح

وللحق بين الصالحين سبيل

وفرق عن بيتيك سعد بن مالك

وعوفا وعمرا ما تشى وتقول

فانت على الادنى شمال عرية

شآمية تزوى الوجوه بليل

وانت على الأقصى صبا غير قرة

تذاءب منها مرزغ ومسيل

عبد الضلال : عبد عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد • دببت بسرى : مشيت به إلى الملك • نسول : سريع المشى •

سعد بن مالك وعوف وعمرو : من بنى قيس بن ثعلبة ، ومنهم عبد عمرو وطرفة • على الأدنى : على الأقارب • شمال عرية : الشمال : ريح معروفة غير محمودة عندهم لأنها تمحو السحاب وتجىء بالبرد • عرية : بلا شمس • ويقال للشمال عرية إذا كانت فى غير شمس ، فإذا عصفت فى مطر فهى بليل •

شآمية : تهب من جهة الشام • تزوى الوجوه : تقبضها لشدة بردها • بليل : باردة ، وقيل : ذات ندى وبرد •

الأقصى : الأباعد • صبا غير قرة : أى ريح لطيفة لينة غير باردة •

تذاءب : تجىء من هاهنا مرة ومن هاهنا مرة كالذئب • المرزغ : القليل من المطر •

المسيل : المطر الغزير الذى تسيل الأرض منه •

فاصبحت فقعا نابتا بقرارة

تصوح عنه والذليل قليل

واعلم علما ليس بالظن أنه

إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

وإن لسان المرء ما لم تكن له

حصاة على عوراته لدليل

وإن امرأ لم يعف يوما فكاهة

لمن لم يرد سوءا بها لجهول

إنه يبعث برسالة إلى ابن عمه وصهره يستهلها « بهذا التنبيه الجاهر المدوى : ألا أبلغا عبد الضلال رسالة ، ولنا أن نتمثل شحنة الغضب التى كانت تمور بها نفس طرفة ، حين ألقى بهذه العبارات الحارة المتفجرة كالقذائف ، مضيفا فيها « عبد عمرو » إلى الضلال .. »(١٨) .

ومضمون الرسالة : انك يا عبد عمرو أفشيت سرى الذى خبرتك وحدك به ، فانت غير مؤتمن على الأسرار ، خائن ، تخون الكرام ، وتخيب ثقتهم فيك .

فقعا : الفقع : الكمء الابيض يطلع من الأرض ويضرب مثلا للذليل فيقال (أذل من فقع بقاع) . والقرارة المطمئن من الأرض . تصوح : تشقق . المولى : ابن العم . الحصاة : العقل الذى يردع صاحبه عن القبيح .

(١٨) د/محمد على الهاشمى — ص ١٥٢ وما بعدها .

ثم يقول لــه : إن الحــق واضح بين ، ولكن أمام الصالحين وأنت لم تره لأنك لست منهم ٠

ولم تكن هــذه المرة الأولى أو الخصلة السيئة الوحيدة فيــك ، وإنمــا ذلك ديدنك ، وتلك ســجيتك فأنت النمام المعروف ٠٠ أو لســت الذى سعيت بالوشاية والنميمة بين أبناء العمومة ففرقت بينهم !!

وهكذا أنت يا عبد عمرو ، على أقاربك مثل ريح الشمال البــاردة القاسية العارية من الشمس ، العاصفة مــع المطــر ، فتــؤذى إذ تقبض الوجــوه ، وتبعث الألم فى الأجسام ٠

وكأنى به يقــول أيضا لــه : أنت غير مرغوب فيــك كريح الشمال ٠٠ وفى حــين يكون حالــه ذلك مــع الأقارب يكون على العكس مــع الأباعــد ، فهــو معهم كريح الصبا اللينة ، التى لا تشتد لأنها لا تأتى من جهــة واحــدة ، إنمــا من هنــا مرة ومن هنــاك أخرى ويأتى من ورائها الخير العميم ٠٠

وهى صورة مستمدة من البيئة العربية ٠

وقــد جرت خصالة السيئة عليه عاقبة وخيمة ، لقــد صار ذليــلا فى قــومه ، مهينا ، لا وزن لــه ٠ وإذا كان طرفــة قــد استمد الصورة السابقة من البيئة فإنه يصــور ذلــة ابن عمــه فى صيغة مثــل ســائر عند العرب إذ يقــولون : « أذل من فقــع بقاع » ذلك الذى ينبت على وجــه الأرض فيوطــأ بالاقــدام ٠٠ فهــو لذلتــــه وهــوانه يوطــأ مثل هــذا الفقع ٠٠ لقــد أضاع كرامته ، وحط من قيمته ، وأصــبح وحيدا ، ذليــلا ، لا أنصار لــه ولا أعــوان ٠

ثالثا — الفقــــر :

قال الله تعالى : « **المـــال والبنون زينة الحياة الدنيا** »(١٩) • وكان الرســول المصطفى يستعيذ بالله من الفقر مقترنا بالكفر قائلا : « اللهم إنى أعــوذ بك من الكفر والفقر •• وأعــوذ بك من غلبـــة الدين وقهــــر الرجـــال »(٢٠) •

وقال أيضا : « اللهم إنى أعــوذ بك من الفقر والقــلة والـــذلة ، وأعـــوذ بك من أن أظلم أو أظلم »(٢١) •

نعم إن الفقر يذل الرجال ويقهرهم ولــذا قال — ﷺ — مبينا أثر الـــدين على المستدين : « إن الرجـــل إذا غـــرم — استدان — حـــدث فكذب ، ووعـــد فأخلف »(٢٢) •

وفى إشـــارة إلى علاقـــة الفقر والغنى بالفضائل والرذائل ذكـــر حـــديث الرجـــل الذى تصـــدق بالليل على رجـــل فصـــادفت صـــدقته سارقا ، فتحـــدث الناس بذلك ، ثم تصـــدق مـــرة أخرى على امــرأة فصادفت صـــدقته زانية • فأصبح الناس يتحـــدثون بذلك ، تصـــدق الليلة على زانية ، فجاءه فى المنام من قال لــــه : أما صـــدقتك على ســــارق فلعله أن يستعف عـــن سرقته ، وأما صـــدقتك على زانيـــة فلعلهـــا أن تستعف عن زناهـــا •• فظهر بذلك أثر الغنى فى استعفاف الرجـــل عن

---

(١٩) ســـورة الكهـــف آية ٤٦ •

(٢٠) رواه أبـــو داود •

(٢١) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجـــه والحـــاكم عن أبى هريرة ورمز لـــه فى الجامع الصغير بعـــلامة الحسن •

(٢٢) رواه البخـــارى •

السرقة واستعفاف المرأة عن الفاحشة(٢٣) ٠

وقـد اثر عن أحـد الصحابة قـوله : « لـو دخل الفقر بلـدا لقال لـه الكفر خـذنى معـك » ٠

وقالـوا : « صوت المعـدة أقـوى من صـوت الضمير » ٠

وسئل أعرابى : ما أشـد الاشياء ؟ قال : كبد جائعة تؤدى إلى أمعاء ضيقة ٠ وليس من شـك فى ان هـذه العبارة الساذجة التى صـور فيها الأعرابى إحساسه إنمـا تشير إلى قصة الحياة الأساسية(٢٤) ٠

إن الفقر كدر صفاء الأسرة ، بل قـد يمزق أواصر المحبـة بينها ٠ بل نجـد القرآن الكريم يسـجل حقيقة تاريخية رهيبـة هى : أن بعض الآباء قتـلوا أولادهم وفلـذات أكبـادهم تحت وطأة الفقر المدقع ، أو خشية الفقر المتوقـع ، وهـو جريمة يندى لهـا جبين الإنسانية خجلا ، ويسود لهـا وجـه الفضيلة حزنا ، فلا عجب أن أنكرها القرآن أشـد الإنكار ، وحـذر منها أبلغ التحـذير(٢٥) ٠

فقال تعالى : « **ولا تقتـلوا أولادكـم من إملاق نحـن نرزقـكم وإياهم** »(٢٦) « **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئـا كبيرا** »(٢٧) ٠

---

(٢٣) راجـع : الإسلام والأوضاع الاقتصادية ــ الشيخ محمد الغزالى ، ومشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ــ د/القرضاوى ص ١٣ ٠

(٢٤) راجـع ، الشعراء الصعاليك د/يوسف خليف ص ٢٩ ٠

(٢٥) مشـكلة الفقـر ص ١٥ ٠

(٢٦) سـورة الأنعـام آية ١٥١ ٠

(٢٧) سـورة الإسراء آية ٣١ ٠

كان هــذا يحــدث فى الجاهلية ·· وفى جاهلية القرن العشرين يحــدث ما يجعــل الولدان شــيبا :

فقــد ذكرت جريدة « المسلمون » فى احــد اعــدادها (عــدد ٣٥٦) أن الأطفال المسلمين فى البانيا يباعون للمنصرين وأن عملية البيــع والشراء تتم تحت إشراف المنصرة المعروفة « تريزا » التى وعــدت البــابا بتحويل مائة ألف مسلم الى النصرانية ليكونوا فى استقباله عند اول زيارة لــه إلى البانيــا ·

وأذاعت الصحف ووكالات الأنباء أن رجــلا بلجيكيا اسمه «سابية» اشترى ثلاثين ألف طفــل صومالى مسلم لتحويلهم إلى النصرانية ، وقــد طلب هــذا النخــاس من الحــكومة البلجيكية تحــويل أو اعتماد مبلغ ثمانية وثلاثين مليــون دولار لإتمــام الصــفقة ووافقت الحــكومة على الفــور (٢٨) ·

ولمــاذا نذهب بعيدا عن منطقتنا هــذه : ففى لبنان : منذ سنوات قلائل قرأت ان رجلا عرض أحــد أبنائه للبيع ليطعم بقية الأبناء وذلك فى اعقــاب الحرب ، بل هنا ·· هنا فى مصر ما يندى لــه الجبين ·· فقــد ذكرت مجــلة اكتوبر المصرية تحت عنوان « أطفال للبيع » وقائع عجيبة منها : بواب عمــارة يعرض ابنــه للبيع مقابل عشرين ألف جنيه ، والشرطة تقبض عليــه متلبسا أثناء توقيع العقــد · وكان الرجل ينوى شراء منزل بثمن ابنه · وذلك فى الصعيد ·· بسوهاج !!!

ثم قــد يقال ذلك رجــل ابله أو جاهل ·· فمــا بالك بالمهندس !!

---

(٢٨) راجع كتاب « عرب ومسلمون للبيع — للدكتور عبد الودود شلبى ·

الذى ... طفلته لرجل أعمال مقابل ألفى جنيه وعقد عمل ·١٠
والحكايات كثيرة وكثيرة (٢٩) ·

وأدت مشكلة الفقر بالجاهليين أن أغارت القبيلة على أختها طمعا فى أموالها وأنعامها :

وأحيانا على بكر أخينا
إذا ما لم نجد إلا أخانا

ومن هنا كان العلاج الإسلامى لتلك المشكلة الخطيرة بوسائل متعددة (٣٠) ·

وكان الفقر فى الجاهلية سببا من أسباب تمرد المتمردين عامة على قبائلهم ، وبسببه خرج الصعاليك على قبائلهم يقطعون طريق الأثرياء ، ويسطون على ما معهم جزاء لهم على بخلهم وإمساكهم ·

فقـر طرفـة :

وقد نشأ طرفة — كما نعلم — يتيما ، فقيرا ، إذ استولى أعمامه على تركة أبيه ·· ويبدو أن أخاه « معبدا » كان مكافحا حتى استطاع أن يكون شيئا من ثروة ممثلة فى الإبل ، وعهد بها لطرفة ليرعاها ، لكنه ضيعها كما عرفنا من المعلقة وبذلك أصبحا فقيرين معدمين ·

وقد اعترف طرفة بفقره هذا ، وقال بعد أبياته فى ابن عمه (٣١) :

---

(٢٩) مجلة أكتوبر عدد ٨٨٣ — ٢٦ سبتمبر ١٩٩٣ ·
(٣٠) راجع : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ·
(٣١) الديوان ص ٥٨ ·

فلــو شــاء ربى كنت قيس بن خالــد

ولو شــاء ربى كنت عمرو بن مرثد

فاصــبحت ذا مــال كثير وعــادنى

بنــون كـــرام سـادة لمســود

يقـــول :

لــو شاء ربى أن يجعلنى غنيا ذا بنين ومال لخلقنى مثل قيس بن خالــد وعمرو بن مرثد ، وكانا ســيدين من ســادات العرب مشهورين بوفرة المــال وكثرة الأولاد .

وقيـــل :

إن « عمرو بن مرثد » لمــا سمع هــذا البيت أرســل إلى طرفــة فقال لــه : أما الولــد فالله يعطيكه ، وأما المــال فلا تبرح حتى تكون أوسطنا مالا ، ثم أمر بنيــه فأعطوه مائة من الإبل .

إن طرفــة يأسى لفقره هــذا حينما ينظر فى نفسه ، فيرى انه كان أحــق بالمــال والجاه من كثيرين .. وكيف لا وإننى :

أنا الرجــل الضرب الذى تعرفونه

خشاش كراس الحيــة المتوقـــد

وإننى الفتى ، الفتى الأوحــد فى القبيلة(٣٢) :

إذا القــوم قالوا من فتى خلت اننى

عنيت فلم اكســل ولــم أتبلــد

---

(٣٢) البيت من المعلقــة .

ومؤهلات أخرى كثيرة يراها طرفـة فى شخصه وليست فى غيره .. ومـع ذلك فهـو فقير ..

وطرفـة يعلم أن النـاس منصرفون عن الفقير .. فلا وزن لـه ، ولا قيمة ، وتسد أمامه السبل .

فالفقير إن غاب لم يسأل عنه أصـدقاؤه ، وإن حضر لم يحتف به ، بل لم يبـال به أصفياؤه .. حضـوره وغيـابه لا قيمة لهمـا عند الأدنين والأبعـدين . لا اهتمام برأيه ، ولا مبالاة لقـوله يقضى الأمـر فى غيـابه ، ولا يستشار فى حضوره .. شأنه شأن « تيم » الذين قـال فيهم الشـاعر :

ويقضى الأمـر حـين تغيب تيم
ولا يسـتأذنون وهـم حضـور

وكان نتيجة تجربة طرفـة مـع الفقر هـذه الأبيات التى تلخص هـذه المعـانى فقـال(٣٣) :

إذا قـل مال المرء قـل بهـاؤه
وضاقت عليـه أرضـه وسماؤه
وأصبح لا يدرى وإن كان حازما
أقـدامه خـير لـه أم وراؤه
ولم يمش فى وجه من الأرض واسع
من الناس إلا ضاق عنه فضاؤه

---

(٣٣) الديوان ص ١٥٩ — ١٦١ .

فإن غاب لم يشفق عليـــه صــــديقه

وإن آب لم يفرح بـــه اصـــفياؤه

وإن مات لم يفقـــد ولى ذهـــــابه

وإن عـــاش لم يسرر صـــديقا لقــاؤه

إلى أن يقـــول :

إذا قل مال المرء قـــل صـــديقه

ولم يجل فى قلب الخليل إخاؤه

إذا قل مال المرء لم يرض عقـــله

بنـــوه ولم يغضـــب لـــه أوليـــاؤه

وأصـــبح مردودا عليـــه كـــلامه

وإن كان منطيقـــا قليـــلا خطـــاؤه

ولنـــا عـــودة إلى الأبيات فى أصـــداء التمرد .

رابعـــــا :

ومن الأسباب التى أدت إلى تمـــرده أيضـــا :

ما فطر عليـــه من حب للحرية والانطلاق ، وقـــد رسخ ذلك عنده أنه لم يكن لـــه من أب يأمره وينهاه ، ويقول لـــه افعـــل ولا تفعل ، وكانت أمه عاملا قـــويا على ترسيخ هـــذه الحرية عنده ، فقـــد نشـــأته نشأة ناعمة إذ كانت تفيض عليه بحنانها ، مـمـــا جعله يقبـــل على الحياة ويأنس بكنفها كما كان يأنس بأحضان أمه ..

« ولعـــل نشأة طرفـــة فى كنـــف أمه ، تدلله وتؤثره ، أضعف من شخصيته ، ودفـــع به إلى الناحية السلبية من الحيـــاة ، فالمـــأثور أن أبنـــاء الدلال الناشئين فى النعمة يعجزون عن التكيف وفقـــا لمقتضيات

الحيــاة الجــدية ، ويميلون إلى جانب اللهــو والخمــول ، اى إلى الجانب اليسير الهــين منها »(٣٤) ٠

ونلحظ حبه للانطلاق والحرية منذ بداياته الشعرية،وذلك فى حكاية القبرة كما يحكيها البكرى — نقــلا عن كتاب ابن كرشم — فيقول(٣٥) :

إن أول من قال : (خــلالك الجــو فبيضى واصفرى) طرفــة ، وذلك انه قال لأمه وهــو غلام : إنى أريد صيد القنابر ، فابعثى أمتــك مــع البهم ٠

فقالت لــه أمه : يا بنى : إن المضيع من وكل مالــه وأضاع عياله ٠ وإنهــا ارسلت أمتها مــع البهم ٠

وخرج طرفــة وصاحب لــه معهما فخ حتى اتيا مكانا كانا يعهدان به القنابر كثيرة ، فنصبا الفخ ، وتنحيا غير بعيد ، فجعلت قبرة تحوم على الفخ ، ثم نقــرته فاخطاها ، فاقبــل طرفة نحــو فخــه وهــو يقـــول :

قـــد يعـــثر الجـــواد
وتبحـــــل البـــــلاد
وتنهـــــب التـــــلاد
ويضـــــعف الجـــــلاد
والفـــخ قـــد يعـــاد

ثم نصب فخــه ، فوقعت القنــابر حــول فخه ، وأقبلن يحــدن

(٣٤) فى النقــد والأدب جـ ٢٣٧/١ إيليــا الحاوى ٠
(٣٥) فصــل المقال فى شرح كتاب الأمثال — للبكرى ص ٢٢٧ ٠

عنه ، ويلقطن ما أصبن ، فلما طال به ذلك ضجر وانتزع فخه وهو يقول :

قاتلكن الله من قنابر
مهتديات بالفلا نوافر
ولاسقيتين معين الماطر
ولا رعيتن جنوب الحاجر

وانصرف هو وصاحبه راجعين ، ونظر فإذا بالقنابر قد سقطن بالمكان الذى كان نصب فيه فخه ليلتقطن فقال :

يا لك من قبرة بمعمر
خلالك الجو فبيضى واصفرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى

فلما أتى منزله ورأته أمه لم يصنع شيئا قالت :

لقد حدك حاد ، وصدك صاد .. فقال لها طرفة :

ما كنت محدودا إذا غدوت
وما رأيت مثل ما لقيت
من طائر ظل بنا يحوت
ينصب فى اللوح فما يفوت

فقالت له أمه :

إنى لأرجو أن تكون شاعرا ، وأن تشبه خالك ا.هـ .

أرأيت إلى قوله :

خلالك الجو فبيضى واصفرى

يقول لهـــا : اسعدى بهـــذا الجو العظيم ، حيث الغـــذاء والمـــاء ، والراحـــة والهـــدوء ، فكلى والعـــبى لـ وبيضى وامرحى ، فليس هنـــاك ما يفزعـــك ، بل طمأنينة وســـلام ، ولا يوجـــد شر يترصـــدك ، فخذى بحظـــك من الحياة ، وتمتعى بمـــا هىء لك من أسباب السعادة والنعيم قبـــل أن يحين أجلك المحتـــوم(٣٦) ٠

وإنك لتعجب حين تعلم أن طرفـــة قال ذلك وهـــو ابن سبع سنين كما قال الزمخشرى(٣٧) ٠

ومن كان كذلك فى صغره ، لا يحـــد من حريته حاد ، ولا يقيده قيـــد ، حرى به ان يرفض القيود القبلية الثقيلة ، وكذلك فعـــل طرفة ٠

والمح فى هـــذا الرجز — كذلك — معنى لطيفا يرمز به الشاعر إلى حال القبيلة وطبيعة الحكم فيها ٠٠ وكأنه يقول :

حـــق لشيخ القبيلة ان يفعـــل ما يشاء ، ويحكم بمـــا يريد ، ويأمر وينهى ، بغير حـــق ، فقـــد خـــلا لـــه الجـــو ، إذ لا وجود لمعارضة ، فـــله ان يبيض ويصفر ٠٠٠ وقـــد يقال : انى لمثل هـــذا الصغير أن يدرك ذلك ؟

ونقـــــــــول :

هـــذا الصغير أول ما تفتحت عيناه على ظلم ، على مرأى ومسمع من السادة والكبراء وشيخ القبيلة ٠٠ والظالمون لم يجـــدوا من يأخـــذ

(٣٦) الديوان ص ٢٦٣ ٠

(٣٧) المستقصى فى الأمثال للزمخشرى ٧٥/٢ — ط حيدر اباد — الهند — ط أولى ٠

على أيديهم ، فمن يخشون ؟ .. ولا يستبعد أن تكون هذه الإشارة هدفا لطرفة من خلال القبرة ، يرمز بها إلى حال القبيلة وشيخها فهو يسكت على ظلمهم ، وهم يسكتون على ظلمه ..

ولله رد القائل :

وأقتل داء رؤية العين ظالما

يسيء ويتلى فى المحافل حمده

والذين يقع عليهم ظلم هؤلاء وأولئك هم الضعاف الذين لا شوكة لهم ولا نصير مثل طرفة . فمن يذود عنهم ؟ لا أحد .. فليبض الظلمة وليصفروا .

خامسا — اعتداده بنفسه لدرجة الغرور :

لم يكن طرفة بين أبناء القبيلة شابا عاديا كأى شاب ، ولكنه متميز بينهم ، ظهرت عليه أمارت النبوغ منذ نعومة أظافره ، فهو الناقد الذواقة ، يشهد له بذلك حكاية « استنوق الجمل » الشهيرة .

فهذه الحكاية تنبىء عن :

١ — دقة الملاحظة عنده فى صغر سنه .

٢ — نبوغه .

٣ — جرأته وعدم خوفه .

لقد رأى طرفة أنه يملك أخطر الأسلحة فى مجتمع الجاهلية وأقواها .. إنه يملك قوة البيان ، بالإضافة إلى قوة السنان .. وبهما أو بأحدهما يدفع الخصوم ويذود عن الأعراض .. وها هو يقول(٣٨) .

---

(٣٨) الديوان ص ١٤٥ .

وتصـد عنك مخيلة الرجـل الـ

ـعريض موضـحة عـن العظـم

بحسام سـيفك أو لسـانك والـ

ـكلم الأصـيل كأرغـب الـكلم

إنه فتى ، بل هـو الفتى ، البطـل المغـوار ، أوتى من قـوة العارضة ، وذكاء الفـؤاد ، وفصاحة اللسان ما جعـل الشعر ينسـاب من شفتيه انسيابا فى قـوة وبلاغـة وسحر ، ثم هـو فـوق ذلك من سلالة سادة أشراف ، فلتتسع آمال الشاعر البطـل الكريم ، ويتجه ببصره وجسمه إلى السادة الكرام ، فلا يجالس إلا الملوك والرؤساء ... »(*) .

يقـــــول :

إذا القـوم قالـوا من فتى خلـت أننى

عنيت فـلم أكسـل ولم أتبـلد

لقـد بلغ الغـرور بطرفـة أن رأى الحـق معـه دائمـا ، وأن خصمه على خطـأ .. حتى إنه حين يعادى عـدوا من قبيلة ما فإن تلك القبيلة تكون فى صـف طرفـة ، وتنكر على خصمه موقفه ، وما ذلك إلا لمكانة طرفـة وعظم شأنه يقـول(٣٩) :

أرانى كلمـا عـاديت قـوما

أتيـح لهـم مـن الأدنى نكـير

إنهـا الثقة المطلقة فى طرفـة .. هـذه الثقة التى جعلته يعتقد

(*) د/على الجنـدى ص ٢٨٦ .

(٣٩) الديـوان ص ٩٤ .

أن قيسا وبلاد بنى لجيم وشيبان وإن بعـدت سيكونون معـه فى كـل حـال(٤٠) :

ستدنينى بلاد بنى لجيم
وقيس إن تخالفت الأمور
وشيبان وإن شطت نواها
عناق العيس والوقح الذكور

سادسا — إخفاقه فى تكسبه بشعره :

ماذا عسانا أن نتوقع من طفل تفتحت عيناه على الدنيا فوجدها ظالمة ، قاسية ، لم تعرف الرحمة مع الصغار الأبرياء الذين يستحقون العطف والحنان !!

طفل يتيم كان ينتظر أن يجد فى كل رجل من قبيلته أبا حانيا ، وقلبا رءوما .. وإذا به يصدم بما حدث له ، إذ يأتى الظلم ممن ينتظر منه الإنصاف ..

وما أكثر ذلك فى مجتمع الجاهليين !! ألا لعنة الله على الظالمين .

لقد كان بعض العرب يعيش حياته كلها عنده من الولد ما عنده ما يقبل واحدا منهم ، بل يعجب أحدهم حين يرى رسول الله — ﷺ — يقبل الحسن أو الحسين فيقول : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ! فيقول الرسول المصطفى « وماذا أفعل لك إذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك » !! وفى رواية « من لا يرحم لا يرحم » .

---

(٤٠) نفسه .

فمـــا بالك بمـــن ليس ابنـــه ؟؟ ٠

لقـــد كانوا يأكلون أموال اليتامى ، وكان ذلك شائعا بينهم ، يقرونه ولا ينكرونه بدليـــل الوعيد الشديد فى القرآن — كما بينا — ٠

لهـــذا كلـــه امتلأت نفس طرفـــة بحب الانتقام ، وإشفاء الغليل ، خاصـــة وانه يرى الظلم سلسلة متتابعة متصلة الحلقات ، لم تنقطع ٠

لقـــد تجرع الطفـــل الصغير مرارة الظـــلم ، وألم الجـــور من الاقارب ، فظـــل يشعر بالغربة بين ذويه ، وكأنه قال فى نفسه :

ها أنذا صرت فتى ، وأى فتى !! إننى الفتى الذى لم تنجب القبيلة مثيلا لـــه ، أنا الأوحـــد بينهم ، وهم عـــديمو النظر ، لم يقـــدروا فى هـــذا التميز والتفرد ٠٠ إذا هم لا يستحقون مثلى بينهم ، فلم يردوا على حقى المسلوب ٠ ولم يغفروا لى زلـــة ، فأى شىء يربطنى بهم ؟ وأى خير يرجى منهم !!

إذا فلأرحـــل ، وســـــأجد بديلا عنهم خـــيرا منهم وأفضـــل ٠٠٠

وكانت نفس طرفـــة مملـــوءة عـــزا ، محشوة إباء وانفـــة ، لا تسيغ الـــذل ، ولا ترضى الهـــوان ٠ نفس طموحة ، ترى أن مكانها إنمـــا هو بين السادة ، لابين الدهمـــاء المظلومين المستخفين ٠

ومن هنا طمع فى أن يكون من ندماء الملك « عمرو بن هند » ٠

وكان الملك عمرو بن هنـــد ملك الحيرة جبارا عاتيا ، وكان يلقب بـــ « مضرط الحجارة » لقـــوة شكيمته ، وشـــدة بأســـه ، وكان سريع الانفعال ، ســـهل الاستثارة ٠٠٠ وفى عهـــده كانت الحيرة موئلا للشعراء ، يفـــدون إليـــه من كل صوب وحـــدب ، ويضربون أكباد الإبل قاطعـــين

المفاوز والفيافى لينشدوا شـعرهم بين يديه ...(٤١) .

قـدم طرفـة على عمرو بن هنـد ، وأقام فى بلاطـه حينا من الدهر غير معـلوم ، كان طرفـة ينادم الملك ، وذات يوم أقبلت أختـه فرأى ظلهـا فى الجام الذى فى يده فقال(٤٢) :

ألا يـا بأبـى الظـبى الـــذى يبـرق شـنفاه

ولـولا المـلك القاعـــد قـد الثمنى فـاه

فحقـد ذلك عليه ، وكان قـد قال أيضا(٤٣) :

فليت لنـا مكان المـلك عمـرو رغـوثا حـول قبتنـا تـدور

مـن الزمـرات أسـبل قـادماها وضرتهـا مركنـة درور

(٤١) طرفـة بن العبد — حياته وشعره د/محمد على الهاشمى ص ٣٣ وما بعـدها (بإيجـاز) .

(٤٢) الشـعر والشـعراء ١٨٩ .

(٤٣) الديوان — ص ٩٢ الأبيـات من ٢١٥ — ٢٢٢ .

الرغوث : النعجة المرضع . تخـور : تصوت وأصـل الخـوار للبقرة فجعلها هنا للنعجة . الزمرات : القليلات الصوف ، وخصها لأنها أغزر لبنا . اسـبل : طـال وكمـل . قادماها : خلفـاها وأصلهما للناقـة لهـا أربعة أخلاف قادمين وآخرين . الضرة : لحم الضرع . مركنة : لها أركان أى جوانب . درور : كثيرة الدر .

=

يشـــاركنا لنـــا رخـــلان فيهـــا
وتعـــلوها الكبـــاش فمـــا تنـــور

لعمـــرك إن قـــابوس بن هنـــد
ليخلـــط ملـــكه نـــوك كثير

قسمت الدهـــر فى زمـــن رخـــى
كـــذاك الحـــكم يقصـــد أو يجور

لنـــا يـــوم وللكـــروان يـــوم
تطـــير البائســـات ومـــا نطـــير

فـــأما يومهـــن فيـــوم نحس
تطـــاردهن بالحـــدب الصـــقور

وأمـــا يومنـــا فنظـــل ركبـــا
وقـــوفا مـــا نحـــل ومـــا نسير

يقـــول الدكتور/محمـــد على الهاشمى(٤٤) :

« يغلب على الظن أن عمرو بن هند أعجب بشعر طرفـــة فى هـــذه الفترة الأخيرة من حيـــاته ، وأنس به ، وقربه ، ولكن فترة الإعجـــاب والأنس والتقريب هـــذه لم تطـــل للأسباب الآتية :

=

رخلان : مثنى رخـــل وهى الأنثى من أولاد الضأن ٠
تعلوها الكباش : تلقحها ٠ تنور : تنفر ٠ قابوس : أخـــو عمرو ابن هند ٠ النـــوك : الحماقة ٠ رخى : ســـهل لين ٠ كروان : جمع كروان ٠ نحس : شـــؤم ٠ الحـــدب : ما ارتفـــع من الأرض وغلـــظ ٠

(٤٤) طرفـــة بن العبـــد ص ٥٦ ، ٥٧ ٠

١ ـ شخصية طرفـة الفتية العزيزة المستعلية الفخور ، التى لا يمكن أن تـذوب فى شخصية المـلك الممـدوح ، ولا تستطيع على المجـاملة والتزلف والتملق صبراً .

٢ ـ تشبيبه بأخته . فهـو تطاول على مقـام البيت المـالك ، وخـوض فى أعراض عقيلاته من النساء .

٣ ـ تسرب أنبـاء هجـائه لعمـرو بن هنـد وأخيـه قابوس وبنى المنـذر .

٤ ـ مسير طرفـة مـع أخيـه عمرو بن أمامة إلى اليمـن ليعـد العـدة لقتال عمرو بن هند (٤٥) .

٥ ـ مطالبته عمرو بن هند بأخـذ الثار لأخيه عمرو بن أمامة من قبيـلة مـراد .

هـذه الأسباب أدت إلى نفض عمرو بن هنـد يده من إخـلاص طرفـة وولائه لـه ولعرشه . بل ثبت لـه تعاليه وتمرده والخروج عليه ، ومن ثم عقـد العزم على التخلص منه . فكان ما كان من أمر عمـرو ابن هند لعـامله على البحرين بقتـله .



(٤٥) وكان عمرو بن هند حينما ولى استعمل إخـوته لأمه ولم يستعمل أخاه عمرو بن أمامة لأنه من أم أخرى ، فلحق عمرو باليمن وسار معـه طرفـة تاركا إبله عند قابوس . وانتهى الأمر بمقتل عمرو ابن أمامة ، وأخـذ عمرو بن هند لإبل طرفـة .



الباب الثاني

اغـــتراب طرفـــة

الفصل الأول

الاغـــتراب الأول

(إفـــراده كالبعـــير المعبـــد)

الفصل الثاني

(خروجـــه مـــن القبيـــلة)



تمهيـد ـ الغـربة والاغـتراب :

يقـول أحـد الباحثين :

« والاغتراب مصطلح لا يعرفـه ـ فى معناه الحـديث ـ معجم النقـد العربى القـديم ، وتطبيقـه على الشـاعر الجاهلى فى نايه الجسدى عن وطنـه أو فى غربته الروحية أو الفكرية ، خطـأ يفضى إلى سـوء فهم معنى الغربة كما عاناها ذلك الشاعر القـديم (عنترة مثلا) إن كان عانى عـزلة روحية فى تلك الأيام ... »(١) .

نقـول .. لقـد عانى الشعراء الجاهليون غربة من النوعين .. وصرحوا بذلك .. وإلا فمـاذا نقول فى بيت طرفـة :

وافـردت إفـراد البعـير المعبـد

وقـوله داعيـا على المرأة التى سألته : أليس لك أهـل ؟

. . . .

. . . . سـئلت كـذلك

وإن لم يكن هنـاك ذكر للمصطلح إلا أن الغربة واقعـة فعـلا على الشعراء . وعـانوا منهـا أشـد المعـاناة ، وأصـداؤها واضـحة فى أشـعارهم(٢) .

وكلمة الغربة ومشتقاتها كان لهـا إيحاءات تبعث فيهم الألم والحزن والنفـور والتشاؤم .. ومن هنـا كانت كراهيتهم ـ مثلا ـ للغراب لأنه

---

(١) د/ عبد الجبـار المطلبى ـ مواقـف فى الأدب والنقـد ص ٤١ ط العـراق .

(٢) راجـع مثلا مقال : غربة الملك الضليل ـ عبد الرشيد صادق ـ مجلة فصـول ٢/٤ .

مشتق من الغـــربة . وقـــد سمى العرب طائفـــة الصعاليـــك المنبوذين فى العصر الجاهلى بـــ « أغـــربة العـــرب » .. وسموا نوعـــا من الغربان بـــ « غراب البين » . وهـــو الذى كانت تتشاءم منه العرب ، إذ ينـــوح نوح الحزين المصاب ، وينعق بين الخلان والأحباب ، إذا رأى شملا مجتمعا أنذر بشتاته ، وإن شاهد ربعـــا عامرا بشر بخـــرابه ودروس عرصـــاته ... الـــخ(٣) .

(حـــب الوطـــن)

يقـــول ابن الرومى(٤) :

وحبب أوطـــان الرجـــال إليهـــم

مآرب قضـــاها الرجـــال هنـــالكا

إذا ذكـــروا أوطانهـــم ذكـــرتهم

عهود الصبا فيها فحنـــوا لـــذلكا

فقـــد الفتـــه النفس حتى كأنه

لهـــا جسد إن بان غودر هالكا

فالكل يتعلق بالوطن ، لأنه ملاعب صباه وشبابه التى لا يبرح خيالها ذاكرته ، والتى طالمـــا ألفتها النفس وانست لهـــا ، بل لقـــد التصقت بهـــا التصاق الروح بالجسد ، بحيث لـــو انفصم أحـــدهما عن صاحبـــه أصـــبح من الهـــالكين(٥) .

(٣) راجـــع : تيارات معاصرة فى التراث العـــربى — العصر الجاهلى د/ســـعد دعبيس ص ٥٦ ، ٥٧ ، ودائرة معارف القرن العشرين/ محمـــد فريد وجـــدى ٥٢/٧ .
(٤) الديوان ص ٣ ، زهر الآداب ٩٩/٣ .
(٥) العصر العباسى الثانى د/شـــوقى ضيف ص ٢٠ .

ورغم تعلق كل إنسان بوطنـــه إلا أنه قـــد يضطر إلى الاغتراب ، حين يكون — مثلا — مقيداً بأغلال المجتمع ، وعاداته وتقاليده التى تحـــد من حريته ، ولا تتسق مـــع طبيعته وفطرته .. كما أسلفنا . فيخرج ناشدا الانطلاق والتخلص من أغـــلال القبيلة ..

ونجـــد نماذج لهـــذا الاغتراب فى شـــعراء الجاهليـــة ، كامرىء القيس الذى لم يكن اغترابه « إلا تنكرا منه لكثير من القيم التى فرضـــها عليه المجتمع بقيوده وأغلاله ، فأحس الشاعر رغبـــة عارمة فى ممارســـة حريته ، والتمتع بحياته ، فوجـــدها فى تلك البطولات التى تصورها فى مجال الغزل . وعنده تعـــددت المغامرات الغزلية بصورة تنقشع معهـــا قتامة حياته ، خاصـــة حين ازدادت تلك الحياة كآبة بمـــا طلب منه على المستوى السياسى والاجتماعى من الأخـــذ بثأر أبيه »(٦) وكان أن صرخ صرخته المـــدوية داعيـــا إلى التوقف والنظر فى أمر الحياة التى يحيونها، إنه ينادى « والنـــداء يحمل بطبيعته دعـــوة إصلاحية .. لم يكن امرؤ القيس إذن رجـــلا لاهيا مترفا مشغولا بشؤون اللهـــو والترف ، وإنمـــا كان شاعرا بمسئولية كبرى نحـــو المجتمع الذى يعيش فيه ، وكان يفكر فى حاجاته العقلية والروحية تفكيرا عميقا .

ولو كان امرؤ القيس شاعرا ومقلـــدا ذا عقل محـــدود لمـــا فكر فى الدعـــوة أو الصيحة ، ولمـــا فكر فى البكاء ....

« لقـــد افترض امرؤ القيس أن البكاء هـــو وسيلة الفهم وأداته ... افترض أن حركة الوجـــدان فى المجتمع العربى قبـــل الإسلام تحتاج إلى

---

(٦) د/عبد الله التطاوى ص ١٩٧ القصيدة الأموية .

تصحيح ... والقدماء انفسهم ربما لاحظوا شيئا من هذا المعنى حينما قالوا : إن امرأ القيس وقف واستوقف وبكى واستبكى . لاحظوا أن امرأ القيس خرج من طور إلى آخر . خرج من طور الذات المغلقة على نفسها إلى طور الذات المنفتحة على المجتمع . وخرج من طور القناعة ببعض المفهومات إلى طور القلق الخصب الملح .. لقد أراد امرؤ القيس أن يجعل التوقف والحركة وما بينهما من البكاء مشغلة مجتمع بأسره . رأى امرؤ القيس ان المجتمع لا يحسن التأمل لأنه لا يحسن الحزن »(٧) .

والغربة « الم ممض ، والألم يحفر حروفه فى أعمق العواطف الإنسانية ، وفى القلب البشرى الذى يتدفق بالحنين إلى الوطن .

ويقرر امرؤ القيس هذه الحقيقة بطريقة غير مباشرة حين يرى أن الغربة سبب من أسباب التآلف الروحى ، الذى يربط بين الغرباء بوثاقه فيكون مدعاة لالتقاءاتهم ، لأن كل غريب منسب للغريب نسيب ! أى حبيب وقريب . يقول :

أجارتنا إن المزار قريب
وإنى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان هاهنا
وكل غريب للغريب نسيب

كان هذا حين أوشك امرؤ القيس على الموت ، وهو بعيد عن وطنه ، غريب عن أهله ، مشاهد لقبر امرأة غريبة مثله »(٨) .

---

(٧) راجع : صوت الشاعر القديم د/مصطفى ناصف ص ١٢ .

(٨) الحنين إلى الوطن فى الأدب العربى ص ٦٦ .

وهكذا اثرت الغربة فى امرىء القيس ، وهى كذلك فى كل غريب ٠ وقـــد تكون الغربة واقعـــة ـــ فعلا ـــ على شخص يعيش بين أهله وذويه وفى ربوع وطنـــه ، ولكنه معزول عنهم ٠٠

لا يعبأون به ، ولا يهتمون برأيه ، بل لقـــد ابتعـــدوا عنه ٠ وهـــذا الغريب بين أهله وقـــومه تكون غربته أشـــد وأقسى ٠٠ نعم ، إن الأرض ـــ على رحابتها ـــ تضيق به ٠٠

والقرآن الكريم ذكـــر لنـــا نمـــوذجا لهـــذا الاغتراب فى ســـورة التـــوبة مصورا أثر هـــذا الاغتراب فى نفـــوس المغتربين ٠٠ إنهم الثلاثة الذين خلفـــوا ٠٠

(وعلى الثلاثة الذين خلفـــوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بمـــا رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنـــوا أن لا ملجـــــأ من الله إلا إليـــه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هـــو التواب الرحيم) (٩) ٠

لقـــد تنكرت لهم الأرض ، وتنكر لهم أصحابهم ، وذووهم ، يقـــول كعب التائب ـــ رضى الله عنه ـــ وهـــو أحـــدهم :

(تنـــكرت لى الأرض فمـــا هى بالتى أعرف) فأصـــبح لا يجـــد إلا وحشة ، بل تنكرت لـــه نفسه ٠٠ يقول ابن القيم رحمه الله : « فتتنكر لـــه نفسه حتى ما كأنه هـــو ، ولا كأن أهله وأصحابه ومن يشفق عليـــه بالذين يعرفهم ، ٠٠٠ الخ »(١٠) ٠

---

(٩) ســـورة التـــوبة الآية رقم (١١٨) ٠

(١٠) زاد المعـــاد ٣/٢٠ ٠

ويقــول ســيد قطب (١١) :

« فما الأرض ؟ إن هى إلا بأهلها . إن هى إلا بالقيم السائدة فيها . إن هى إلا بالوشائج والعــلاقات بين أصــحابها ... فالتعبير صادق فى مدلولــه الواقعى فــوق صــدقه فى جماله الفنى ، الذى يرسم هــذه الأرض تضيق بالثلاثة المخلفين ، وتتقاصر أطرافها ، وتنكمش رقعتها ، فهم منها فى حرج وضــيق .

(وضاقت عليهم أنفسهم) فكأنمــا هى وعــاء لهم تضــيق بهم ولا تسعهم وتضغطهم فتتكرب أنفــاسهم » .

* * *

(١١) راجــع تفسير : ســورة التــوبة (وعلى الثلاثة الذين خلفوا .. الآيــة) .

الفصل الأول

الاغتراب الأول
(إفراده كالبعيد المعبد)



(إفـــراده كالبعـــير المعبـــد)

وغربة شـــاعرنا « طرفـــة » كانت من النوعين :

ففى المرحـــلة الأولى كانت من النـــوع الثانى ، عاش غريبـــا بين قـــومه ، كما أوضح فى شـــعره قائلا (١) :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى

وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلـــدى

إلى أن تحـــامتنى القبيـــلة كلهـــا

وافـــردت إفـــراد البعير المعبـــد

وفى رواية : (إلى أن تحاشتنى) ..

لقـــد اتخـــذت القبيلة قرارا جماعيـــا بالابتعـــاد عن طرفـــة ، وحـــذرت شباب القبيلة وفتياتها من التعامل معـــه ، بل من الاقتراب منه .. وعلى الكل أن يتحاشاه ، وكأنه وباء يمكن أن يكون ســـــببا فى « عـــدوى » شـــباب القبيلة .

وكان القبيلة قـــد جعلت بينها وبين طرفة حاجزا وواقيـــا ، ومن هنـــا كان قـــوله :

. . . .

وافـــردت إفـــراد البعير المعبـــد

أى صرت بعيدا ، وحيـــدا ، فريدا ، كأننى مصـــدر للعـــدوى ، تمـــاما مثل الجمل الذى أصيب بالجرب فأبعـــد عن القطيع .

و « المعبـــد » الذى أصابه « العبـــد » وهـــو الجرب ، وقيل : هو

---

(١) الديـــوان — المعلقـــة .

الجرب الذى لا ينفعه دواء ، وقيـــل : هـــو المهنوء بالقطران الذى أفرد بعيدا عن الإبل حتى لا يعـــديها .

وهـــو « معبـــد » لأنه يتذلل لشهوته القطران وغيره فلا يمتنع .

وأرى أن هـــذا المعنى الأخير أليـــق بمراد الشاعر ، وهـــو يفصح عمـــا بداخله من عزم على المضى فى الطريق الذى ســـلكه وإن كان جـــر عليـــه ما ذكـــر .

صحيح أنه أبعـــد عن القبيلة ، وصار يعانى ســـجنا نفسيا رهيبـــا ، ولكن طرفـــة معاند ، متمـــرد ، لا يرضى أن يتطامن ، أو تذل نفســـه ، وربمـــا يجـــد لـــذة فى ذلك .. فالبعير المعبد بينا هـــو يطلى بالقطران يســـتلذ ذلك ويســـتحليه ، ويستزيد الطـــالى ، فهـــو ســـعيد بهـــذا الطلاء .. فكأن طرفة أيضا — إذ يحـــدث لـــه ذلك — يرى نفسه فـــذا ، ويكبر من أمر نفسه لأنه واثق من نفسه ، وراض عنها ، ولـــذا فلن يحيد عـــن أمـــره .

ولكن : ما الذى جعـــل قبيلته تحكم عليه هـــذا الحكم ؟ ..

شربه الخمـــر وإسرافه فى المـــلذات :

يصرح طرفـــة فى معلقتـــه انه لم يزل مصرا على شرب الخمـــر ، وإسرافه فى المـــلذات حتى باع كل طريف وتالـــد .. إلى أن اتخـــذت القبيلة هـــذا الموقف .

ولنـــا أن نتساءل هنـــا : هـــل كانت الخمر حراما فى الجاهلية ، ومن ثم ارتكب طرفـــة محرما — فى نظر الجاهليين — فخالف معتقداتهم أو عـــاداتهم ؟

كلا .. لم تكن الخمر حراما عند الجاهليين ، ولم يكن طرفة بدعـا من الشعراء وهـو يشرب الخمر ويتغنى بها أو يصفها ..

وإنمـا كانت الخمر شرابا يجيد صنعه الجاهليون ويشربونه دونمـا وازع من دين أو عرف ..

« ولم يكن الشاعر الجاهلى يشرب الخمر للتبسط والمفاكهة واللـذة ، وإنمـا يشربها فى محاولة لعملية هروب من واقعه النفسى والبيئى الذى يعيشه ، ليبعـد ولـو إلى حين عن مشكلاته .... »(٢) .

ومـا يؤكد ذلك قـول الأعشى :

لعمـرك إن الراح إن كنت سـائلا
لمختـلف غـديها وعشـاتها
لنا من ضحاها خبث نفس وكآبة
وذكـرى همـوم ما تغب اذاتهـا
وعنـد العشى طيب نفس ولـذة
ومـال كثير غـدوة نشواتهـا
على كل احوال الفتى قد شربتها
غنيـا وصـعلوكا وما أن أقاتهـا

يقول الأعشى : ما أعظم الفرق بين صباح الشارب وبين مسائه ، هـو فى صباحه كئيب منقبض النفس ، تطرقه الهمـوم الملحـة عليـه والتى لا تفارقـه ، وهـو فى المساء قرير النفس ، يسارع إلى البذل غير عابىء

---

(٢) من الظواهر الفنيـة فى الشعر الجاهلى د/سـعد ظـلام ص ٩٣ وما بعـدها (بتصرف وإيجاز) .

بالمـــال ، ومن أجـــل هـــذا شرب الخمر فى كل حال ، غنيا ومهمـــوما وصعلوكا لا يجـــد القوت ، وهـــذا يرشح ما قلنـــا من أن الخمر إنما كان شرابها من أجـــل دفن الهموم وانقباض النفس »(٣) ٠

« ولم يكن العربى — فى الجاهليـــة — يرى فى اللـــذات محرما ومباحا ، كل لـــذة فهى مبذولة للفائز ، وإنمـــا يفـــوز باللـــذة الجسور ٠

« والفرق الأصيل بين حـــديث الجاهلى عن لذته وحـــديث العباسى عنها : أنا نرى فى الأول صورة الرجـــل المـــالك لهـــا ، المتصرف فيها ، بينما نرى الثانى فى صـــورة الرجـــل الذى تمتلكه اللذة فيستسلم لهـــا منقـــادا »(٤) ٠

وهاك طرفا من أقـــوال الجاهليين فى الخمر :

يقول الأعشى — وهـــو من أكثرهم شربا لهـــا ووصفهم إياها(٥) :

وقـــد غـــدوت إلى الحانوت يتبعنى

شـــاو مشل شـــلو ل شلشل شـــول

فى فتية كسيوف الهند قـــد علموا

أن ليس يدفعه عن ذى الحيـــلة الحيل

---

(٣) نفســـه ٠

(٤) الهجـــاء والهجـــاءون — ص ٨٠ ٠

(٥) ديوان الأعشى الكبير — تحقيـــق د/محمد محمد حسين ص ٥٩ ط مكتبة الآداب ٠

شاو : يشوى اللحم ٠ مشل : سواق ٠ من شـــل أى طرد وساق وكذلك شلول ٠ شلشل : خفيف فى العمل سريع ٠ شول : يحمل الشىء ٠

بــل يقـــول(٦) :

وكـــاس شربـــت علـــى لـــــذة

واخـــرى تداويـــت منهـــا بهـــــا

لكى يعـــلم النـــاس أنى امـــرؤ

أتيت المعيشـــــة من بابهـــــا

وقال الحـــارث بن ظالم(٧) :

اعـــــزفا لى بلـــــذة قينتيـــــا

قبـــل ان يبـــكر المنـــون عليـــا

قبـــل ان يبـــكر العـــواذل إنى

كنت قـــدما لامرهـــن عصـــيا

ما ابـــالى أراشـــدا فاصـــبحانى

حسبتنى عـــــواذلى أم غـــــويا

بعـــد الا أصـــر لله إثمـــــا

فى حيـــاتى ولا أخـــون صـــفيا

مـــن ســـلاف كأنهـــا دم ظـــبى

فى زجـــاج تخالـــــه رازقيـــــا

هـــذا قليل جـــدا من كثير ، وغيض من فيض(٨) .. فهل طرد

---

(٦) الديـــوان ص ١٧٣ .

(٧) الأغـــانى (دار) ١٢٢/١١ .

(٨) راجـــع نمـــاذج أخرى فى كتـــاب الدكتور/محمـــد محمـــد حسين (أساليب الصناعة فى شـــعر الخمر والناقـــة) .

كل هـــؤلاء الشعراء من قبائلهم ، أو تجنبتهم قبائلهم لشربهم الخمر ؟

كـــلا ٠٠

وإنمـــا حـــدث لقـــلة منهم :

حـــدث « للبراض بن قيس الكنانى » الذى كان سكيرا فاسقا فطرده قومه ، وحـــدث لامرىء القيس كما أسلفنا ، وحـــدث لطرفة شاعرنا ٠

فلمـــاذا هؤلاء بذواتهم دون غيرهم ؟؟

يبدو لى أن هؤلاء لم يكونوا عاديين فى قبائلهم (*) ، وأن قبائلهم كانت تنتظر منهم أمجادا يقـــدمونها لهـــا ٠٠ وإذا بالقبيلة تفـــاجأ بأن الواحـــد من هؤلاء يهمه ذاته ، وينكب على شـــهواته ، وينسى واجباته تجـــاه القبيلة ٠ ويصير كل همـــه الخمر والنساء والملـــذات ٠٠ إنه لم يفـــن نفسه وذاته فى كيـــان القبيلة كما تريد القبيلة ٠

وقـــد ذكر طرفـــة فى شـــعره أنه لم يكن شـــابا كسائر الشباب ، إنمـــا هـــو « الفـــتى » الفـــتى الأوحـــد فى القبيـــلة ، يشـــار إليـــه بالبنـــــان (٩) ٠٠

إذا القـــــوم قالـــــوا من فتى ؟ خلت أننى عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

أحلت عليها بالقطيع فأجـــذمت وقـــد خب آل الأمعـــز المتوقـــد

فذالت كما ذالت وليـــدة مجلس ترى ربهـــا أذيال ســـحل ممـــدد

(*) وهـــذا واضح بالنسبة لامرىء القيس ٠

(٩) الديـــوان ص ٤٥ ٠

ولست بحــلال التــلاع مخافــة
ولــكن متى يسترفد القــوم أرفــد

وان تبغنى فى حلقة القــوم تلقنى
وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد

متى تأتنى أصبحك كأســا روية
وإن كنت عنها ذا غنى فاغن وازدد

وإن يلتــق الحى الجميع تلاقنى
إلى ذروة البيت الرفيــع المصمد

يقــول الدكتور طــه حسين :

(.. فانظر إليــه وهــو يتقــدم إليك ظريفــا ، لبقــا رشيقا ، خفيف الروح ، حازما مــع ذلك كل الحزم ، واثقــا بنفسه أشــد الثقة ، راضيا عنها كل الرضا ، شاعرا بواجبه الاجتماعى أوضح الشعور وأقواه ، يؤمن بأنه قــد خلق لقــومه قبــل أن يخلق لنفســه ، فهــو يجيبهم إذا دعــوه ، بل هــو يجيبهم إذا دعــوا وإن لم يوجهوا الدعوة إليــه ، كأنهم لا يستطيعون أولا ينبغى لهم أن يدعــوا غيره ، وكأنه هــو الفتى كل الفتى ، هــو الفتى الذى يختصر شباب قــومه اختصارا ، ويمثلهم تمثيلا ، ويحتمل عنهم أثقــال القبيلة كلهــا . وهــو يستجيب لدعــوة الداعى ، سواء أوجهت إليه أم إلى غيره مسرعا ، لا كسلا ولا متبلــدا ، وكيف يكسل أو يتبلــد وهــو الفتى الذى ملأ نفسه إعجابا بنفسه ، وملأ نفــوس قــومه إعجابا به ، واعتمادا عليه ! »(١٠) .

---

(١٠) حــديث الأربعــاء ٦٠/١ وما بعــدها .

وطرفة — كما يرى نفسه — يعرف واجباته جيدا ، ويقوم بها على خير وجه — كما يقول فى شعره ، فمن حقه إذا أن يستمتع بالحياة على طريقته الخاصة كما يختارها هو ، لا كما يرضيهم هم » .

« وإذا اطمأن الرجل إلى أنه يشعر بواجبه اصدق الشعور ، ويؤديه أحسن الأداء ، ويعطى قومه وغير قومه من نفسه وماله فى غير تحفظ ولا بخل ولا إشفاق ، فمن حقه الا يبخل على نفسه بالخير ، والا يحول بينها وبين نعيم الحياة »(١١) .

وطرفة فى ساعة الجد يكون بين قومه فى حلقتهم يتشاورون فى الأمور المهمة . وفى غير ساعة الجد يكون مع أصحابه فى الخمارات ..

كأنه يقول : أنا لا أخلط بين الجد واللهو ، وإنما اعطى كلا حقه وحظه .. فلم اللوم .. بل لم الإنكار ؟؟ .

(فلسفة طرفة)

ويرى الدكتور طه حسين أن قوم طرفة أساءوا إليه حين لم يفهموا فلسفته فى الحياة ، فيقول :

« وإياك أن تظن أن صاحبنا — على شبابه وفراغه — يلهو عبثا ، أو ينفق وقته فى الشراب والاستمتاع بالنساء استجابة لحسه ، وطاعة لهذا الميل الفطرى إلى اللذة ، فإنك إن ظننت به هذا اخطأت

---

(١١) نفسه ١/٦١ ، ٦٢ .

فهمه وأسأت إليــه ، فهو ليس صاحب لــذة غليظة تصــدر عن الحس لترضى الحس ، وإنمــا هــو صاحب لــذة رقيقة تصــدر عن تفكير ، وعن فلسفة ، وعن اختبار للحيــاة ، وعن حكم دقيــق على حــوادثها وخطوبها ونتائجها ، وقــد ظــن به قــومه مثل هــذا الظن ، فأنكروا عليه إسرافه فى اللهــو ، وإتلافه الطارف والتليد ، فاجتنبوه وقاطعوه وتحاموه ، ولكنه لم يحفــل بذلك ، لأن قــومه لم يفهموه ، فاحــذر أن تكون كقــومه عاجزا عن فهمه ، مقصرا فى إدراك فلسفته ، فهى فلسفة يسيرة ســهلة خليقة أن تفهم ..

وهى فلسفة خالــدة تجــدها فى كثير من البيئات البادية التى لم ينفــذ إليها الدين ، أو الحاضرة التى لم يؤثر فيها الدين »(١٢) .

وإذا كان الدكتور طــه حسين يلوم قبيلة طرفــة ، وينكر عليهــا موقفها منه فإننا نقول : إن للقبيلة عــذرها ، وعــذرها هــو قصورها عن إدراك فلسفة فتاها وشــاعرها .

وإذا كان طرفة صادقا فى تصوير نفسه فى الأبيات السابقة ، بأنه الفتى الأوحــد ، فإن القبيلة على حق فى اتخاذها ما اتخــذته تجاهه ، فهــو فى البداية يعطى كلا من الجــد واللهو حقــه وحظه ، ولكن من يدرى !! ربمــا جار على القسم الأول ــ بل إن ذلك هــو المتوقــع من أم الخبائث التى تغيب العقل ــ فبأى شىء يزن الأمور ؟؟ ولــذا وجــدنا كثيرا من السادة فى الجاهلية يحرمون الخمر على أنفسهم ، كقيس بن عاصم ، والعباس بن مرداس وغيرهما .

---

(١٢) نفســه ١/٦٣ .

وإذا كان مثل « طرفة » هـــو الذى يتوقـــع أن يقـــود زمام قبيلته طالمـــا انه بهـــذه الندرة من الفتوة والشجاعة وغير ذلك ، فقبيلته تتوقع منه وتنتظر أكثر مما يقـــدمه لهـــا ، لأنه ليس شابا عاديا ٠٠ فمسؤوليته عظيمة وعليـــه عبء كبير لم يقـــدره حـــق التقـــدير ٠٠

طرفـــة ــ نفسه ــ كما سيأتى يقـــر بأن الخمر جعلته شريرا وجلبت عليـــه متاعب كثيرة ، يقـــول :

وما زال شربى الراح حتى أشرنى

صديقى وحتى ساءنى بعض ذلك

أضف إلى ذلك شاعريته ، ونحن نعلم مدى احتفاء القبائل بشعرائها إذ كانوا بمثابة وســـيلة إعلام لهـــا ، فإذا لم تكن ناطقة بلسان القبيلة ، وترى ما تراه القبيلة فقـــد قصرت فى واجبها ٠

فضلا عن إهماله منذ صغره كما حـــدث فى ضياع الإبل ٠/٠ لهـــذا كلـــه كانت القبيلة على حـــق فى اتخاذها هـــذا القرار ٠

وينبغى هنـــا أن نقرر انه كان هناك بون شاســـع بين طريقـــة طرفة فى تفكيره وتفكير القبيلة ٠/٠ كانت القبيلة تتوقـــع منه شـــيئا وتبنى عليـــه آمالا ويرى هـــو فى تفكير القبيلة وطريقتها فى الحياة تخلفا ٠/٠ كانت القبيلة إذا حجر عثرة فى طريق طرفة ، لم تترك له حرية التصرف ، ومن هنـــا ضاق بهـــا وضاقت به ٠



الفصل الثاني

(خروجـه مـن القبيـلة)

(خروجـه مـن القبيـلة)

الفى طرفـة نفسه غريبا بين قـومه ، منبوذا من أهله وذويه ، وهو ليس إنسانا عاديا يرضى بحيـاة ليست أفضـل من الموت ··· وهـو كما قال عن نفسه « الفتى الأوحـد » :

إذا القـوم قالوا من فتى خلت أننى
عنيت فـلم اكسـل ولم اتبـلد

وهـو الرجـل الضرب :

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه
خشاشـا كرأس الحيـة المتوقـد

فمـا كان لمثل هـذا الرجل أن يرضى بهـذا الحكم الذى اتخـذته القبيـلة ·

ومن هنا اتخـذ قراره بالخروج من الاغتراب الأول إلى اغتراب آخر ، ظانا أنه سوف يجـد هناك من هم خير من قبيلته ، سيجد هناك من ليسوا — على أسوأ تقـدير — أسوأ من قبيلته ·

« شـد طرفـة عصا الترحال ، فغادر ديار قـومه ، هائمـا على وجهـه ، تقـذف به النوى فى أحيـاء العـرب ومفاوز الصـحراء ، لا أنيس لـه فى طريقـه اللاحب الطـويل سوى ناقتـه ، ولعل هـذه الصحبة الطويلة لهـا هى سر إبداعه فى وصفها وصفا لم يبلغ شـأوه شـاعر ·

ويبـدو أنه فى هـذه الفترة من حيـاته وصـل الحبشة ، كمـا

يفهم من عنوان قصيدة لــه فى ديوانه ، نص على أنه قالها فى إطراده إلى النجــاشى »(١) ٠

وهنــاك فى هــذه الغربة كانت أشعاره التى تترجم عن مشــاعره الحقيقية ، تلك المشاعر التى ابدى فيها أســفه وندمه على هجرانه ديار قــومه ، لقــد بلغ به الأمر ان بكى لمــا لقيه يقــول :

الا إنمــــا أبكى ليــوم لقيتــه

بجرثم قــاس كل ما بعــده جلل

وهــذا اليوم — فيما أرى — لعله يوم ارتحاله من القبيلة ، كان هــذا اليــوم قاسيا ، وكل ما جاء بعــده عظيم خطير فى حياة طرفة ٠٠ ثم يحاول أن يتماســك ويتقوى على حــوادث الزمن فيقول :

إذا جاء ما لابد منــه فمرحبــا

به حين يأتى لا كذاب ولا عــلل

لا مفــر من القــدر ، سأتحمل كل ما لابد منه ، ولا أضعف عنه ٠

ثم يقــول :

الا إننى شربت اســود حـــــالكا

الا بجلى من الشراب الا بجــل

يرى محقق الديوان : أن الشاعر يجــوز أن يكون قصــد حاله مــع حبيبته ، وأنه قــد لقى بقطيعتها لــه ما افسد اموره وأساءه فكانه قــد شرب سما قاتلا ، فضرب ذلك مثلا لفساد ما بينه وبينها ، ويجوز ان يكون

---

(١) د/محمــد على الهاشمى — طرفــة بن العبد ص ٤٨ ، ٤٩ ٠

قصـد انه لقى فى حياته من المصائب والآلام ما أوشـك به على الهـلاك فيقـول : لقـد لقيت ما أهلكنى ، فحسبى ذلك وكفى ٠

وارى انهـا الأخيرة بدليـل البيت التالى :

فـلا اعـرفنى إن نشـدتك ذمتى

كداعى هـديل لا يجاب ولا يمل

وهـو يخاطب فيـه النجاشى ملك الحبشة ويشكو إليـه ما حـدث لـه ويرجـو الا يخيب أمله عنده ، وأن يجيبه إلى ما يطلب ٠

فهـو فى الأبيات السابقة يطرح أمام النجاشى مشكلته وما قاسـاه واشربه من الدهـر ٠

وهنـاك فى هـذه الغربة شـعر بالألم لبعـده عن وطنه وقبيلته ، وكان ينزل عنـد جارة فآلمتـه بسؤالهـا إياه : أو ليس لك أهـل تعيش بينهم(٢) :

ولا غرو إلا جـارتى وسـؤالها

الا هـل لنا أهـل ، سئلت كـذلك

تعيرنى جـوب البـلاد ورحلتى

الا رب دار لى سوى حر دارك

وحين وجهت إليـه سؤالها مستنكرة تالم ألمـا شـديدا ، ودعا عليها بأن تكون مثله ، مضطرة للغربة ، بعيدة عن أهلهـا وذويها ، وتحـل بديار غريبة ، فيسألوها كما سألته ٠ « وكم فى عبارة : « ألا رب دار لى »

---

(٢) قصيدة هـر ٠ وسوف ياتى تعليق عليها ٠

من شحن شعورية ، تفيض بها نفس المغترب المحزون الملوع المشتاق ! »(٣) ٠

ويفيق مما هو فيه ويحن إلى أهله ، ويعترف بأن المرء لا عزة له ولا مهابة إلا بين قومه ، وأن من ترك ديار قومه ، وعاش بعيدا عنهم لكالميت ٠٠

وليس امرؤ أفنى الشباب مجاورا

سوى حيه إلا كآخر هالك

فهناك لو مرض لوجد حوله من يمرضه ومن يزوره ، وقد كان كذلك تزوره نساء فضليات من حيى ومالك ومن عامر :

ألا رب يوم لو سقمت لعادنى

نساء كرام من حيى ومالك

ومن عامر بيض كأن وجوهها

مصابيح لاحت فى دجى متدارك

وربما كانت هذه هى الصدمة التى أفاق على أثرها طرفة فى غربته ، سؤال تلك المرأة ٠

والحق أن القصيدة كلها تشير إلى اعترافه بذنبه ، وإقراره بصحة موقف القبيلة فهاهو يقول :

وما زال شربى الراح حتى أشرنى

صديقى وحتى ساءنى بعض ذلك

---

(٣) د/محمد على الهاشمى ص ٨٨ ٠

فهـو يعترف هنـا بأن إسرافه فى شرب الخمر صيره شريرا ، واعتقـد قـومه ذلك فابتعـدوا عنه ونفروا منـه ، وكان ذلك مسيئا إليـه .

ثم يقـول بعـده :

وحتى يقـول الأقربون نصـاحة

ذر الجهل واصرم حبلها من حبـالك

لقـد نصحه بعض أقاربه بأن يذر الجهل ، ويتبع الصواب ، ويبتعد تمـاما عن شربها ، ويقطـع صلته بهـا .

ويرى محقق الديوان أن سياق البيت هنا بعـد سـابقه يوهم أن الضمير يعـود على الـراح ، ولكن هـذا غير مستساغ ، لأنه ليس من العادة أن يقال فى مقاطعة الخمر : « قطع حبله من حبالها » . ولـكن يبـدو أن الضمير يعـود على المحبوبة . وإذا كان كذلك فموضع البيت هنـا قلـق . أ . هـ .

وأنا أرى أن البيت ليس قلقـا فى مكانه على الإطلاق ، بل إن بين الأبيـات وحـدة فنية وموضوعية وها هى الأبيـات :

وما زال شربى الراح حتى أشرنى

صديقى وحتى ساءنى بعض ذلك

وحتى يقـول الأقربون نصـاحة

ذر الجهل واصرم حبلها من حبـالك

ولا غرو إلا جـارتى وسـؤالها

ألا هـل لنـا أهـل ، سئلت كذلك

تعيرنى جـوب البـلاد ورحلتى

الا رب دار لى سوى حر دارك

وليس امرؤ افنى الشباب مجاورا

سـوى حيـه إلا كآخر هـالك

الا رب يوم لو سقمت لعـادنى

نسـاء كـرام من حيى ومـالك

ومن عامر بيـض كأن وجوههما

مصابيح لاحت فى دجى متدارك

إنه يذكر بداية اغترابه ، وخروجـه من ديار قـومه ٠ وكان السبب فى ذلك إسرافه فى شرب الخمر ، ويذكر أيضا ما نصحه به الناصحون المخلصـون وقولهم لـه دع الخمر واقطـع صـلتك بهـا حتى تأمن عـواقبها ٠٠ وكأنى به هنا يقول : ليتنى سمعت نصيحة ناصحى ، فلو حـدث لمـا سألتنى جارتى هـذا السؤال ٠٠ لقـد كنت عزيزا بين قـومى ، وها أنذا صرت كالميت ٠٠ ليس هناك من يسأل عنى ، أو يعـودنى فى مرضى ٠٠

أليس هنـاك انسجام بين الأبيات ، ورابطة قـوية تربط بينها ؟؟

بلى ٠ ولا مانع على الإطـلاق من أن يقـال له اصرم حبلها من حبالك ، أى اقطع صلتك بها ٠٠ والمراد الخمر ٠٠ فقـد كانت محبوبه ، وهـو يعيش من أجلها ٠

وهى من الثلاث التى يعيش من أجلها ٠ كما فى قـوله :

ولـولا ثلاث ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ الأبيـات ٠

وطرفـــة « فى هـــذه القصيدة يكثر من استخدام « ألا » وهـــو الإكثار لـــه دلالتـــه النفسية ، إذ يتكىء على هـــذه الأداة فى بوحـــه بخبىء القلب ، وتصعيده آهـــات الحـــزن من أعمـــاق النفس الملذعة المكلومة »(٤) ٠

ولنـــا عودة إلى تلك القصيدة فى أصـــداء الاغتراب والتمرد ٠

ويعترف فى أكثر من موضـــع من شـــعره بأنه عانى ما لم يعـــانه أحـــد ، وأنه لم يغمض لـــه جفن ، ولم يرقأ لـــه دمع ، وأن مصيبته هى مصيبة المصـــائب :

فحسبى من الداء الذى ليس بارحى
وبعض هموم لم يكد وجدها يفضى

ألم تر أن العين فاضت سجامها
من الدمع حتى لم يكد جفنها يغضى

كأن مجاج السنبل الورث فيهما
أذاعت به الأرواح فى ورق الحمض

كما ينظـــر الوراد خيـــلا سريعة
مقيدة تنـــدو إلى الحلس والغرض(٥)

* * *

---

(٤) د/محمـــد على الهاشمى ص ٨٨ ، ٨٩ ٠

(٥) الديوان ص ٢٠٥ ٠ يفضى : يذهب ويمضى ٠ سجامها : قطراتها ٠ يغضى : يغمض ٠ مجاج : ريق ٠ السنبل : نبات حار يشعر الإنســـان بحرارته فى جسده كلـــه وهـــو فى العـــين أشـــد ٠ الورث : الطرى ٠ أذاعت به : نشرته ٠ الحمض : نبت معروف وهـــو حار أيضا ٠ الحلس : كساء على ظهر البعير تحت البرزعة ٠ الغرض : حـــزام الرحـــل ٠



الباب الثاني

أصداء الغربة والتمرد في شعر طرفة

الفصل الأول

أصداء التمرد في غير المعلقة

الفصل الثاني

(أصداء التمرد في المعلقة)

الفصل الثالث

موازنة

١ — بين طرفة وزهير ونظرتيهما إلى الموت .

٢ — بين طرفة وامرىء القيس في معلقتيهما .

الفصل الأول

اصـداء التمـرد فى غـير المعلقـة

أولا : المـــــــرأة :

(أ) فى الأطـلال ٠

(ب) فى الغـزل ٠

ثانيا : الناقـــة ٠

ثالثا : الحكمـــــــة ٠

رابعا : الحيـاة والمـوت ٠



أولا ــ المـــــــرأة

(أ) الأطـــــــلال :

اختلف النقـــاد المحـــدثون والمستشرقون فى تفسير مطلع القصيدة الجاهلية .. فبعضهم كـــ « فالتربراونه » يفسره تفسيرا وجـــوديا ، إذ يرى « أن غرض الشـــعراء الحقيقى من الوقـــوف على الأطلال لم يكن بقصـــد رثائها ، أو تسجيل حنينهم إلى المودة التى انقطعت والمحبوبة التى رحلت ، ولكن غرض هـــؤلاء الشعراء أن يعبروا عن تلك المشـــكلة الوجـــودية الكبرى على نحـــو ما تشغل فلاســـفة العصر الحـــديث ... ويرى أن هـــذا التفسير من شأنه أن يعلل ما نلاحظه فى أشعارهم الغزلية من تناقض يقيمه الشعراء أحيانا بين الحزن والفرح ، واللـــذة والألم ، والموت والحياة ، والفناء والبقاء ... »(١) .

ويرى آخرون ــ كالدكتور عز الدين إسماعيل ــ أن المقـــدمة الغزلية هى الأصل الذى تدور حـــوله القصيدة بوصفها تعبيرا يجسم لنـــا ارتداد الشاعر إلى نفسه ، وخلوه إليهـــا ، وهى بذلك تعـــد الجزء الذاتى الذى يعبر فيـــه الشاعر عن موقفه من الحياة والكون حـــوله ...

ويرى أن هنـــاك عناصر خفية كانت تنطـــوى عليها نفس الشاعر مثل : التناقض ، اللاتناهى ، الفنـــاء . والشاعر بذلك لم يكن يشعر بأى اطمئنان إزاء الحياة ..

وكانت هـــذه المشاعر مشاعر مشتركة بين ســـائر الشعراء .. وكانت

---

(١) راجـــع : الشعر الجاهلى قضاياه الفنية والموضوعية دكتور/إبراهيم عبد الرحمن ص ٢٤٧ ــ ٢٤٩ .

تلك المقـدمة انعكاسا لذلك الصراع الأبدى فى نفس الإنسان وفى الحيـاة من حـوله . وتأسيسا على هـذا التفسير « الفـرويدى » يصبح الحب والحيـاة متلازمين فى نفس الشاعر .... »(٢) .

وقـد رد الدكتور عبد الحليم حفنى فى كتابه — مطلع القصـيدة العربية ودلالتـه النفسـية — على هـذين الرأيين — أو التفسيرين — وفنـدهما .. وانتهى إلى أن مطلع القصـيدة يتضمن نفسية الشـاعر ومشاعره .. وأن الفهم الجيد للمطلع فى ضـوء نفسية الشاعر يكشف لنا فى أغلب الأحيان عمقا لا يكشف عنه ظاهر التعبير ... الخ(٣) .

والمرأة هى العنصر الرئيسى للطلل ، ونكاد لا نجـد فى الشـعر الجاهلى أطـلالا بغير امرأة .. لقـد رحلت المرأة فأدى رحيلهـا إلى إقفـار الديار .. وحتى القصـائد غير الطلليـة فإن المرأة فيهـا تكاد لا تظهر إلا راحلة ، فكأن الشعراء قـد ربطوا الخصب بالمرأة ، أو علقوا حياتهم بها ، يبقون فى الديار إذا بقيت ، ويرحلون عنها إذا رحلت(٤) .

لقـد رأى النقـاد القـدماء فى الوقـوف على الأطلال تقليـدا من الشعراء الجاهليين ليس أكثر . ولكن الدراسات النقـدية الحـديثة استطاعت أن تهتدى إلى تفسيرات مقبولة للوقـوف على الأطلال ..

---

(٢) نفســه .

(٣) راجع/مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ص ٦٣ وما بعـدها .

(٤) الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى د/نصرت عبد الرحمن ص ٢٤ .

والشاعر إن مر على ديار قـومه أو تصور ذلك ، أو توهمـه على الأقـل ، تداعت الشجون إلى خـواطره ، واتكـأ الإحساس على مكان الجرح فى نفسه ، فوقف وبكى ، واستعبر وشـكا ، وصـور همـومه وأحزانه ، وشعوره بالألم ، وانسابت أحاسيسه بالضياع إلى نفسه ، وضاعف من تلك الأحاسيس هـوانه فى غير قـومه وغربته عنهم ، فكان الإحساس مضاعفا ، والألم أشـد ، ووقـع الكارثة على قلبـه يقارب حـد الموت . ومن هنا لا نستغرب أن يبكى ـ مـع الطلل ـ نفسه ، وأن يستعبر على حياته من خـلال دمعـاته المتألمة على آثار داره وقـومه »(٥) .

و « طرفـة » أحـد ثلاثة شعراء عاشـوا فى الصـدر الأول من العصر الجاهلى ، ونستطيع أن نطمئن إلى أنهم وضعوا أصـول المقـدمة الطللية وتقاليدها وأقسامها(٦) .

وها هى أطـلال طرفة سوف تكشف لنـا أن الأمر ليس مجرد تقليد وأن الأطلال لا تعنى بالضرورة آثارا باقية من ديار امرأة وقـع الشاعر فى حبها .. وأن البكاء ليس على الطلل فى ذاته ، وإنمـا قـد يكون الطلل مجرد رمز كما سنرى ..

يقـول طرفـة(٧) :

وما زادك الشـكوى إلى متنـكر

تظل به تبـكى وليس به فطـل

---

(٥) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى ص ٦٢ .

(٦) مقـدمة القصيدة فى الشعر الجاهلى ص ٩٠ .

(٧) الديوان ص ١٤ متنكر : طلل متغير . فطـل : أى موضع طـل أى ليس به شـاخص على الإطـلاق .

متى تر يوما عرصة من ديارها
ولـــو فرط حول تسجم العين أو تهل
فقــل لخيـــال الحنظليـــة ينقلب
إليها فإنى واصل حبل من وصل

كان طرفة هنا متمرد على العرف الشعرى الجاهلى فى الوقـــوف على الأطـــلال .. إذ يتساءل : ما جـــدوى الشكوى إلى أطـــلال لا حول لهـــا ولا قـــوة ؟ ! . حين يقف شاعر على اطلال ويرى عرصة من عرصات الديار فينهمر الدمـــع لذلك انهمارا .. هـــذا لا يعجب طرفة .

وإنه لا يعبأ بخيال الحنظلية ، ويطلب إليه أن يعـــود كما جاء ، فماذا يفعـــل بخيال ؟؟ إنه مادى واقعى وليس خياليا .. وهـــو يصـــل من وصـــله ، ويقطع من قطعـــه ..

ومثل هـــذا إن كان عن امرأة فهـــو — عند النقاد شئ معيب .. لكن الحقيقة انه لا يتحـــدث عن امرأة .. وإنما محبوبته هنا هى قبيلته التى اتخـــذ هـــذا القـــرار خيالها . ويؤكـــد ما ذهبنـــا إليـــه قـــوله بعـــد ذلك(٨) :

الا إنمـــا ابكى ليـــــوم لقيتـــــه
بجرثم قـــاس كل ما بعـــده جلل

العرصة : كل بقعـــة بين الدور واســـعة وليس فيها بنـــاء — فرط حـــول : بعـــد عام . تسجم العين : يسيل دمعها . تهـــل : يقطر دمعها قطرا . الحنظلية : امرأة . ينقلب : يرجـــع .

(٨) الديوان ص ١١٥ . جـــرثم : موضـــع . جـــلل : عظيم خطير .

إذا جاء ما لابـد منـه فمرحبا

به حين يأتى لا كـذاب ولا علل

الا إننى شربت أسـود حالـكا

الا بجـلى من الشراب الا بجـل

فهـو لا يبكى على أطـلال امرأة ، وظروفه وحياته لا تسمح لـه بذلك ، فمـا هـو فيه يلهى عن ذلك . إنه يرى الموت فى كل لحظـة شاخصا أمامه ، لقـد اصبح فؤاده فارغا ..

إنمـا يبكى « ليـوم جرثم » وهـذا اليوم هـو الذى انقطعت حباله من حبال القبيلة ، وكان ذلك اليـوم بداية معاناته ، وكل ما بعـده خطير(٩) . شـهد فيه من المـآسى ما شـهد ، وحل به من المصائب ما حـل ، وكانت أيامه كلها — بعـد يوم جرثم — مرة .

ولكنه لا يزال يكابر ، يصـل حبل من وصـل ، ويقطع من قطع ، وهـو يتماسك ويتقوى أمام ما لابد منه ، لأنه لا يتوقـع أن يقع به أكثر وأشـد ممـا وقـع فعلا :

الا إننى شربت أسـود حالـكا . . . .

ويعـود على الفـور ويقول :

. . . . الا بجلى من الشراب الا بجل

كفانى ، لقـد شربت مرا كثيرا ، ورأيت سوادا حالكا ... وكأنه اكتشف أنه لا طاقة لـه بمواصلة ذلك والصبر عليه .

=

كذاب : كذب . علل : أسباب يتعلل بها . بجلى : حسبى وكفانى .

(٩) فسر الدكتور على الجنـدى جلل بـ : هين صغير . ونحن نخالفه فى ذلك .

ووقف « طرفة » على أطلال امرأة تسمى « هند » فقال(١٠) :

لهند بحزان الشريف طلول

تلوح وأدنى عهدهن محيل

وبالسفح آيات كأن رسومها

يمان وشته ريدة وسحول

أربت بها نأجة تزدهي الحصى

وأسحم وكاف العشى هطول

فغيرن آيات الديار مع البلى

وليس على ريب الزمان كفيل

بما قد أرى الحى الجميع بغبطة

إذا الحى حى والحلول حلول

---

(١٠) الديوان ص ١١٦ حزان : جمع حزيز ، وهو المكان الغليظ . الشريف : واد بنجد . طلول : جمع طلل . تلوح : تظهر وتتبين . أدنى : أقرب . محيل : أتى عليه حول . السفح : أسفل الجبل . آيات : علامات . الرسوم : الآثار بلا شخوص . يمان : أى ثوب يمان . وشته : زينته وحسنته . ريدة وسحول : الريدة : الريح الشديدة . السحول : ريح أشد منها . أربت بها : لزمتها واستمرت معها . نأجة . ريح شديدة المر سريعة . تزدهى الحصى : تستخفه . أسحم : سحاب أسود لكثرة مائه . وكاف : كثير القطر . آيات الديار : علاماتها . البلى : القدم . ريب الزمان : أحداثه وصروفه . كفيل : ضامن . الحى : القوم . غبطة : حسن حال ومسرة .

وبعـــد هـــذه الأبيات ــ مباشرة ــ وجــه رسالته إلى « عبد عمرو ابن بشر » الذى نسبه إلى الضلال فقال :

الا أبلغـــا عبد الضلال رسالة . . . . الخ

والأطلال هنا ــ فيما أرى ــ « رمز » يفسره قــوله :

بمـــا قـــد أرى الحى الجميع . . . . البيت

فالشاعر يأسى لمـــا آل إليـــه أمر القبيلة ، وقـــد كان أمرها ــ قبل أن يحـــل بهـــا ما حل ــ طيبا فى « غبطة » أى حسن حال ومسرة ، حتى نزلت بهم حوادث الدهـــر ، فتفرقـــوا بعـــد أن كانوا « حيـــا » « جميعا » أى يحيون حيـــاة حقيقية ، وكانوا مؤتلفين متحـــدين .

فأطلال « هند » هنـــا هى ديار القبيلة ، وأيامهم الخـــوالى .. والرياح الهـــوج التى لعبت بهـــا هى حـــوادث الدهر ومصائبه .

وهنـــا زفرات من الشاعر أطلقها مع عبارات تحمل ما تحمل من أســـف على ما حـــدث للقبيلة .. القبيلة التى كانت « حيـــا » مغتبطـــا سعيدا ، مقيما ، قارا ، هانئا .. تبدل حالهم وتغير إلى النقيض .

وكان لـــ « عبد عمرو » يد طولى فى هـــذا التبدل والتغير ....

ولربما يشير بديار الحبيبة ــ وقـــد صارت موطنا دائمـــا للريح الشديدة والأمطار الغزيرة ــ إلى نفسه التى صارت وحيدة ، فريدة ، لا نصير لهـــا ولا ظهير ، لا أهـــل ولا خلان ولا قبيلة . فصـــار عرضـــة لحـــوادث الدهر ومصائبه . ومن هنا استخدم صيغ المبالغة فى (وكاف العشى) ، (هطول) لبشير إلى تتابع المصائب عليه وكثرتها ، فضـــلا

عمـا يحمله معنى (الأسحم) أى سحاب أسـود ممتلىء ماء ، وليست سحابة صيف سرعان ما تزول ويعود الجـو صافيا ، إنمـا سحاب أسود كثيف ، نتج عنـه مطر غزير مستمر ٠

وآيات الديار التى تغيرت هى صفات طرفـة التى يعتز بها كثيرا ٠ من عـزة وانفـة وكبرياء ٠

ولا يمنع من ذلك الفهم مانع ، بل ابيـاته فى عبد عمرو — بعـد ذلك مباشرة — تؤيد هـذا الفهم ٠

وقـال(١١) :

أشـجاك الربـع أم قـدمه
أم رمـاد دارس حممـه
كسـطور الـرق رقشـه
بالضـحى مرقـش يشـمه
لعبت بعـدى السـيول بـه
وجـرى فى رونـق رهمـه

---

(١١) الديوان ص ١٤٨ — ١٥٠ ٠ أشـجاك : أحزنك ٠ الربع : الدار ٠ دارس : بال ٠ حمم : جمع حممه وهـو الفحم ٠ الرق : الصحيفة ٠ رقشه : زينـه وحسنه ٠ الرونق : حسن النبـات ٠ وفى رواية (ريق) وهـو أول النبات ٠ رهمـه ٠ الرهم : جمع : رهمة وهى المطر الضعيف الدائم كالديمـة ٠

جعلتـــــه حـــم كلكلهـــــا
لربيــــع ديمـــة تثـــــــه

فالكثـــيب معشـــب أنـــف
فتناهيـــــه فمرتكمـــــــه

حـــابسى رســـم وقفـــت بـــه
لــو أطيــع النفس لــم أرمـــه

لا أرى إلا النعـــــام بـــه
كالإمـــاء أشرفـــت حـــزمه

إنه يخاطب نفسه ، ويقول لهـا : ما الذى أحزنك وهاج لوعتـك وأثارها ؟ أهو الربع الذى شـهد أيامًا هانئة ؟ أم الرماد الدارس الحمم ؟.

ولكنه لم يظفر بجواب ، ولـذا يأخـذ فى وصف الطلل ، ويشبهه بسطور الرق المرقش بعـد أن تلاعبت به السيول ، ونالت منه أحـداث الزمان .

ويرى الدكتور « الهاشمى » أن هـذا المطلع تقليدى ..

وحين ننظر فى البيت الثالث تلفت نظرنا كلمـة (بعـدى) ..

فماذا حـدث بعـده ؟ ..

=

حم : قصـد . الكلكل : الصـدر . الديمـة : المطـر الدائم فى لين . تثـة : تدقـه وتكسره .
الكثيب : رمـل مجتمـع مرتفـع . معشب : ذو عشـب أى كلأ . أنف : لم يرعـه أحـد . تناهى . جمع تنهية وهى بطـن ينتهى إليها السيل فيحتبس . مرتكمه : مجتمعه . لم أرمه : لم أبرحه . كالإماء : شـبه النعام وقـد رفـع من أجنحته بالإماء الحاملات حزم الحطب .

أنا أفهم هنا أن طرفة يقول : إن هذا المكان صار طللا لعبت به السيول بعده ، أى أنه كان قبل مغادرته إياه قويا صلبا فيه ديار مسكونة وأناس يحيون فيه حياة طيبة ، فلا يبعد إذا أن يكون قاصدا القبيلة وما نزل بها بعد رحيله عنها .

وسبب القصيدة كما ذكر الدكتور الجندى نقلا عن أبى عبيدة :

أن النعمان بن المنذر الأكبر ، — أو عمرو بن هند — بعث قائدا من قواده يقال له : « الغلاق بن شهاب بن عواقه من تميم — ليصلح بين بكر بن وائل وتغلب ، فاصطلحوا زمانا على دخن ، وكأنهم يرصد بعضهم لبعض كالهدنة وهى الفترة من الحرب ، فتحاجزوا والقلوب بعد فيها ما فيها من العداوة ، فأغارت تغلب على بكر ، فقال طرفة هذه القصيدة(١٢) .

ولو صح هذا فالقصيدة قالها طرفة قبل غربته ، إذ يهجو فيها قبيلة تغلب ويقول :

تذكرون إذ نقاتلكم
لا يضر معدما عدمه

أنتم نخل نطيف به
فإذا ما جز نصطرمه

... الخ .

ومعناه أن هذا الوقوف تقليدى كما ذهب الدكتور الهاشمى .. ولكن ، يبقى بعد ذلك أن نتساءل عن معنى كلمة (بعدى) فى

---

(١٢) الديوان ١٤٨ .

قـــوله :

لعبت بعــدى الســيول به . . . .

* * *

وبعــد .. فهــذه أطلال طرفــة بعــد اغترابه — كما فهمناها — ليست كأطــلال غيره إنمــا هى كما أوضحنا . تارة كانت القبيلة كــكل وأيامها الخوالى ، وأخرى كانت نفسه ، وما كان يتحلى به من صفات طيبـــة .

(ب) فى الغــزل :

مات طرفــة — أو قتــل — وهـــو ابن عشرين ، أو ابن ســـت وعشرين ، أى فى ريعــان شبابه . وكان المتوقــع أن يكون أكثر شــعره غــزلا .. لكن ذلك لم يكن .. وهـــو أثر من آثار تمرده واغترابه .

إنمـــا يتأتى الغزل حـــين يكون الشاعر آمنـــا ، مطمئن الجانب ، قرير العــين ، يعيش فى كنف القبيلة ، تحمى ظهره ، وتقف إلى جانبه .

وقــد كان من الممكن أن يتغزل دونمـــا حب حقيقى ، ولكن طرفة كان واقعيا إلى حــد كبير ..

من هنا جاء شـــعره الغزلى قليلا ، وجـــل هـــذا القليل شعر رمزى كمـــا ســـنرى .

فالحبيبة قــد لا تكون امرأة ، وإنمـــا هى الخمر ، وقــد تكون القبيـــلة كما ســـنرى .

* « ســـــــلمى »

فهـــا هى « ســـلمى » يقـــول فيها(١٣) :

---

(١٣) الديـــوان ص ١٢٣ .

ديار لسلمى إذ تصيدك بالمنى

وإذ حبل سلمى منك دان تواصله

وإذ هى مثل الرئم صيد غزالها

لها نظر ساج إليك تواغله

غنينا وما نخشى التفرق حقبة

كلانا غرير ناعم العيش باجله

ليالى أقتاد الصبا ويقودنى

يجول بنا ريعانه ونجاوله

سمالك من سلمى خيال ودونها

سواد كثيب عرضه فأمائله

فذو النير فالأعلام من جانب الحمى

وقف كظهر الترس تجرى أساجله

وأنى اهتدت سلمى وسائل بيننا

بشاشة حب باشر القلب داخله

وكم دون سلمى من عدو وبلدة

يحار بها الهادى الخفيف دلادله

يظل بها عير الفلاة كأنه

رقيب يخافى شخصه ويضائله

وما خلت سلمى قبلها ذات رجلة

إذا قسورى الليل جيبت سرابله

ويقول بعد ذلك مباشرة :

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله
فهل غير صيد أحرزته حبائله

كما أحرزت أسماء قلب مرقش
بحب كلمع البرق لاحت مخايله

وانكح أسماء المرادى يبتغى
بذلك عوف أن تصاب مقاتله

فلما رأى أن لا قرار يقره
وأن هوى أسماء لابد قاتله

ترحل من أرض العراق مرقش
على طرب تهوى سراعا رواحله

إلى السرو أرض ساقه نحوها الهوى
ولم يدر أن الموت بالسرو غائله

فغودر بالفردين أرض نطية
مسيرة شهر دائب لا يواكله

فيالك من ذى حاجة حيل دونها
وما كل ما يهوى امرؤ هو نائله

لعمرى لموت لا عقوبة بعده
لذى البث أشفى من هوى لا يزايله

فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش
بأسماء إذ لا تستفيق عواذله

قضى نحبــه وجــدا عليها مرقش

وعلقت من سلمى خبــالا أماطله

وقــد ذهب الدكتور نصرت عبد الرحمن إلى(١٤) : أن « سلمى » تبــدو فى الشعر الجاهلى رمزا للحب العــذرى والعفة ، فتظهر كأنهــا فتاة غريرة حسناء ، تحب ولا تحب ، ينشدها الفتيان ويخطبون ودها ، ويتعلق بهــا الشيوخ فتتهاتف ناظرة إلى الشعر الأبيض » فهــل كانت عند طرفــة كذلك ؟ :

بعــد أن وقف طرفــة على أطلال « سلمى » تذكر أيامها معه حين كانت توقعــه فى حبال غرامها بمناها ، وكان حبــل الوصــل قائمــا بينهمـــا .

ويصفها بأنها طــويلة العنــق ، فهى تشــبه الظبية التى صــيد غزالها .. وهــو معنى يلح عليه طرفــة فى أكثر من موضع(١٥) . ولذا فهى تشرئب بعنقها تترقب ، فحبيبته كانت تختلس النظر إليه كذلك .

ثم يقــارن ما هــو فيه الآن بمــا كان أمس من نعـــومة عيش ورفاهية .. ولذــا هنا أن نتساءل : ما علاقة نعــومة العيش والرفاهية بمــا كان بين طرفــة وحبيبته إن كانت امرأة حقيقية ؟؟

وحتى لــو كانت امرأة حقيقية فإنه خلط بين أيامه فى القبيلة وعيشه

---

(١٤) الصــورة الفنيــة ص ١٥٠ .

(١٥) قال فى المعلقــة :

خــذول تراعى ربربا بخميلة ... تناول أطراف البرير وترتدى

وســوف نقف معــه فى المعلقــة .

فى كنفها وهـذه المرأة .. وقارن ذلك بما حـدث لـه بعـد اغترابه .

ويسترسل فى هـذه المقارنة فيقول : كانت ليـالينا ممتعة حافلـة بالسرور ، وكنت أقود الشباب والفتيان إلى عالم اللذات والمرح والطرب .

والآن بعـدت عنى الحبيبة ، وإن كان خيالها يزورنى رغم ما بينى وبينها من جبـال وتلال .

ويعجب من اهتداء « سلمى » إليـه وكيفية وصولها ، فمـا بينهما بعـد شاسع وسفر شاق .. ثم يقـول : إنه الحب الذى هـداها .

ولم يكن بعـد ما بينه وبينها ممثـلا فى طول المسافة ومشقة السفر فحسب ، وإنمـا أيضـا أعـداء وبلاد يضـل فيهـا الخبراء بالطرق ومجاهـل الأرض .

ولكن رغم ذلك كلـه طرق خيالها وسط الليل البهيم ..

ثم يقـول :

وقـد ذهبت سلمى بعقـلك كله

فهل غير صيد أحرزته حبـائله

إن « سلمى » قـد استولت على عقله كلـه ، وأصبح فؤاد طرفـة فارغا .. وكل ذلك فى غربته بدليـل الأبيـات التاليـة التى تذكر فيها المرقش .

فهـل يقبل أن نقـول إنه فى غربته تلك ومعاناته النفسية الرهيبة لا يفكر فى شىء سـوى فى امرأة .. هـذا كلام غير مقبول ..

ولـذا فإننى أرى أن « سلمى » هنـا هى الخمر أو القبيلة ، أو هما معا فالخمر كانت وراء كل ما يقاسى ويعانى .. وهى التى ذهبت بعقـله كله ، وملكت عليـه فؤاده .

وقــد خشى أن يكون مصيره كمصير « المرقش » الذى أحب ابنــة عمــه « أسماء » وخطبها إلى عمــه ، وسافر ثم عاد ليقولوا لــه : إنها ماتت ٠٠ وتبين لــه كذبهم ٠ (

فارتحــل المرقش فى طلبها فغادر إلى الأرض التى فيها « أسماء » وعلم بالنبــأ فمرض ثم مات فى تلك الأرض البعيدة ٠

وهكذا حيل بين المرقش وبين أمنيته ٠

وها هــو طرفــة فى بلــد بعيد وكان سبب الخروج إليهــا حبيبته التى هى « الخمر » وإصراره على شربها ، ومن هنا اتخــذت القبيلة ــ وهى حبيبته كذلك ــ قرارها ٠٠ وظــل هناك مدة استحضر فيها صورة المرقش هــذه فخشى أن يكون مصيره كمصيره فحن إلى الحبيبة التى هى القبيــــلة ٠٠

ويشبه وجــده بوجــد المرقش :

فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش

بأســماء إذ لا تستفيق عــواذله

قضى نحبــه وجــدا عليها مرقش

وعلقت من سلمى خبالا أماطــله

ويلاحظ فى هــذين البيتين :

ــ تكرار اسم « مرقش » تحسرا عليه وخــوفا من أن تكون عاقبتــه مثــــله ٠

ــ وفى قــوله : (وعلقت من سلمى خبالا أماطله) ٠٠ والخبال :

فساد العقـل . هـذا الفساد العقلى او الخبال إنمـا سببه شرب الخمـر وحبـه لهـا .

ولـذا فإننى أرى أن « سلمى » كذلك هنـا يرمز بهـا إلى الخمر ، ولا مانع من الجمع بينها وبين القبيلة فهى حبيبته كذلك .

وقـال طرفـة(١٦) :

---

(١٦) الديوان ص ١٩٧ وقـد ذكر الدكتور الجندى أن هـذه الأبيـات نسبت لغير طرفـة ، وأن أبا عبيدة رواها لطرفـة وقـد قالهـا لعمرو بن هند وللعبـدى الذى أتاه بالكتاب فى صحيفة ، وكان العبدى حين سجنه للقتل بعث إليه بجارية يقال لهـا خـولة ، فأبى أن يقبلها » .. ومعلوم أن (خولة) قـد ورد ذكرها فى أول معلقتـه .

وفى القصيدة ما يؤكـد نسبتها لطرفـة :

ففيها ذكر لمـا دبره لـه الملك من حيلة يقتله بهـا . وفيها حث لأهـل المشقر — حصن بالبحرين — أن يأخـذوا ثارهم ويقول :

ألا أبلغا بكر العراق بن وائل

بكأس سـقى النصرى شاربها رمض

الا اعتزلينى اليوم « خولة » أو غضى

فقد نزلت حـدباء محكمة العض

أزالت فـؤادى عن مقـر مكانه

فأضحى جناحى اليوم ليس بذى نهض

وقد كنت جلدا فى الحياة مرزءا

وقـد كنت لباس الرجال على بغض

وإنى لحـلو للخليـل وإننى

لمـر لذى الأضغان أبدى لـه بغضى

إلى ان يقـول :

وما نالنى حتى تجلت وأسفرت

أخـو ثقـة فيها بقرض ولا فرض

ولكـنه سـيب الإلـه وحـرفتى

وشـد حيـازيم المطيـة بالغرض

ويحثهم على قتال النعمان بن المنذر . وغير ذلك مما فى القصيدة .
اعتزلينى : تنحى عنى . غض طرفـه : خفضه أو احتمل المكروه .
جلد : شـديد قـوى صبور . مرزءا : تنزل به المصائب . لباس : مخالط . الأضغان : الأحقاد . تجلت : تكشفت . أسفرت : ذهبت وانتهت .
القرض : الدين . الفرض : الواجب . سيب الإلـه : عطاؤه . حرفتى : سـعيى وتصرفى . حيازيم : جمع حيزوم وهـو الوسط والصـدر . الغرض : حزام الرحـل .

لأكرم نفسى أن أرى متخشعا
لذى منة يعطى القليل على الرحض

أكف الأذى عن أسرتى متكرما
على أننى أجزى المقارض بالقرض

ويتحدث عن صفاته مفاخرا بها قائلا :

ومعترض فى الحق غيرت قوله
وقلت له ليس القضاء كما تقضى

ركبت به الأهوال حتى تركته
بمنزل ضنك ما يكد ولا يمضى

إن طرفة هنا — كما يقول — فى محنة شديدة يبدو أن نهايته فيها إذ هى (محكمة العض) ممسكة به ، لافكاك له منها ٠٠ وهل فى مثل هذه الأحوال يفكر صاحبها فى حب امرأة أو ما شابهه ؟ ! ٠ إن الداهية شديدة ، ولا وقت عنده ، وليس لديه قلب فارغ لعاطفة حب ، بل إن فؤاده — أصلا — قد زال عن مكانه ، وبلغت روحه الحلقوم ، وصار مهيض الجناح لا يستطيع الحركة ، بعد أن كان جلدا قويا يتحمل المشاق ، ويصبر على الأذى ٠

ثم يبين مدى جلده وصبره إزاء الملمات واعتماده على نفسه فى ذلك دون أن يكلف صديقا أو إنسانا ما مساعدته ٠

متخشعا : ذليلا خاضعا ٠ الرحض : المزادة الخلق ٠ الرحضاء : العرق إثر الحمى ، أو عرق يغسل الجلد كثرة ٠ أسرتى : رهطى وقومى ٠ الكد : الشدة ٠

وهــو يستعين على تفريج كروبه وإزالة همومه بعطاء الله ، وبسعيه فى مناكب الأرض . وإنمــا لا يستعين بأحــد فى ذلك حتى لا يذل نفسه أو يهينها .. وهــذا المعنى مطروق عند الجاهلين ومنه قــول الشنفرى فى لاميته (١٧) :

واستف ترب الأرض كى لا يرى لــه
على من الطــول امرؤ متطــول

وطرفــة يــذود الأذى عــن رهطــه وعشيرته ويجزى المقاطــع مقاطعة . كما أنه جرىء فى الحــق ، يقف فى وجــوه أولئــك الذين يريدون أن يلووا عنــق الحقيقة ، فيبين لهم خطــأهم وباطلهم ويردهم مرغمين إلى الصواب . ولم يكتف بذلك مــع الظالمــين وإنمــا يهينهم ويجشمهم المصاعب والأهــوال .

وهــذه القصيدة ــ فيما يبــدو ــ قالها فى محنتــه ، لأنه خشى الموت ، وطلب إلى « خــولة » أن تحزن عليــه ، وتحث الباكيات على المزيد من الحزن .

وهــو صادق ــ كل الصدق ــ فى عاطفته ، ولأنه واقعى ــ كمــا بينا ــ كان واضحا منذ بدء القصيدة ، إنه لا وقت عنده لغزل ، إنمــا هــو فى مصيبة ويبدو أن نهايته فيها . يقــول :

فحسبى من الداء الذى ليس بارحى
وبعض هموم لم يكــد وجدها يفضى
ألم تــر أن العــين فاضت سجامها
من الدمع حتى لم يكــد جفنها يغضى

(١٧) شرح لامية العرب ص ٥٧ البيت رقم ٢٢ .

كأن مجاج السنبل الورث فيهما
اذاعت به الأرواح فى ورق الحمض

كما ينظـر الوراد خيــلا سريعة
مقيدة تنـــدو إلى الحلس والغرض

وقـــال طرفـــة أيضـــا (١٨) :

قفى ودعينا اليوم يا ابنـــة مالك
وعوجى علينا من صـــدور جمالك

قفى لا يكن هـــذا تعـــلة وصـــلنا
لبـــين ولاذا حظنـــا من نـــوالك

اخبرك أن الحـــى فـــرق بينهم
نـــوى غـــربة ضرارة لى كـــذلك

ولا غرو إلا جـــارتى وســـؤالها
الا هـــل لنـــا أهـــل ؟ سئلت كذلك

... الـــخ الأبيـــات .

وقـــد ألمح الدكتور الهاشمى إلى أن « ابنـــة مالك » التى طلب إليها أن تقف لوداعـــه ، « وبنات مالك » ، « وبنات حيى » ، اللاتى ترددت أسماؤهن فى الأبيات إن هى إلا رموز عن دياره وقـــومه وأحبته الذين برح بنفسه فراقهم ، وها هـــو ذا يحسن إليهم، ويفضى بالصـــبابة التى يعانيها ، والشوق الذى يكابده من فراقـــه إياهم ، وبعـــده عنهم . إنه

---

(١٨) الديـــوان ص ١٠٤ .

ليخبر ابنة مالك والألم يقطع نياط قلبـــه ، بالغربة البعيدة الضرارة التى أضرت بالحى كلـــه وبه هـــو بالذات ٠٠٠

ويمضى فى تصعيد آهات الشوق والحنين الحرى من أعمـــاق نفســه الملـــذعة ، فيجيب جارته بأسى بالغ ، وحرقة كاوية ، وألم دفين :

ألا رب دار لى ســـوى حـــر دارك

وكم فى قـــوله : « ألا رب دار لى » من أسرار وذكريات وأشـــواق يهفـــو لهـــا قلب المغترب المحزون البعيد ٠٠٠٠

وليس أدل على لوعتـــه الكاوية المحـــرقة وتبلبله من العـــذاب الشديد الـــذى نزل به من تكراره الأداة « ألا » ثلاث مرات فى قـــوله :

ألا إننى شربت أســـــود حالكا

ألا بجلى من الشراب ألا بجـــل

لكأنه يصيح بصوت مبحوح غاص بالحسرة والكرب : ألا حسبى من شراب أغص فيـــه ، وأكابد لـــذع ســـمه فى أحشـــائى ، ولـــكأن العبرة تخنقه ، وهـــو يصيح هـــذه الصيحة الحزينة ٠

هـــذا فضـــلا عن النغم الحزين الذى ينسرب من الألفـــاظ الموحية الحزينة ، وحروف المـــد التى حفلت بهـــا الأبيـــات »(١٩) ٠

---

(١٩) طرفـــة بن العبد حياته وشعره ص ١٧٥ ، ١٧٦ بإيجاز ٠

قصـــيدة « هــــر »

يرى الدكتور « نصرت عبد الرحمن » أن « هــــرة » فى الشعر الجاهلى تبــدو رمزا للحياة اللاهيـــة التى تتمثل فى القيـــان والشراب والجنس ...

ويقــول : « ولا أدرى لمـــاذا كان امرؤ القيس يجمـــع بينهـــا وبين « فــرتنى » :

أغادى الصــبوح عنــد هــر وفــرتنى

ويجمع بين « فــرتنى » و « الرباب » :

. . . .　　دیار لهنــد والرباب وفرتنى

فقــد أبدو واهما إذا قلت إن الرباب رمز الموسيقى » .

وبطريقة الإحصاء فى بحثه يصـــل إلى أن « فى الشعر الجاهلى ثلاثة شــعراء قــد فتنتهم « هــر » سيدة القيان والشراب والجنس هم : الأعشى ، وامرؤ القيس ، وطرفــة بن العبــد .

أما الأعشى فقــد خصها بقصيدته .

ودع هريرة إن الركــب مرتحــل

وهــل تطيق وداعا أيهــا الرجــل

وبقصـــيدتين أخـــرين .

وقــد تنبه القــدماء إلى ما فى « هريرة » الأعشى من المجون .

وأما امرؤ القيس فيذكر أن « هــرة » أفنت شــبابه :

. . . .　　وهل أفنى شبابى غير هر ؟

وجعلها تصـــيد قلوب الرجال ، وصور مجونها فى قصيدته :

احـــار بن عمـــرو كـــأنى خمـــر

ويعـــدو على المـــرء ما يأتمـــــر

وقـــد تشوقها « طرفـــة بن العبد » وأحبها بجنون :

أصحوت اليوم أم شـــاقتك هـــر

ومن الحب جنون مستعر »(٢٠)

وأنا أوافـــق الدكتور نصرت فيما ذهب إليـــه من أن « هـــر » رمز للحيـــاة اللاهية التى تتمثل فى القيان والشراب والجنس .

ولكن : هـــل هى فى قصيدة طرفـــة رمز لشىء من ذلك ؟

لنقرأ القصيدة ، وهى بشهادة النقاد من أروع أشعار طرفة ..

يقـــول الدكتور محمد نجيب البهبيتى(٢١) :

« وتسمع قصيدة طرفـــة بن العبـــد :

أصحوت اليوم أم شـــاقتك هـــر

ومـــن الحـــب جنـــون مســـتعر

فتجـــد تلك الرقـــة تجرى مياهها فى الشعر ، وتأخـــذ بقلبك تلك الأريحية الفياضـــة ، تصـــدر عن نفس حساسة يعتلج بهـــا أرق المشاعر لمظاهر الجمـــال فى الطبيعة .

---

(٢٠) الصورة الفنية فى الشـــعر الجـــاهلى . د/نصرت عبد الرحمـــن ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢١) تاريخ الأدب العربى ص ٧٠ .

بل إنا لنجـد تلك الرقـة الشعرية يمثلها فى هـذه القصيدة ذهاب طرفـة فى التخيل مذهبا ينقل به طيف صاحبته عبر الصحراء ، ويتابع به تنقلها ، حتى لكانما يرى طيفها ويخالطه :

أرق العـين خيـال لم يقـر
طـاف والركب بصـحراء يسـر

جازت البيـد إلـى أرحلنـا
آخـر الليـل بيعفـور خـدر

ثم زارتنى وصـحبى هجـع
فى خليـط بين بـرد ونمـر

تخلس الطـرف بعينى برغـز
وبخـدى رشـا آدم غـر

... الـخ .

وقال الدكتـور الكفراوى(٢٢) :

« ولست أدرى لأى مشـقة تعرض « طرفـة بن العبد » حينما قال فى حبيبته « هـر » — وهـو من خير شـعره بشهادة الثقاة من النقاد :

لا تلمـنى إنهـا من نسـوة
رقـد الصيف مقـاليت نـزر

كبنـات المخـر يمـادن كمـا
أنبت الصـيف عسـاليج الخضر

---

(٢٢) الشعر العربى بين الجمود والتطـور ص ٨ ط نهضـة مصر — الثانية ١٩٥٨ .

فجعــونى يــوم زمــوا عيرهم

برخيم الصـــوت ملثـــوم عطـــر

ولهـــا كشــــحا مهـــاة مطفـــل

تقترى بالرمـــل أفنـــان الزهـــر

تحسب الطـــرف عليهـــا نجـــدة

يا لقـــومى للشـــباب المســـبكر »

ونحن سوف نجيب عن هـــذا التساؤل قريبا إن شـــاء الله .

ثم يقـــول :

« الا توافقنى على أن البيت الأول والآخير يعبران إلينـــا أكثر من أربعة عشر قرنا ليمتزجا بلغـــة أهـــل الفتوة والمرح من أبناء عصرنا ... وإن شـــئت مزيدا فاقرأ الأبيات التى ختم بهـــا قصيدته والتى يعتـــذر فيهـــا إلى قـــومه من سابق لهـــوه وعبثه عساك تظفـــر فيها بشىء من التكلف ، قال :

ولقـــد كنت عليـــكم عاتبـــا

فعقبتـــم بذنـــوب غـــير مـــر

كنت فيـــكم كالمغطـــى رأســـه

فانجلى اليـــوم قناعى وخمـــر

ســـادرا احسب غيى رشـــدا

فتناهيت وقـــد صابت بقر »(٢٣)

---

(٢٣) المرجـــع نفســـه .

والآن نقرأ القصيدة لنرى من هى « هــر » ؟ أهى الخمر ؟ أم هى القبيــــلة ؟

يبـــدأ طرفـــة قصـــيدته قائلا :

١ – أصحوت اليوم أم شاقتك هــر
ومن الحــــب جنـــــون مستعر

٢ – لا يكــن حبــــك داء قاتــلا
ليس هــذا منــك ماوى بحــــر

٣ – كيف ارجو حبها من بعــد ما
علــق القلب بنصــب مستسـر

إنه يخاطب نفسه ، ويسألها ، أأفقت مما كنت فيه !! وما الــذى كان قبــل هــذا الصــحو ؟ أهــو السكر ؟ أم الباطــل ؟ أم الخطــأ حين تمــرد على القبيــلة !!

أم أن « هــرا » هى التى شاقته ؟ والهبت عوطفه ، إذ هى مسيطرة على عقـــله ، فيصبح بحبها كالمجنون ؟؟

وفى البيت الثانى يخاطب محبوبته ويسميها أو يصفها بـ « ماوى » وذكر الدكتور « على الجندى »(٢٤) أن ماوى : مرخم ماوية : المرآة ،

=

عقبتـــم : عطفـــتم وجـــدتم عقــب ذلك ٠ الذنــوب : الدلــو ويقصــد هنا النصيب من العطاء ٠ غير مر : أى لم يعطلوا به ، ولم يمنــوا ٠ انجلى : انكشف ٠ خمر : جمــع خمار وهــو ما يستتر به ٠ السادر : الذى لا يهتم ولا يبالى بمــا صــــنع ٠ تناهيت : اقصرت عما كنت فيـــه وكففت ٠ صــــابت : نزلت ٠ القــر : القــرار ٠

(٢٤) الديــوان ص ٦٧ ٠

واسم امرأة . وإذا كان اسم امرأة كان معنى هذا أنه يتحدث هنا عن امرأة أخرى غير « هر » ، إلا إذا كان « ماوية » هنا اسما آخر لنفس المرأة التى هى « هـــر » .

واستبعد هـــذا الأخير ، وأرى أن « ماوى » هنا هى المرآة ، ويقصد الخمـــر الصـــافية .

وفى البيت الثالث يقـــول : كيف أرجـــو حبها وقـــد سبب هـــذا الحب لى عنـــاء ونصبا أعانى منه ما أعانى .. وهـــذا المعنى مخالف لمـــا فسره محقق الديوان ، إذ قـــدر محـــذوفا بعـــد « أرجـــو » وقال : المعنى : كيف آمل أن يزول حبها ويقلع عنى بعـــد ما تعلق قلبى بهـــا ، وتمكن حبها فيه ، ولا آمل فى الخـــلاص منه ..

وتأتى الأبيـــات بعـــد ذلك فيـــوهم ظاهرها أن طرفـــة يتحـــدث عن امرأة حقيقية . اسمها « هـــر » إذ يصفها فيقـــول :

تخلس الطـــرف بعينى برغـــز
وبخـــدى رشـــأ آدم غـــــر

وعلـــى المتنـــين منهـــا وارد
حسن النبـــت أثيـــث مســـــبكر

ولهـــا كشـــحا مهـــاة مطفـــل
تقترى بالرمل أفنـــان الزهـــر

... الـــخ .

ويشبهها بالظبى التى لهـــا ولـــد صغير عطفت عليه ، فخـــذلت القطيع — كما فى المعلقـــة — وهـــو أبين لحسنها :

بين أكنـــاف خفـــاف فاللـــوى

فحرف تحنـــو لرخص الظلف حـــر

تحسب الطـــرف عليهـــا نجـــدة

يا لقـــومى للشـــباب المســـبكر

وهنـــا نشعر أن طرفـــة وقـــع فى حـــديثه عن قـــومه دون أن يدرى .. إنه يتحدث عن حبيبته ، قـــد تكون الخمر كما أشرنا ، والخمر هى السبب المباشر التى أبعـــدته عن محبوبته الأخرى وهى القبيلة .. فكل من الخمر والقبيلة حبيبة طرفـــة . وإن لم تكن حبيبته هى القبيلة نفسها فهى تعـــادل أو مكافىء للقبيلة .

إنه ينادى نداء المستغيث « يا لقـــومى » .. وكم من استغاثة أطلقها لسان حاله فى غربته ، ولكن أحـــدا لم يغثـــه ، ويا لهـــول ما رأى !! أنه الشباب المكتمل التـــام ..

شباب !! فيمن هـــذا الشباب !! أفى حبيبته ؟ أم فيـــه هـــو ؟

لعلى أكون مصيبا حين أقـــول إنه يقصـــد نفسه ، ويتحسر على شبابه المكتمل النضج ويخشى نهـــاية هـــذا الشباب ، وييأس إذ لا يستفيد قـــومه منه .

ويؤيد هـــذا الفهم حـــديثه بعـــد ذلك عن قـــومه :

حيثمـــا قاظـــوا بنجـــد وشـــتوا

حـــول ذات الحاذ من ثنيى وقر

فلــه منهــا علــى أحيــانها

صــفوة الــراح بمــلذوذ خمــر

إن تنــوله فقــد تمنعــه

وتريه النجــم يجــرى بالظهــر

ارأيت إلى هــذا النجم الذى تريه إياه ظهرا ... إنها ليست «هرا» التى تفعــل ذلك فحسب .. وإنمــا القبيلة — اولا — أرته النجم فى عز الظهر ، فقاسى الأمرين ، وعانى ما عانى .. لقــد أظلمت الدنيــا فى عينه فصارت ايامه كلهــا ليالى سوداء ، فغشيه الهم والحزن ، وناء الليل الطــويل عليه بكلكلــه . وهكذا كانت حبيبته — القبيلة — تمتعه فى أوقات ، وتريه النجم فى أخرى وهــو مــع ذلك سيظل محبا .

ويعبر عمــا ناله منهما — القبيلة والحبيبة — وربمــا هما واحــد .. فيقــول :

ظــل فى عسكرة من حبهــا

ونــات شــحط مــزار المــدكــر

فلــئن شــطت نواهــا مــرة

لعــلى عهــد حبيب معتــكر

لقــد ظــل مهموما ، مكروبا ، متحيرا (من حبها) أى بسبب ما لا قاه منها على حبــه لهــا ، وهــو لا يزال يذكرها ، ولا يستطيع أن ينساها ، كيف وقــد ملكت عليه قلبــه فأشرب حبها !! لكنها نأت ، ومــع ذلك فهــو على العهد باق . وإن شقى بهــذا الحب .

ثم يقــول بعــد أبيــات :

وإذا تلســــــــنني ألســـــنها

إنني لســـت بمـوهــون فقـــر

أين هــذا البيت من ذاك ؟ إنه تناقض وقــع فيــه طرفــة ٠

وقــد خطــاه النقــاد فى هــذا البيت ، وزعموا أنه لم يجــد الغزل ٠٠ قال أبو هلال العسكرى (٢٥) « والعاشــق يلاطف من يحبــه ولا يحاجــه ، ويلاينــه ولا يلاجــه » ٠

ولكن طرفــة لا يتغزل فى امرأة اسمها « هــر » ، وإنمــا يرمز بها إلى قبيلته ٠٠ ولأن طرفة عزيز ، أبى ، أنف فهــو يحاول — على الرغم ممــا لاقاه فى غربته — الاحتفاظ بنفسه عزيزة ، أبيــة ٠

فالحبيبة هنــا هى القبيلة ٠٠ نالــه منها الأذى فعتب عليها ، ثم نالــه الحظ والود فانجلى الغطاء عن وجهه ٠ ويؤكــد ذلك قــوله فى الأبيــات التاليــة :

لا كبير دالـــف مــن هـــرم

أرهب الليــل ولا كــل الظفــر

وبـــلاد زعـــل ظلمـــانها

كالمخاض الجرب فى اليوم الخدر

قـــد تبطنت وتحـــتى جسرة

تتقى الأرض بملثـــوم معـــر

---

(٢٥) الصـــناعتين ٨٩ ٠

فما علاقة هــذه الأبيات بالبيت السابق الذى عابه النقــاد ؟ ليس لهــذه العلاقة — فيما أرى — ســوى أن الشاعر يقصــد بالكلام الســابق « القبيلة » والقبيلة فقط ·فهى محبــوبته ، وهى التى لا يصــبر على إساءتها ، فقــد سبق أن أساءت إليــه مرات ، ونفسه تأبى الضيم والذل ، فإذا أسنته لسنها ·

وإلا فهــو ليس هرما يرهب الليــل ، إنمــا هــو القوى الشجاع الذى يقطع الفيافى والبلاد المهجورة المخيفة على ناقــة قوية عظيمة ·

ولكن « طرفة » يعــود فيرى نفســه قــد تحطمت بسبب ما وقــع عليــه من ظلم قــومه ، وكأنه يتراجع عن إدباره وتوليــه فقــد ذاق ويلات النفى والإبعــاد :

ذاك عصــر وعــــدانى أننــى
نابنى العــام خطــوب غير سر
من أمــور حــــدثت أمثالهـــا
تبترى عــــود القــــوى المستمر

نعم إنه قــوى مستمر ، ولكن تتابع الأحــداث الضخام ، والمصائب العظام هــدت من كيانه وهــو فى العشرينات من عمره !!

وها هى نفسه تشكو ما أصابها ، لكنه يرد عليها معزيا لها قائلا :

وتشــكى النفس ما صــاب بهــا
فاصــبرى إنك من قــوم صــبر

نفس طرفة « تشكو ما تعانيه ، والشاعر يأمرها بالصبر ويعلل لهذا الطلب تعليلا مقنعا فيقول : « اصبرى إنك من قوم صبر » أى من قوم ذوى نفوس صابرة . وتقوم (إن) بوظيفة التوكيد والربط بين جملة الأمر والجملة الخبرية ، فالتقدير : فإنك من قوم صبر . أو لأنك من قوم صبر . ويرى عبد القاهر : أن « إن » فى مثل هذا الموقع تجعل الجملة ترتبط بما قبلها وتتحد به حتى كأن الكلامين قد افرغا إفراغا واحدا ، وكأن احدهما قد سبك فى الآخر »(٢٦) .

ثم يقول فى ختام القصيدة :

ولقد كنت عليكم عاتبا
فعقبتم بذنوب غير مر
كنت فيكم كالمغطى رأسه
فانجلى اليوم قناعى وخمر
سادرا أحسب غيى رشدا
فتناهيت وقد صابت بقر

هكذا « ينتهى به الجدل إلى الخضوع لمقولات الاجتماعية التى قام عليها لوم اللائمين وإلى الالتزام بالجماعة فى رؤيتها .. ورفض اللوم عند طرفة لم يكن رفضا مطلقا ، لأنه وجد أن التزامه بأعراف المجتمع أكثر من التزامه بمقولاته الذاتية ، وهو يصف نفسه فى لهوه بالغواية والطيش ، وأنه كان كمن وضع عصابة على عينيه ،

---

(٢٦) النفس فى الشعر الجاهلى ص ٨٢ ودلائل الإعجاز ص ٣١٦ .

وأنه وصل إلى الالتزام بالجماعة عندما انكشف ذلك القناع الذى حجب رؤيتـه (٢٧) ٠

إنه يعترف بخطئه ، ويقـر صواب قـومه بعـد أن انجلت الغشاوة وتبين لـه أنه كان واهمـا ٠

يقـول الدكتور وهب رومية (٢٨) ٠

« إن الحبيبة هى القبيلة ، أو هى مكافىء عاطفى لعلاقته بقبيلته ٠٠ وحبيبة طرفـة فاتنة ، وقـع قلبـه رهنا بيـدها ، يشتاقها ويرجـوها ألا يكون حبها داء قاتلا فتمضى فى عـذابه ٠ ثم لا يلبث طيفها أن يزوره فيغسل ما بنفسه ، ويتذكر أيام صفوه معها ، ويزداد تعلقـا بها وحبا ٠ ويصحو باطله فيرتاح لهـذه العلاقـة ويلتمس لنفسه العـذر فهى من فاتنات تلك القبيلة ٠

بل إننا نلحظ فى بينونة الحبيبة ظـلا لمعنى تشقق الرحم الذى يشـكو منـه طرفـة ٠

فجعـونى يوم زمـوا عـيرهم

برخيم الصـوت ملثـوم عطر »

« هـذا هـو طرفة : عاشق يحـب حبيبته (هـر) الصـبية الفاتنة ، و (قيس) القبيلة الكريمة ، ولكن علاقته بمحبـوبته تضطرب فيعتب عليها ، ثم ترضـيه ويصـيران إلى الحسنى ، وعلاقتـه بقبيلته

---

(٢٧) العـذل فى الشعر الجـاهلى ـــ د/حسنى عبد الجليل يوسـف ص ٣٨ ، ٣٩ ط مكتبة الآداب ٠

(٢٨) الرحـلة فى القصـيدة الجاهليـة ٠ د/وهب روميـة ص ٣٠٠ وما قبلهـا ٠

تضطرب فيسخط عليها ثم ترضيه ويصيران همـــا الآخران إلى الحسنى ٠
وهــو فى كلتا الحالتين معــذور »(٢٩) ٠

وبهــذا نكون قــد اجبنا عن تساؤل الدكتور الكفراوى — السابق —
وبينا ما هى المشقة التى تعرض لهــا طرفــة بن العبد ٠٠

« ونحن لا نلقى نصــبا فى تبين التشــابه الكبير — اكاد اقــول
المطابقة — بين مطلع القصيدة الذى يتحــدث فيه طرفــة عن الصـــحو
وجنــون الحب ، وآخــر القصـــيدة الذى يتحـــدث فيـــه عن انكشاف
عمـــايته وظلـــه وغيـــه :

اصحوت اليوم أم شـــاقتك هـــر
ومـــن الحـــب جنـــــون مســـتعر
كنت فيـــــكم كالمغطـــى رأســـه
فانجلى اليـــوم قنـــاعى وخـــمر
ســـادرا احســـب غيى رشـــــدا
فتناهيت وقد صابت بقـــر »(٣٠)

* ● *

هكذا بدت لنـــا حبيبة طرفـــة واطلالها ، وإننى اسوق هنـــا ابياتا
لـــه تؤكد صـــدق ما ذهبنا إليه من انه لم يكـــن محبا لامراة حقيقية ،
ولا ارق لحبها ، ولا شاقه ربعها ، ولم يقف على اطلالها ، ولم يبك طيفها
٠٠٠ وكيف يتاتى ذلك لمهموم يبيت ســاهرا يراقب النجم ؟ إنه كاسير ،
طائر القلب ، يعالج اغلال الحـــديد مكبلا ٠٠٠ يقول طرفـــة(٣١) :

(٢٩ ، ٣٠) الرحلة فى القصيدة الجاهلية ص ٣٠٠ ٠
(٣١) الديـــوان ص ٢١٨ ٠

أرقــت لهم أســهرتنى طــوارقه

وساعدنى دمعى ففاضت ســوابقه

وبت أراعى النجم لا أطعــم الكرى

كأنى أسير ، طائر القلب خافقــه

يعالج أغــلال الحــديد مكبــلا

وقد عــدن بيضا كالثغام مفارقه

ولم أبك طيفا زار وهنا خيــاله

ولا شاك خافى الخــدر كنت أعانقه

ولا شاقنى ربع خــــلا من انيسه

فأضــــحت به آرامه وزقازقــــه

ولا خلت أضــــغاثا فبــت مســهدا

لأن الفتى ما عــاش فالله رازقــه

ولكن دهــرا ضــاق بعــد اتساعه

وجاءت أمور وســعتها مضائقــه

مضى سلف أهل الحجــا منه والتقى

ولا خير فى دهــر تولت غرانقــه

فلم يبــق إلا شــامت بمصــيبة

وذو حســد ما تستقيم طرائقــه

والأبيات واضحة ، ناطقة بمــا أريد ، تؤكد ما ذهبنا إليــه فى تفسيرنا لشعره واقفــا على الأطــلال ومتغزلا .

ثانيـا – الناقــــة

لفت القرآن الكريم نظر النـاس إلى الإبل وخلقها العجيب فقـال عز شانه : « **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت** »(٣٢) ٠

نعم ، إن خلقها عجيب ، تتبدى فيه قـدرة الله عز وجـل بأجلى صورها ، ولذلك يعكف المتخصصون فى علم الحيوان (البيطرة) وغيرها على دراسة أجزائها ٠٠ وتتوالى الدراسات ولم تتوقف واضعة نصب أعينها هـذه الآية الكريمة ، فيرون فيما يكتشفون آيات الله عز وجـل فى خلق الإبـل ٠

وقـد اهتم الشاعر الجاهلى بالناقـة – خصوصا – اهتماما بالغا ، حتى إنها « حظيت بأكبر قـدر من صور الحيوان فى الشعر الجاهلى ، وقلمـا نرى شـعراء الجاهلية يصورون البعير فى أسفارهم ، وحتى إذا صوروه – فى قصـائد قليلة – تظهـر فى صـفاته الأنوثة مثل الصيعرية »(٣٣) ٠

لقـد كان الجاهلى مفتونا « بناقتـه فتنة بعيدة ، فوقف يتأملها ، ويردد بصره فيها ، وما أكثر ما اقترب منها يحـدق فيها ويغلو ويسرف فى التحـديق ، ثم يصـفها عضوا عضوا ، ويصف هيئتها وطباعها ، وما يداخـل صـدرها من أحاسيس ومشاعر ٠٠٠ حتى ليمكن القـول : إن الشـعر الجاهلى أقام معرضا ضخما للناقـة وحرص فيـه على رسمها بعناية كبيرة ٠٠٠ »(٣٤) ٠

---

(٣٢) سـورة الغاشية الآية (١٧) ٠
(٣٣) الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى ص ٧٣ بتصرف وإيجاز ٠
(٣٤) الرحلة فى القصيدة الجاهلية ص ٦٢ ، ٦٣ بتصرف وإيجاز ٠

والشاعر بعـــد أن يقف على الأطـــلال يتغزل ثم يأخـــذ فى وصف ناقتـــه · فهـــل هناك علاقـــة بين الأطلال والغزل والناقـــة ؟؟ نعم ··

إن هناك فى الأطلال فقـــدا وفنـــاء وتبددا وزوالا ، هنـــاك أطلال دارســـة ، ورسوم بالية ·· ·وتقفز غريزة حـــب البقـــاء لتسيطر على الشاعر فيتذكر المرأة ، ويتغزل فيها متخـــذا إياها رمزا للأمل ، وعاملا من عـــوامل البقـــاء ·

ثم تأتى الناقـــة رمزا للإرادة الإنسانية التى تقتحم الأهـــوال من أجـــل تحقيق الآمال ·

إذا فليهرب الشاعر من هـــذا الفنـــاء إلى حيث الأمل فى البقاء ، بل ليسارع فى الهرب ·· فما وسيلته فى الهروب ؟

ليس إلا الناقـــة الخفيفـــة ، السريعـــة ، الجـــريئة ، الصـــبور ··· إلـــخ ·

ولكن هنـــا سؤالا ·· إذا لم يكن إلا مجرد الهروب اليس الجمـــل أسرع ؟ بل أليس الفرس الأسرع ؟؟ · ثم هـــو — أى الفرس — مـــع ذلك لـــه مكانته عنـــد الجاهليين ؟

نعم ، إن للفرس عند الجاهليين مكانته « ولكن عند الفرسان خاصة ، أما الناقـــة فمكانها عند الفرسان والعـــامة على السواء ·· ومن هنـــا لم يكن غريبـــا أن تملأ الناقـــة شـــعر العربى ولغته ، لقـــد كانت صحبته لهـــا طويلة وحياته عليها قائمة ، من أصوافها وأوبارها وجلودها بيتـــه ولباســـه ، وفراشه وغطاؤه وأثاثه ، ومن لبنها شرابه ، ومن لحمهـــا وشحمها طعامه ، وعليها رحلته ··

« وهـــذا التلازم بين العربى وناقتـــه فى السلم والحرب ، وفى الحـــل والترحال مـــع تعلق حياة أحـــدهما بالآخرة فى الأسفار بوجـــه خاص ، قـــد عطفه على ناقته ، وجعلها أعز شىء عليه ....

« ولم يكن غريبا كذلك أن يضع الأسماء لأدق أعضائها ، وأتفـــه أدواتها ، وأخفى حركاتها ، وأن تشيع الأخيلة المتعلقة بهـــا فى الحياة ، فالرجـــل إن عجز عن الكلام فقـــد اعتقل لسانه . وإن احتال للشىء عند الرجـــل فهو يفتل لـــه بين الذروة والغارب . وإن عـــلا الشىء فقـــد تسنمه .

وإن ترك وهـــواه فحبله على غاربه . وإن أحسن قالـــوا : لله دره .

وإن أفسد بين النـــاس فقـــد ألقح الشر بينهم ، وإن اشتدت الحرب فهى زبون .... »(٣٥) .

ولكننا لم نظفر بالإجابة عن السؤال : لمـــاذا الناقـــة وليس الجمل ؟

قيـــــل :

« إن الشعراء الجاهليين كانوا يصورون ناقـــة مثالية موجـــودة فى السماء توصلهم إلى مغرب الشمس ليظفروا بالخلود »(٣٦) .

ويرون « أننا لا نبعـــد عن الحـــق كثيرا إذا زعمنـــا أنها تقديس لفكرة قـــوام الحياة الرعـــوية ، وأنها اختصت بالإبل دون غيرها للمكانة المرموقة التى يحتلها هـــذا الحيوان — دون معظم حيوان الصحراء — من نفس العربى الذى ينفق عمره فى ظـــلال القبيلة متنقلا فـــوق رمال الصحراء القاسية »(٣٧) .

---

(٣٥) أساليب الصناعة فى شـــعر الخمر والناقة ص ٥١ ، ٥٢ .
(٣٦،٣٧) الصـــورة الفنية فى الشعر الجاهلى ص ١٨١ .

ويبدو ذلك صحيحا ، فقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان يعتقده الجاهليون فى إبلهم حين قال — منكرا صنيعهم — **(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ..)** (٣٨) .

وإنما خصت الناقة بهذا الاهتمام لما فيها من الخصوبة واستمرار الحياة بالتناسل ، حتى إنهم ليشبهون السحاب الذى يحمل الماء — سر الحياة — بالنوق العشار ، فهذا النابغة الذبيانى يقول :

أجش سماكيا كأن ربابه

أراعيل شتى من قلائص أبد

وقال طرفة مصورا السحب بنوق محاليب قد ضلت رباعها وتصب اللبن إذا هزه الرعد (٣٩) :

كأن الخلايا فيه ضلت رباعها

وعوذا إذا ما هزه رعد احتفل

لقد كانت الناقة شريكا للعربى فى سرائه وضرائه ، معينا له على حمل همومه وبلوغ مآربه ، كانت ملاذه وكهفه ، رآها مثلا عاليا فى الجرأة ، والصبر ، وتحمل المشاق ... ولذا كانت الحيوان المناسب لطبيعة الأرض التى يعيشون فوقها .

لقد بلغ من حب العربى ناقته وقوة ارتباطه بها أنه كاد يناجيها بخلجات نفسه وتناجيه ، ثم هى فوق ذلك رمز للأمل والبقاء

---

(٣٨) الآية ١٠٣ من سورة المائدة .
(٣٩) الديوان ص ١١٣ .

وهاهــو فى النزع الاخير يوصى ذويه أن يجهزوا لــه ناقــة أمام قبره لتكون عــونا لــه فى بلوغه أرض المحشر .

يقــول عمر بن زيد لابنــه (٤٠) :

أبنــى زودنــى إذا فارقتنــــى
فى القــبر راحــلة برحــل فاتر
للبعث أركبها إذا قيــل اظعنوا
مستوثقين معــــا لحشر الحاشر

هكذا كانت الناقــة عند العــربى وهــو فى ظــل قبيلته ينعــم — نسبيا — بالأمن ، وهــو مطمئن الجانب ، قرير العين .

فمــا بالك بالطريد أو الخليع ؟؟

إن الناقــة عنده لابد أن تكون أهم وأحب من هــؤلاء الذين يعيشون فى كنف قبــائلهم ، وكيف لا وهى تقاسمه حيــاته ، لم يجــد فى كربته ســـواها ، ولمن يشكو إلاها ؟ ..

لقــد حاورته وحاورها ، وناجتــه وناجاها ، وشكت إليه وشكا إليها ، فخففت عنه أحزانه ، وسرت عنه همومه ، وتعلم منها كيف يصبر على مأســاته .. (*)

وهكذا كانت الناقــة عند طرفــه .. فمــاذا قال فيها ؟

جاء وصــف طرفة لناقته فى غير المعلقــة فى حــوالى عشرين بيتا

---

(٤٠) المحبر (٣٢٢) ، النوادر لأبى ســعيد الأنصارى ٧٢ .

(*) وللحــديث عن الناقــة بقيــة فى فصــل (أصــداء التمــرد فى المعلقـــة) .

متفرقة ، ونستطيع أن نتعرف ما إذا كان قالها فى غربته أم قبلها .

يقول طرفة فى قصيدة « هر » التى تحدثنا عنها وتبين أنه قالها فى غربته (٤١) :

وبلاد زعل ظلمانها
كالمخاض الجرب فى اليوم الخدر

قد تبطنت وتحتى جسرة
تتقى الأرض بملثوم معر

فترى المرو إذا ما هجرت
عن يديها كالفراش المشفتر

ذاك عصر وعدانى أننى
نابنى العام خطوب غير سر

من أمور حدثت أمثالها
تبترى عود القوى المستمر

وتشكى النفس ما صاب بها
فاصبرى إنك من قوم صبر

---

(٤١) الديوان ص ٧٥ زعل : نشيط . الظلمان : ذكور النعام . المخاض : الإبل الحوامل . الخدر : الذى يخدر فيه لشدة برده . تبطنت : دخلت بطونها . جسرة : ناقة عظيمة جريئة على الأهوال لنشاطها . ملثوم : خف لثمته الحجارة فأدمته . معر : ذهب شعره . المرو : الحجارة . هجرت : سارت وقت الهاجرة . المشفتر : المتفرق . عدانى : منعنى وشغلنى . نابنى : نزل بى . خطوب : جمع خطب وهو الأمر العظيم .

إن هـــذه الرحلات التى يلج فيها هـــذه الأماكن المهجورة المخيفة لا يجرؤ أحـــد من الناس على مجرد دخولها لأنها موحشة ، ويدل على شـــدة وحشتها كثرة النعام بها ، فهـــو آمن من الإنس ، هـــذه الأماكن (تبطنها) أى دخـــل بطنها غير هياب ولا وجـــل ، مستعينا فى هـــذه المغامرات بناقـــة (جسرة) عظيمة ، جريئة ، نشيطة ، لا تهـــاب السير فى هـــذه الأماكن فقد تعودتها ، وهى تسرع السير دون تعثر ، والحصى يتطاير يمنة ويسرة كأنه فراش طائر .

ولكن ذلك كان فى زمن ماض قبل أن يحـــل بى ما حـــل ، وينزل بى من الهموم ما نزل ، فانشغلت بمـــا نابنى ، وما أدراك ما نابنى !!

نابنى من المصائب العظام ما لا يخفى .. إنها مصائب (تبترى عود القـــوى المستمر) فهـــو صعب حتى على القـــوى الذى يقـــاوم ويستمر فى المقـــاومة .

ثم إن هـــذه المصائب متوالية متتابعة غير أنى أخفف البـــلوى على نفسى فأطلب منها الصبر فأنا « من قـــوم صبر » .

ومثل هـــذا « الحـــديث عن الناقـــة والضرب بهـــــا فى عرض الصحراء وكبد البادية قـــد ورد كثيرا فى شـــعر الجاهليين على أنه نوع من تلك المغامرات الحبيبة إلى نفوسهم ، فهم يستعيدون بذكر الناقـــة والصحراء عصر المخاطرة والفتـــوة والشـــــباب الذى تركـــــوه وراء ظهـــــورهم »(٤٢) .

---

(٤٢) الشعر العربى بين الجمود والتطور ص ٣٤ .

وقـد جاءت أبيـات طرفـة هـذه في قصيدة (هـر) عقـب قـوله(٤٣) :

وإذا تلســـنني ألســـنها
إنني لســت بموهـون فقـر
لا كبير دالــف مـن هــرم
أرهب الليـل ولا كـل الظفــر
وبـلاد زعـل ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ الخ

كانه يتذكر فترة من حياته كان يعيشها في كنف القبيلة ، وواضح أنه يكابر ثم يتراجع ، يقـدم خطوة تجاه قبيلته ويرجع اثنتين ، وتستبد به الذكريات فيستعيد شريطها ، وتشتاق نفسه إلى معاودة مثل هـذه المغامرات ، ولكن انى ذلك وقـد وقع به ما وقع ٠٠

وقـال طرفـة(٤٤) :

لمـا رأيت الشـيب قـد راعنى
والشـيب والله نعـا والقبــوح
حملت بـزى نـوق عـيرانة
مدمجـة ذات جـراء سـبوح

(٤٣) الديـوان ص ٧٤ ٠

(٤٤) الديوان ص ١٧٠ بزى : سـلاحى وثيـابى ٠ العيرانة : الناقـة الصلبة ٠ مدمجـة : مجتمعة الخلق ٠ جراء : جرى ٠ سـبوح : تسبح فى جريهـا ٠

مرفوعهـــا زول وموضـــوعها

كمـــر غيث لجـــب وســط ريح

أليس عجيبـــا أن يروع الشيب الفتى ابن العشرين !!

بلى ، ولكن ما حـدث لـه من إفراد ونفى وتغـــريب أمر يشيب الصغير حقـــا فى أرض يرى فيها الموت شـــاخصا كل لحظـــة ، وأنى توجـــه ، فليس معـــه من صاحب ولا ظهير .. فما حيلته ؟ ليس امامه ســـوى ناقتـــه .

وقال أيضـــا فى قصيدته (قفى ودعينا اليـــوم يا ابنة مالك .....) والتى جاء فيهـــا (٤٥) :

ولا غرو إلا جـــارتى وســـؤالها

ألا هل لنـــا أهل سئلت كذلك

يقـــــول :

قفى ودعينا اليوم يا ابنـــة مالك

وعوجى علينا من صـــدور جمالك

---

* مرفوعها : اى رفعها والرفـــع المبالغة فى السير . زول : نهوض . لجب : كثير الصـــوت .

(٤٥) الديـــوان ١٠٤ ـــ ١٠٦ .

قفى لا يكن هذا تعلة وصلنا

لبين ولاذا حظنا من نوالك

أخبرك أن الحى فرق بينهم

نوى غربة ضرارة لى كذلك

ولم ينسنى ما قد لقيت وشفنى

من الوجد أنى مولع بالدكادك

وما دونها إلا ثلاث مآوب

قدرن لعيس مسنفات الحوارك

زفوف من اللائى كأن رسومها

حناتم والأقفاء عند الموارك*

كأن خليفى قنة عند زورها

إذا أرقلت فى لاحب متهالك

ظللت بذى الأرطى فويق مثقب

ببيئة سوء هالكا أو كهالك

... إلخ .

هذه الأبيات قالها فى منفاه — كما هو بين — وقد سبق أن ذكرنا أن « ابنة مالك » رمز للقبيلة كلها ، تلك التى كانت فيها

(*) زفوف : مسرعات . الرسوم : جمع رسم وهو الأثر . حناتم : جمع حنتمة وهى السحابة السوداء . الأقفاء : جمع قفا وهو ما وراء العنق . الموارك : جمع موركة وهى مقدمة الرحل . الخليفان : مثنى خليف وهو الطريق بين الجبلين ، وخليفا الناقة : ما تحت إبطيها . القنة : أعلا الجبل . اللاحب . الطريق الواضح . الأرطى : شجر معروف . ذى الأرطى : موضع .

حيـــاة حقيقية حتى فرق بينهم ، فكان هـــذا الفراق طامة كبرى للقبيلة، ولطرفة على وجـــه الخصوص ٠٠

وهـــو محب للقبيلة (مولـــع بالدكادك) وأعتقـــد أن الدكادك هنا يرمز بها إلى القبيلة ٠٠ لقـــد أضناه البعـــد والاغتراب وصار — لكثرة تفكيره فيمن يحب — هزيلا ، ورغم أن القبيلة بها ما بها ، وفيها ما فيها — كالأرض الغليظة — إلا انه يهـــواها ويحبها ، بل مولـــع بهـــا ، مشتاق إليهـــا ٠

هـــذه الحبيبة صار بينه وبينها مسافة بعيدة ، إنها مسيرة ثلاثة أيام بإبل قـــوية شديدة ، بيضاء يخالط بياضها شقرة ٠٠ إنها سريعة وهى لشدة سرعتها تثير غبارا فى الفضاء تحسبه سحبا سوداء ، وإنها لتحرك رؤوسها بشدة ونشاط حتى لتكاد أقفاؤها تصـــل إلى أوائل الرحال ٠

وإن الناقـــة هـــذه رغم امتلاء جسمها لسريعة ، وهى عندما تعـــدو تبـــدو ضخامة صـــدرها ، وبين صدرها ويديها فجوتان واسعتان كأنهما طريقان يكتنفان هضبة ٠ وكل ذلك يتضح حين تسرع فى طريق متهالك :

ظللت بذى الأرطى فـــويق مثقب
ببيئـــة ســـوء هالـــكا أو كهـــالك
ترد علـــى الريـــح ثوبى قاعـــدا
إلـــى صـــدفى كالحنيـــة بـــارك

اقمت فى هـــذا المكان مدة فـــويق مكان « مثقب » وهـــو ممتلىء بشجرة الأرطى غير صالح لسكنى الآدميين ، وإنما هو مخيف وقـــد أشرفت فيه على الموت ٠

هنـــاك كانت الريح تلقى ثوبى على وجهى ورأسى لشدتها ، وما من

أنيس ولا جليس إلا جملى البارك الذى أسندت ظهرى إليـه . فهـــو رفيــق وحـــدتى ..

وقال طرفـة عن ناقتـه(٤٦) :

إذا اقبلت قالـوا : تأخر رحلها
وإن ادبرت قالوا : تقدم فاشدد

وتضحى الجبال الغبر خلفى كأنها
من البعد حفت بالملاء المعضـد

وتشرب بالقعب الصغير وإن تقـد
بمشفرها يـوما إلى الليل تنقـد

إذا رجعت فى صوتها خلت صوتها
تجـاوب أظـار على ربع ردى

فـإن تك خلفى لا يفتها ســوادياً
وإن تك قدامى أجدها بمرصـد

أرى الموت لا يرعى على ذى جلالة
وإن كان فى الدنيا عزيزا بمقعـد

لعمـرك ما أدرى وإنى لواجـــل
أفى اليوم إقـدام المنية أو غـد

هذه الأبيات — كذلك — أرى أن طرفة قالها فى غربته بدليل هذين البيتين الأخيرين اللذين رأى الموت فى أولهما .. وما رأى الشـــاب الموت إلا بعـد غربته حين صار وحيدا فريدا .

(٤٦) الديـوان ١٧٦ .

وطرفــة يصف ناقته بالقــوة والشدة والسرعة ، وهى ناقة قنوع ، يكفيها القليل من المــاء ، مذللة ، طيعــة ، ســهلة الانقيــاد ، ليست جموحا ، ولا شرودا ، تسير معــه وقتما يزيد حتى لــو سار النهار كلــه إلى الليــل .. وصوتها فيه حنين فإذا ما رجعت فكأنها ترد على ابنهــا ، أو تبكيــه .

ثم يتحــدث عن علاقته بها فيقول : إنها متعلقة بى تعلقا شديدا ، لا تهتم بغيرى ، وحين أكون أمامها لا يفارق نظرها شخصى ،وحين أكون خلفها فإنها تترقبنى وتترصــدنى دائمــا ..

وهكذا كانت الناقــة بالنسبة إلى طرفــة ، ولابد لــه من ذلك ، فمن له ـــ فى هذه الأماكن المهجورة ـــ من رفيق سواها ؟ من يسمع إليه ؟ من يقــدر ما هــو فيه من مآس وعنــاء وشقاء ؟؟

لا أحــد سوى ناقته الصبور ـــ التى ينبغى أن يتعلم منها الصبر ـــ ، القنــوعَ ـــ التى ترضى بأقــل القليل ـــ وهى لا تستنكف ، وعليه أن يكون مثلهــا قانعــا ..

هــذه هى ناقــة طرفة التى كانت أنيس وحــدته ، ورفيق رحلته ، شــكا إليها وسمعته ، وشاركته همومه وسرتها عنه ، رآها صابرة فتعلم كيف يصبر ، قانعــة فتعلم القناعة .. فلم تكن بالنسبة إليه مجرد حيوان يركب للرحلة أو التنقــل ، إنمــا اقتحمت معــه المهامه والأهــوال ، وساعدته على تخطى الطرق الوعرة الموحشة بسرعتها وقــوتها .. فكانت نعم الرفيــق .

ولــذا أحبته وأحبها ، تعلقت به وتعلق بها ..

ثالثـا : الحكمـــــــة

اعتـــاد الناس صـــدور الحكمة من كبـــار السن ، المجربين ، الذين خبروا الناس والحياة ، فكانت حكمهم نتيجة طبيعية لتجاربهم وخبراتهم ·

أما حين تصـــدر الحكمة عن شـــاب فى العشرين فهـــذا أمر يثير الدهشة والعجب · إذ ما خبرته ؟ ، وما تجربته ؟ وعم تصـــدر حكمه ؟

لكن من يقرأ حيـــاة طرفة منذ صغره يلاحظ أمرين :

١ ـــ أنه قـــد وقع عليـــه من الهموم والمصائب ما جعل يومه شهرا ، وشهره سنة · فالعشرون التى عاشها مضاعفة أضعافا كثيرة ·

٢ ـــ انه قـــد ظهر عليه منذ صغره أمارات النبوغ ، وسمات النباهة ، ومخايل الذكاء ، وتمثل ذلك فى :

(أ) شـــعره الذى قالـــه ـــ وهـــو صغير جـــدا ـــ فى رحلة صيد القنـــــــابر ·

(ب) شعره الذى قالـــه يعاتب ويهـــدد ويتوعـــد أقـــاربه الذين أكلـــوا حقـــه وحـــق إخـــوته ·

(جـ) انتقاده للمتلمس بقوله ـــ وهو غلام ـــ : « استنوق الجمل » ، وفى إحـــدى رواياتها ان المتلمس غضب ، ونظرا إلى لسان طرفة وقال : ويل لهـــذا من هـــذا ، يعنى رأسه من لسانه ·

وحين نقرأ شعره وهـــو صغير نجـــد ان الحكمة تنساب على لسانه انسيابا وهاك دليـــلا على ما أقـــول ··

يقـول طرفة فى شـعره الذى قالـه — وهـو صغير — لأعمامه ، واجمع الرواة على أنه أول شـعر قالـه (٤٧) :

قـد يبعث الأمر العظيم صغيره
حتى تظـل لـه الدماء تصـبب
والظـلم فـرق بين حيى وائـل
بكـر تسـاقيها المنـايا تغلـب
قـد يورد الظـلم المبين آجنـا
ملحـا يخالط بالذعـاف ويقشب
والصـدق يألفـه اللبيب المرتجى
والـكذب يألفـه الـدنى الأخيب
ادوا الحقوق تفر لـكم اعراضكم
إن الـكريم إذا يحرب يغضـب

أو ليست الحكمة تنساب انسيابا هنـا على لسان غـلام لا يعرف التصـنع أو التـكلف !!

اهنـاك مراء فى أن ما ذكره هـذا الغلام حقائق !!

يقـول لهم : لـو لم نكن صغار السن ما تجراتم على ما فعلتم من اكل حـق « وردة » ، ولـو أن إخـوة وردة حضور لمـا فعلتم ٠٠

ولكن الا تدرون أنه قـد يثير هـؤلاء الصغار ما لا طاقة لكم به ؟

---

(٤٧) الديوان القصيدة الأولى ص ٢٣ آجن : ماء متغـير ٠ الذعـاف : السـم القـاتل ٠

ثم يتهمهم - بطـريق غير مباشر - بالغباء وأنهم لا يتعظـون ولا يعتبرون بما حـدث لبكر مع تغلب ، إنهما أخوان ، ولكن الظلم فرق بينهم ، فقتل الرجـل بيد أخيـه .. وهكذا الظلم عاقبته وخيمة ..

ثم يستدرك قائلا : ولكن يبـدو أن هؤلاء الناس طبعوا على الشر ، وجبلوا على الفساد ، ولا أمل فى إصلاحهم ..

كان ذلك الشعر مبشرا بشاعر حكيم ، تجرى الحكمـة على لسـانه طـواعية ، « والحكمة فى شـعره بنت تفكيره ومشاهداته وتأملاته فى أحـوال الناس والحياة ، يضمنها ما استقاه من مشاهداته ، وما حصـله من خبراته فى الحيـاة والأحياء ، وما اعتنقه من رأى ، وما ارتضـاه من مذهب فى الحيـاة »(٤٨) .

وكم الحكمة فى شـعر طرفة كبير ، بالإضافة إلى ما جاء فى معلقته كما سنذكره بعـد .

ومعظم حكمته منثورة فى كتب الأمثال العربية ، وجلها - إن لم تكن كلهـا - متسقة مـع تعاليم الإسـلام ومن ذلك قـوله فى قصـيدة كاملة(٤٩) .

من قال فى الناس قالوا فيه ما فيه
وحسبه ذاك من خـزى ويكفيـه

إن التكلـف داء لا دواء لـه
وكم ـف آمـن داء لا أداويه ؟

---

(٤٨) د/محمد على الهاشمى - طرفة بن العبد حياته وشعره ص ١٦٦ .
(٤٩) الديوان ص ٢٣٤ وهـو من القسم الثانى فى الديوان : الشـعر المنسوب إلى طرفـة .

إن الفتى ليس فى الأشياء يفضحه

إلا تكلفه ما ليس يعنيه

إن الصديق لأهل أن تواسيه

ولن يودك إلا من تواسيه

لن يعجب المرء إلا من يساعده

وكيف يعجبه من لا يواتيه ؟

لو فر من رزقه عبد إلى جبل

دون السماء لألقى رزقه فيه

لا يوجد الخير إلا فى معادنه

أو يجرى الماء إلا فى مجاريه

لن يرضك النكس إلا حين تسخطه

وليس يسخط إلا حين ترضيه

وفى الكلام كلام ما نطقت به

إلا ندمت عليه حين أبديه

وإن ندمت فإنى لست أرجعه

وكيف أرجعه والريح تذريه ؟

لا تظهر الأمر إلا حين تحكمه

وكيف يحكمه من ليس يخفيه ؟

من تم فى الناس لم تؤمن عقاربه

على الصديق ولم تؤمن أفاعيه

أدب وليدك وانظر من يجالسه

ما دمت تملكه أو من يماشيه

ابنى البناء ولا أدرى أأسكنه

أم لا ولكننى أرجو فأبنيه

وبعدها ثلاثة أبيات فى الموت تأتى فيما بعد .

ويلاحظ أن هذه الحكم تتردد معانيها على ألسنة الشعراء قديما وحديثا ، فضلا عن القرآن الكريم والحديث الشريف وأمثال العرب .

ففى القرآن الكريم : (**ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا**) ، (**ولا تقف ما ليس لك به علم ...**) ، (**وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها**) ، (**وفى السماء رزقكم وما توعدون**) .

وفى حديث الرسول الكريم (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه : لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه الله فى جوف بيته) . (ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) . ، (امسك عليك لسانك) ، (المرء بأصغريه : قلبه ولسانه) .

وقال ذو الإصبع العدوانى(٥٠) :

كل امرئ راجع يوما لشيمته

وإن تخلق أخلاقا إلى حين

---

(٥٠) المفضليات ١٦٠ .

وهـــو قريب من قـــول طرفـــة :

إن الفتى ليس فى الأشـــياء يفضحه
إلا تكلفـــه ما ليس يعنيـــــه

وفى أحاديث الإسراء والمعراج أنه — ﷺ — رأى حجرا صـــغيرا يخرج منه ثور كبير فيحاول أن يعـــود فلا يستطيع . فسأل جبريل فقال : هـــذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة فيحاول أن يرجعها فلا يستطيع » ، وفى المـــأثور : إذا أنت تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها .

عبر طرفـــة عن هـــذا المعنى قائلا :

وفى الكـــلام كـــلام ما نطقت به
إلا ندمت عليـــــه حـــــين أبديه
وإن ندمت فإنى لست أرجعـــــه
وكيـــف أرجعـــه والريح تذريه ؟

أرأيت إلى هـــذا التمثيل الرائع .. لقـــد شبه شيوع السر وتناقله بين النـــاس بشىء ذرته الريح فذهب فى كل مكان .. من يستطيع أن يجمع ما ذرته الريح ؟ لا أحـــد كائنـــا من كان . إنه لمستحيل .. والقرآن الكريم ضرب مثلا للحياة الدنيا الزائلة بمـــاء نزل من السماء فاختلط به به نبـــات الأرض وما لبث أن أصبح حطاما متبددا (**واضرب لهم مثـــل الحيـــاة الدنيا كمـــاء أنزلناه من السماء فاختلط به نبـــات الأرض فأصبح**

هشيما تذروه الرياح ٠٠٠)(٥١) وما أروع استخدام أسـلوب الاستفهام هنـــا !!

ومن المـــأثور : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » وهـــو ما عبر عنــه بقــوله :

لا تظهر الأمر إلا حــين تحكمه

وكيــف يحكمه من ليس يخفيــه ؟

هكذا بأسلوب الاستفهام أيضا ٠

وما أروع قــوله :

من تم فى الناس لم تؤمن عقاربه

على الصديق ولم تؤمن أفاعيــه

أرأيت إلى هــذه العقارب والأفاعى التى لا تؤمن على من كمــل — إن كان هنـــاك كامل — ٠ فهم يتربصـــون به الدوائر ، ويدبرون لــه المــكائد ويتمنون لــه المصائب حسدا من عند أنفسهم ٠٠ وهكذا يكون الكامل — فى نظر الناس — هــدفا لأحقادهم ، ومرمى لمكائدهم ٠

وقالوا : إذا أكرمت اللئيم تمــردا ٠٠

وطرفة يقــول ما معنـــاه : عليــك أن تهين اللئيم وتحتقره فإنك آنئذ تزجى إليـــه خيرا ، إذ توقفه عند حــده ، فلا يتمـــادى فى شره وباطله ، فى حين أنك إذا أكرمته فإن ذلك يكون وبالا عليك ، إذ يتمادى ويكثر شره ٠٠

---

(٥١) ســـورة الكهــف آية ٤٥ ١ ٠

وقال ﷺ : « الناس معادن .... » .

وقال طرفة :

لا يوجد الخير إلا فى معادنه

أو يجرى الماء إلا فى مجاريه

يقول : إن الخير لا ينتظر إلا من أهل الخير الذين طابت أرومتهم ، وعزت جرثومتهم ، تماما مثل الماء الصافى الذى لا يوجد إلا فى أماكنه .

ويلاحظ أن طرفة يؤكد ما يقول إما بالمؤكدات المعروفة (إن) .. وإما بدليل يؤكد صدقه ، وأحيانا يجمع بين الأمرين كما فى الأبيات السابقة التى بدئت بـ (إن) وختمت باستفهام ..

وفى هذه الأبيات ورد أسلوب الاستفهام خمس مرات يدعم بها ما يقول ويؤكده .

فهو يأتى بحقيقة لامراء فيها ، ويسأل :

. . . .   وكيف آمن داء لا أداويه ؟

. . . .   وكيف أرجعه والريح تذريه ؟

. . . .   وكيف يحكمه من ليس يخفيه ؟

. . . .   او يجزى الماء إلا فى محاربه ؟

الخ ما قال ..

وقال طرفة فى معرض هجائه لصهره :

واعلم علما ليس بالظن انه

إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

وإن لسان المرء ما لم تكن لبه

حصاة على عوراته لدليل

وإن امرأ لم يعف يوما فكاهة

لمن لم يرد سوءا بها لجهول

إذا قلت فاعلم ما تقول ولا تقل

وانت عم لم تدر كيف تقول

تعارف أرواح الرجال إذا التقوا

فمنهم عدو يتقى وخليل

وكائن ترى من يلمعى محظرب

وليس له عند العزائم جول

ومن مرتعن فى الرجال مواكل

وهو بسدل المعضلات نبيل(*)

ومجىء هذه الحكم عقب هجاء طرفة لابن عمه وصهره تنبىء عن عاطفة صادقة ، وعن أن هذه الحكم جاءت نتيجة تجربة عاشها الشاعر .

يقول طرفة : إن الإنسان يكون عزيزا بابن عمه ، ويقوى به ، فإذا ذل ابن عمه ضعف وذل .

وإن اللسان ليكشف عن مساوىء صاحبه ، فإذا لم يكن وراء اللسان عقل كشف العورات ، وأبان عن السوءات .

كما قالوا : « لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء

(*) الديوان ١٢٠ وما بعدها .

لسانه » منسوبا إلى على كرمه الله وجهه . والمرء بأصغريه : قلبه ولسانه(٥٢) .

وعلى المرء أن يميز بين الجد والمزح ، فربما صدرت مزحة ونقلت على أنها جد ، فكانت عاقبتها وخيمة ، كما حدث من طرفة حين مزح فنقل صهره ذلك على أنه جد فكان ما كان . ومن لم يميز بين الجد والهزل فهو جهول .

وتمضى فى قراءة الابيات فتجد معنى حديث الرسول - ﷺ - :

« الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .. وهو ما قاله المتنبى :

أصادق نفس المرء من قبل علمه

وأعرفها من فعله والتكلم

ويقول طرفة :

وكائن ترى من يلمعى محظرب

وليس له عند العزائم جول

اى لا يغرنك المظهر ، ولا يخدعنك الكلام .. فكم من أناس لكثرة كلامهم ، وقوة أجسامهم يبدو أذكياء أشداء ، لكنك حين تخبرهم عند الشدائد تفاجأ بأنهم لا عقل لهم ولا عزيمة ..

فى حين أنك قد ترى شخصا تظن فيه الكسل والتواكل والتراخى

---

(٥٢) وفى العامية : « سلامة الإنسان فى حلاوة اللسان » ، وقالوا : « حلاوة اللسان عز بلا رجال » راجع أمثال تيمور ١٨٦ ، ٢٧٣ .

لكنـــك عند الشدائد تجـبـده ماهرا فى إصلاح المفاسد ، عاقـــلا يستطيع حـــل الأزمات ..

قـــــــال :

ومن ‌ذرتعـــن فى الرجال مواكل

وهـــو بســـمل المعضـــلات نبيـــل

وقـــال طرفـــة (٥٣) :

إذا قل ماء الوجـــه قل حياؤه

ولا خير فى وجه إذا قل ماؤه

حياؤك فاحفظـــه عليـــك فإنمـــا

يدل على وجـــه الكريم حيـــاؤه

ويظهر عيب المرء فى الناس بخله

ويســـتره عنهم جميعا ســـــخاؤه

تغط بأســـباب الســـخاء فإننـــى

أرى كل عيب والسخاء غطـــاؤه

ولن يهـــلك الإنسان إلا إذا أتى

من الأمر ما لم يرضـــه نصحاؤه

وأوجـــز إذا ما قلت قـــولا فإنه

إذا قـــل قول المرء قـــل خطاؤه

---

(٥٣) الديـــوان ص ١٥٨ وما بعـــدها .

وقارن إذا قارنت حـرا فإنمـا
يزيـن ويزرى بالفـتى قـرناؤه

وجالس رجال الفضل والبر والتقى
فـزين الفتى فى قـومه جلساؤه

إذا قل مال المـرء قل بهـاؤه
وضـاقت عليـه أرضـه وسـماؤه

واصبح لا يدرى وان كان حازما
اقـدامه خير لـه أم وراؤه

ولم يمش فى وجه من الارض واسع
من النـاس إلا ضـاق عنـه فضاؤه

فإن غاب لم يشفق عليـه صـديقه
وإن آب لم يفـرح به أصـفياؤه

وإن مات لم يفقـد ولى ذهـابه
وإن عاش لم يسرر صـديقا لقـاؤه

إذا تم عقـل المـرء تمت أموره
وتمـت أياديه وطـاب ثنـاؤه

وإن لم يكـن عقـل تبين نقصـه
وإن كان مفضالا كثيرا عطـاؤه

إذا قل مال المـرء قل صـديقه
ولم يحل فى قلب الخليل إخاؤه

إذا قل مال المرء لم يرض عقـله
بنـوه ولم يغضب لـه أوليـاؤه

واصبح مردودا عليه كلامه

وإن كان منطيقا قليلا خطاؤه

إذا المرء لم يغسل من اللؤم عرضه

ولم ينقه لم يغن عنه بهاؤه

وإن هو لم يطلب صديقا لنفسه

فناد به فى الناس : هذا جزاؤه

فكم من صاحب قد كان لى غير منصف

إذا جاءه فضلى اتانى جفاؤه

سريع توليه ، بطىء رجوعه

كثير تجنيه ، قليل وفاؤه

إذا ما استوى أمرى يعوج أمره

واعوج أحيانا فيبدو استواؤه

يقول إذا ما قلت : «لا» قال لى : «بلى»

مخالفة فى كل شىء أشاؤه

أرى الداء يشفيه الدواء وإننى

ارى الحمق داء ليس يرجى شفاؤه

إذا ما تعنى المرء فى أمر حاجة

وأنجح لم يثقل عليه عناؤه

وأبياته فى المال وقلته — أو الفقر عموما — نابعة من تجربة عاشها ..

وهذه الحكم درر غالية ، وهى تتناول الحياء ، البخل ،

الثرثرة ، تخير الأصدقاء والجلساء ، ومعاملة الناس للفقير ٠٠٠ الخ ٠
ولكنك تشعر أن خللا قد أصاب ترتيب الأبيات ، فقوله :

إذا تم عقل المرء ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ والبيت الذى يليه أقحما وسط الأبيات التى تتحدث عن معاملة الناس للفقير ٠

على كل فأبياته فى هذا الموضوع حقائق نلمسها فى حياتنا اليومية ٠

قال عروة بن الورد (٥٤) :

دعينى للغنى اسعى فإنى
رأيت الناس شرهم الفقير

وأدناهم وأهونهم عليهم
وإن أمسى له حب وخير ٠٠٠ الخ

وقال الشاعر :

إن الغنى وإن تكلم بالخطا
قالوا : اصبت وصدقوا ما قال

وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم
أخطأت يا هذا وقلت ضلالا

إن الدراهم فى المجالس كلها
تكسو الرجال مهابة وجلالا

---

(٥٤) ديوان عروة بن الورد ص ٩١ والروائع ـ د/يوسف خليف ص ٤٨٩ ٠

فهى اللسان لمن أراد فصاحة

وهى السنان لمن أراد قتالا

وقال آخر :

يمشى الفقير وكل شىء ضده

والناس تغلق دونه أبوابها

وتراه ممقوتا وليس بمذنب

ويرى العداوة لا يرى أسبابها

حتى الكلاب إذا رأت رجل الغنى

حنت إليه وحركت أذنابها

وإذا رأت يوما فقيرا ماشيا

نبحت عليه وكشرت أنيابها(٥٥)

وفى أمثلتنا الشعبية ما يؤكد ذلك(٥٦) .

---

(٥٥) راجع المستطرف للأبشيهى ٤٣/٢ ط دار الفكر .

(٥٦) ففى العامية المصرية : « بفلوسه الحلوة يكلم أبوه على العلوة »

أى أن الغنى يكلم الناس من عل ولو كان المخاطب أباه ..

فيرضى الناس ذلك منه لتعودهم تعظيم الغنى .

ومن أمثالهم : « الدراهم مراهم تخلى للعويل مقدار ، وبعد ما

كان بكر سموه الحاج بكر » .

وقالوا : المال يسود غير السيد ، ويقوى غير الأيد .

وقال الشاعر :

=

وهـــذا الميزان يخالف الميزان الإســـلامى : (**إن أكرمكم عند الله أتقـــــاكم**) •

وإن كنا لا نغفل ما للفقر من آثار سيئة كما أسلفنا •

إن طرفـــة عانى من الفقر ، وعانى الحـــرمان ، وهـــو يحـــدثك حـــديث المجرب الخبير •

إن الإنسان إذا قـــل ماله تضيق عليـــه الدنيا بمـــا فيها ، وأصبح قلقـــا مترددا حيران لا يستطيع أن يفكر بطريقة سليمة ••

ثم ، إن للفقر خطره على الجانب الفكرى للإنسان أيضـــا ، فكيف يستطيع أن يفكر الفقير تفكيرا سليما دقيقـــا وهـــو لا يجـــد ضرورات الحيـــاة وحاجاتها لنفسه وأهله وولده !!

ولـــذا قال محمد بن الحسن الشيبانى — حين أخبرته جارية فى مجلسة أن الدقيـــق نفـــد — : قاتلك الله ، لقـــد أضعت من رأسى أربعين مسألة من مسائل الفقه •• وقال أبوحنيفة رضى الله عنه : لا تستشر من

الفقر يزرى بأقـــوام ذوى حسب
وقـــد يسود غير السيد المسأل

راجع : الأمثال العـــامية — تيمور ص ٢١٠ •

ليس فى بيته دقيــق » أى لأنه مشتت الفكر ، مشغول البال ، فلا يكون حكمــه ســديدا (٥٧) ٠

وهو عند أصدقائه لا وزن لــه ولا قيمة ، إن غاب لا يسألون عنه ، وإن عاد لم يعبــأوا برجوعه ٠ وإن مات لا يحسون بفقده ، وإن عاش لا تسر حياته صــديقا ولا حبيبا ٠ حياته وموته ، غيابه وحضوره سواء ٠

وهــو فى نظر الناس لا عقــل لــه حتى فى نظر بنيه ، وإن أهين لم يغضب لــه أوليــاؤه ٠٠ وكلامه فاســد ، ورأيه ساقط ، حتى ولــو كان أفصــح النــاس لسانا ٠

وإن المظهر ليس دليــلا على المخبر ، وعلى المرء أن يحبب الناس فيــه ٠ ويقول : لقــد كان حظى سيئا فى أصــدقائى ، الذين قابلــوا إخلاصى ومعروفى بالنكران والجحود والغــدر ، والصــلة بالقطيعة ، والإحسان بالإســاءة ٠ إنهم غادرون ، قلمــا وفــوا ٠ يخالفوننى ولــو كنت مصيبا ، لا لشىء إلا من أجــل المخالفة ٠

إن لكل داء دواء ولكن الحمق لا دواء لــه ٠٠٠

وقـــــــوله :

وقارن إذا قارنت حــرا فإنمــا

يزيــن ويــزرى بالفتى قــرناؤه

وجالس رجال الفضــل والبر والتقى

فــزين الفتى فى قــومه جلســاؤه

---

(٥٧) راجع : مشكلة الفقر — ص ١٤ للدكتور القرضاوى — وقد استشهد ببيتى طرفـــة ٠

هـو كقولهم : « من ذا الذى يخفى عليـك إذا نظرت إلى قرينه » ؟

وقـولهم : « الأخ مرآة أخيـه » .

ومن أمثال الميدانى : « يظن بالمرء مثل ما يظن بقرينه » .

وقـول القـائل :

إن كنت تبغى العـلم أو أهـله

أو شـاهدا يخبر عـن غائب

فاختـبر الأرضـ بأسمائهـا

واعتبر الصـاحب بالصـاحب

وقـول الآخـر :

فلا تصحب أخـا الجهل وإياك وإياه

فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه

يقـاس المرء بالمرء إذا هـو ما شاه

وللشىء من الشىء مقاييس وأشباه

ولطرفـة بيت قريب من ذلك :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فـكل قـرين بالمقـارن يقتـدى

ولا يخفى ما فى الإسـلام من حث على تخير الأصـدقاء والجلساء ومن ذلك قـول الرسول ـ ﷺ ـ : « لا تصاحب إلا مؤمنـا ولا يأكـل طعـامك إلا تقى » .

وفى الواقـع الذى نعيشه نرى ذلك كله ، وكم ترددت فى الجرائم

اليومية كلـــة « أصـــدقاء السوء » ولا سيما فى إدمان المخـــدرات وما تجر إليـــه من جـــرائم ٠

وحث الرســـول على مجالسة اهـــل الفضل والبر ٠٠ وحـــذر من مجالسة اهـــل السوء « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافـــخ الكير ٠٠ الحـــديث » ٠

وقـــول طرفـــة :

واوجـــز إذا ما قلت قـــولا فإنه
إذا قل قول المـــرء قل خطاؤه

حقيقة أيضا ٠ فكثرة الكلام توقـــع فى الخطـــأ ٠ وقـــد قالوا : « من كثر كـــلامه كثر خطـــأه » ٠

* * *

رابعــا : الحيـــاة والمـــوت

تقرأ الشعر الجاهلى فتظن أن حيــاة الجاهليين كانت كلهــا لهوا ومتعة ، وفرحا ونشوة ، وغنـــاء وطربا ، وصـــيدا وتسـلية ، وشرابا وســكرا حتى لــو كان فى السكر تطرف ٠

ولكن العجيب أنهم يخلطون بين المتعــة والفناء ، ولـــذا كان « من ابرز الصور التى يقــدمها الشــعر الجاهلى للحيــاة — فى ظــل أفكار الجاهلية عن الفناء — تلك الصور التى سماها أهــل الجاهلية بطـــالة الصبا أو باطله ، وهى تصور الحياة مترعة بأنواع اللذاذة كالمرأة والخمر والصــيد والغناء والميسر وما إلى ذلك »(٥٨) ٠

يقـــول امرؤ القيس(٥٩) :

تمتـــع من الدنيـــا فإنك فانى
من النشـــوات والنساء الحســان
من البيض كالآرام والأدم كالدمى
حـــواصنها والمبرقات الـــروانى

وقال الحـــارث بن ظالم(٦٠) :

اعزفـــا لى بلـــذة قينتيـــا
قبـــل أن يبــكر المنـــون عليـــا

---

(٥٨) الحيـــاة والموت فى الشعر الجاهلى ص ١٩٤ ٠
(٥٩) ديوانه ٠ ص ٨٧ ، ٨٨ بتحقيق أبى الفضل — ط دار المعارف — الثالثـــة ٠
(٦٠) الأغـــانى (دار) ١١/١٢٢ ٠

قبل أن يبكر العواذل إنى
كنت قدما لأمرهن عصيا
ما أبالى أراشدا فاصبحانى
حسبتنى عواذلى أم غويا
بعد ألا أصر لله إثما
فى حياتى ولا أخون صفيا
من سلاف كأنها دم ظبى
فى زجاج تخاله رازقيا

« والشاعر فى هذه النماذج كلها شاب مندفع بعنفوان صباه إلى حياة لاهية وفى ذهنه عن الفناء فكرتان ملحتان :

أولاهما : أن الموت لا مفر منه ، وهذا يلغى كل اعتبارات الحذر والحيطة لما تأتى به الأيام من حاجة ، فالنهاية لا يمكن أن يتلافاها غنى بغناه ، أو راشد بما يصطنع من الرشاد ....

والفكرة الأخرى : هى أن الموت قد يكون قريبا ، بل قد يكون غدا ، وهذا يدفع إلى اغتنام غفلات الدهر والمبادرة إلى التمتع بالحياة .... »(٦١) .

وهكذا كانت الحياة فى نظر الجاهليين فرصا ينبغى على العقلاء اغتنامها ، لأن الموت شاخص أمامهم ، وعوامل الفناء تلاحقهم وتتهددهم ، وهم يرون آثارها ظاهرة للعيان ..

(٦١) الحياة والموت ص ١٩٧ (بإيجاز وتصرف) .

« ولم تكن هـــذه الحياة التى يفخر بها الفتيان هى الحياة الطبيعية المعتادة لأهـــل الجاهلية فهى بطالة أو باطل ، وهى غى وضلال يسدر فيـــه الشباب ثم يصحو منه الرجل الناضج »(٦٢) ٠٠ يقول الأعشى :

وأقصرت عن ذكر البطالة والصبا
وكانت سفاها ضـــلة من ضـــلالكا

على انه إذا كان الخمر مباحا عند الجاهليين فإن إدمانه لم يكـــن مقبـــولا عندهم ، والمـــدمنون أنفسهم يعرفـــون ذلك ٠٠ فهـــذا الأعشى يقـــول(٦٣) :

وما كــــان ذلك إلا الصـــــبا
وإلا عقـــاب امرىء قـــــد أثم

إنه المعنى الذى يردده الصالحـــون إذ يقولون : هـــذه الأعضاء من حفظها فى الصغر حفظها الله عليـــه فى الكبر ٠

ويلاحظ أن الذين تصـــدر عنهم الحكم فى الحيـــاة والموت كبـــار طاعنون فى السن كلبيد وزهير ، والنمر بن تولب ، والمرقش الأكبر ، والنابغـــة الجعـــدى وغيرهم(٦٤) ٠

ومعظمهم يشكو من العجز فى الهرم ، وندرة الصـــديق ٠٠ يقـــول لبيـــد(٦٥) :

---

(٦٢) الحيـــاة والموت فى الشـــعر الجاهلى ص ٢٢٧ ٠

(٦٣) ديـــوانه ص ٣٥ ٠

(٦٤) راجع نماذج لذلك فى كتاب الحيـــاة والموت فى الشعر الجاهلى ص ٢٤٠ وما بعـــدها ٠

(٦٥) مختار الشعر الجاهلى ٤١٧/٢ ، أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ٨٠ ٠

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم

وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وزهير يقول(٦٦) :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ، ومن تخطىء يعمر فيهرم

ولبيد يقول(٦٧) :

ولقد سئمت من الحياة وطولها

وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟

وقال أبو زبيد(٦٨) :

إن طول الحياة غير سعود

وضلال تأميل عيش الخلود

ومعلوم ان طرفة قتل — أو مات — صغيرا ، إلا انه عاش كثيرا ، فما لقيه من محن ومآس — فضلا عن نباهته وذكائه — جعلته يتأمل فى الحياة وأحوالها ، ويرى الموت شاخصا أمامه فى كل لحظة ، بل يتعقبه ‥ وحبه للحياة وتعلقه بها جعله يخشى الموت ‥

يقول(٦٩) :

أبنى البناء ولا أدرى أأسكنه

أم لا ؟ ولكننى أرجو فأبنيه

من كان فى سفر فالموت صاحبه

او كان فى حضر فالموت يأتيه

---

(٦٦) المعلقة .

(٦٧) ديوانه ص ٣٥ .

(٦٨) شعر أبى زبيد ص ٤٢ .

(٦٩) الديوان ص ٢٣٧ .

وإن مضى خمسة فالموت سادسهم

وإن مضى واحد فالموت ثانيه

من مات لم يرعه أهل ولا ولد

وكيف يحفظه من لم يرثيه

أرأيت كيف كان الموت مصاحبا لطرفة ؟ وهو كذلك لكل إنسان ، إلا أن طرفة لأنه عاش غريبا فقد رآه مصاحبا له رغم حداثة سنه ٠٠ وطرفة — لأنه اكتوى بنيران نسيان أهله له وهو حي — يقول فما بالي حين أموت ٠٠ !! إن الموت حينئذ يعفى على آثارى ٠٠ فهكذا الناس ينسون الأموات الأباعد والأقارب ٠

ومن المأثور (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) ، بل حث الرسول الكريم على عمل الخير حتى ولو تيقن من قيام الساعة « إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها » ٠

وقال طرفة (٧٠) :

ولئن بنيت إلى المشقرفى

هضب تقصر دونه العصم

لتنقبن عنى المنية إ

ن الله ليس لحكمه حكم

لم تعتذر منها مدافع ذى

ضال ولا عقب ولا الزخم

---

(٧٠) الديوان ص ٢٣١ ٠

يقـول : إن الإنسان ولـو تحصـن بالجبـال الحمر فإن المـوت سيدركه ، والموت يلاحـق الإنسان ، لأنه أمر الله وحكمه .. وحكم الله لا راد لـه . كما قال القرآن (**أينما تكونوا يدركـكم الموت ولـو كنتم في بروج مشيدة**)(٧١) .

وقـال طـرفة(٧٢) :

إن التبـالى فى الحيـاة ولا

تغنى نوائـب ماجـد عـذره

ومعلوم أن ابن آدم إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث — بنص حديث الرسـول — ويقول طرفة : على المرء — ما دام قـد علم ذلك — أن يقـدم لنفسه كما قال القـائل :

دقـات قلب المـرء قائلة لـه

إن الحيـاة دقـائق وثـوانى

فاعمل لنفسك قبـل موتك ذكرها

فالذكـر للإنسـان عمـر ثانى

وقـال طرفـة :

ولقـد بدالى أنـه سـيغولنى

ما غال عادا والقرون فاشـعبوا

وهـذا البيت من أول ما قال من شـعر ، فهو من مقطوعته التى يطالب فيها بحـق وردة .

---

(٧١) الآية ٧٨ من سـورة النسـاء .

(٧٢) الديـوان ص ٩٩ التبالى : الاختبار . العـذر : الاعتذارات .

إنه يقول : الموت هــو النهاية الحتمية للإنسان ، عاش ما عاش ، وعمر ما عمر فإنه هالك لا محالــة كما هلك السابقون ، عاد والقرون ·

وهــو بهــذا البيت « يلمس وجــدان أعماقه لمسة عميقة بأن الحياة مؤقتة زائلة ، وأنه سيهلكهم ما أهلك عادا والقرون الأولى ، إذ شعبتهم المنية جميعا ، وفرقت جمعهم تفريقــا لا رجعــة بعــده »(٧٣) ·

ويقـــول(٧٤) :

فكيف يرجى المرء دهرا مخلــدا
واعمالــه عمــا قليــل تحاسـبه

ألم تر « لقمان بن عــاد » تتابعت
عليه النسور ثم غابت كواكبــه !!

وللصعب أسباب تجــل خطوبها
أقــام زمــانا ثم بانت مطالبــه

إنه يعجب ممن يرجــون خلودا فى الدنيــا ، ويضرب لهم أمثلة ممن عمروا طويلا ·· فهــذا « لقمــان بن عاد » طال عمره حتى بلــغ عمر سبعة نسور كان آخرها « لبــدا » الذى ذكره النابغــة فى قــوله :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذى أخنى على لبــد

وبعــد ذلك كلــه مات ·

وهــذا « ذو القرنين » الذى كان ملــكا ، لــه جيش خطير لا يهزم

---

(٧٣) د/محمد على الهاشمى ١٦٨ ·
(٧٤) الديــوان ١٦٣ ، ١٦٤ ·

ولا يعرف القلعة ، وكانت كتائبه تجوب الأرض أينما شاءت ٠٠٠ ماذا كان مصيره ؟ وما نهايته ؟ ٠٠ إنه الموت ٠

وهكذا ، لا يفرق الموت بين عزيز وذليل ، أو غنى وفقير ، أو جبار وعادل ، الكل حتما ميت ٠

يقول(٧٥) :

أرى الموت لا يرعى على ذى جلالة

وأن كان فى الدنيا عزيزا بمقعد

لعمرك ما أدرى وإنى لواجل

أفى اليوم إقدام المنية أو غد

لعمرك ما الأيام إلا معارة

فما اسطعت من معروفها فتزود

وقال(٧٦) :

أرقت لهم أسهرتنى طوارقه

وساعدنى دمعى ففاضت سوابقه

وبت أرعى النجم لا أطعم الكرى

كأنى أسير طائر القلب خافقه

يعالج أغلال الحديد مكبلا

وقد عدن بيضا كالثغام مفارقه

---

(٧٥) الديوان ١٧٧ ٠

(٧٦) الديوان ٢١٨ وما بعدها ٠

ولم ابك طيفـا زار وهنـا خيـاله
ولا شاك خلفى الخدر كنت اعانقه
ولا شـاقنى ربـع خـلا من أنيسه
فاضـحت به آرامـه وزقازقـه
ولا خلت أضـغاثا فبـت مسـهدا
لأن الفتى ما عاش فالله رازقـه
ولكن دهـرا ضـاق بعـد اتساعه
وجاءت أمور وسـعتها مضـائقه

وإنمـا ذكرت هـذه الأبيات ليتبين لنـا كيف صنعت هـذه الحكم فى بوتقـة مجرب ، خبير ، ولنشير هنـا إلى واقعية طرفة وماديته . وكيف كان صـادقا إلى أبعـد مدى ..

إنه مهموم ، يبيت يراعى النجم ، ولم يذق طعم النـوم ، وكيف ينـام حزين مهموم ، يخفق قلبه كانه أسير ، خائف ، مضطرب ؟! . وإنه لمقيد بالأغـلال والقيود ، وطال قيـده حتى شاب شعره .

وانى لمثل هـذا بالتفكير فى حب امرأة يبكى طيفها ، أو يزوره خيالها ؟! ... ولم يكن حزنه لربع صار خاليا من أنيسه ، وسكنته الوحوش والطيـور والحشرات . ولا أرق وخاصمه النـوم بسبب أضغاث احلام أزعجته فبـات مسهدا .. فهـو موقن بان الأرزاق بيـد الله ..

إذا .. ما الذي أحزنه وأرقـه وأقلقـه وسهده ؟

يجيب :

ولكن دهــرا ضــاق بعــد اتساعه

وجاءت أمور وسعتها مضـــائقه

لقــد قلب الدهر له ظهر المجن ، وضاقت الدنيا به بعــد اتساعها ، وأظلمت فى وجهــه ٠

وقــوله (وجاءت أمور) هكذا منكرة مجموعة تبين عظم وهــول ما نزل به ٠

ثم أخــذ يصف أخــلاق بعض الناس بعــد ذهاب ذوى العقــل والرأى والخير والحكمة ٠٠ ويقــول : لا خير فى دهر خلا من هؤلاء ٠٠

مضى سلف أهل الحجا منه والتقى

ولا خير فى دهــر تولت غرانقــه

فلم يبــق إلا شــامت بمصــيبة

وذو حســد ما نستقيم طرائقــه

عــدو صــديق عابس متبســـم

يعــاملنى بالمــكر حــين أوافقــه

يجــــاملنى جهــرا إذا ما لقيته

وفى الصدر ما تهدى هــديرا شقاشقه

إذا ما رأى الدنيــــا على تهللت

بإقبالهـــا يوما صــفت لى خلائقــه

وإن آل خطب أو ألمــت مخــلة

أوصــله فيها بدت لى صــواعقه

ومــن بنابيــه علــى تغيظـــا

وصــعد أنفاســا كــأنى خانقـــه

وعين الفتى تنبى بمــا فى ضمــيره

وتعرفــه باللحظ حـــين تناطقــه

هؤلاء هم الباقــون : الشامتون والحاســدون ، الذين يفرحــون بمصائب النــاس ، ويحسدونهم إذا ما آتاهم الله من فضله ..

وأولئــك الذين يبتسمون ابتسامة صفراء وقــلوبهم ممتلئة بالغــل والبغضاء ، وهؤلاء إذا ما رأوك فى نعمة توددوا إليــك وتقربوا منك ، وأظهروا لك الحب والإخــلاص ..

وإن اصابتك مصيبة فرحــوا وولــوا الأدبار .. فإن طلبت منهم العــون والمساعدة ظهروا على حقيقتهم ، وكشروا عن أنيابهم .

إن هؤلاء ليسوا بخــافين على ذوى الألبــاب ، وقــد وصــفهم القرآن فى آيات كثيرة .. فقال تعالى فيهم :

(إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقــولوا قــد أخــذنا أمرنا من قبــل ويتولوا وهم فرحــون)(٧٧) .

(ومن الأعــراب من يتخــذ ما ينفـــق مغــــرما ويتربص بكم الــدوائر ..)(٧٨) .

(أشــحة عليكم فإذا جاء الخــوف رأيتهم ينظرون إليــك تدور أعينهم كالذى يغشى عليــه من الموت فإذا ذهب الخــوف سلقوكم بألسنة

---

(٧٧) ســورة التــوبة آية (٥٠) .
(٧٨) ســورة التــوبة ٩٨ .

حـــداد أشحة على الخير أولئـــك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ٠ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبـــائكم ولـــو كانوا فيكم ما قاتلـــوا إلا قليـــلا) (٧٩) ٠

(الذين يتربصون بكم فإن كان لـــكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للـــكافرين نصـــيب قالـــوا ألم نستحوذ عليـــكم ونمنعـــكم من المؤمنين ٠٠٠٠) (٨٠) ٠

ولـــذا كانوا في الدرك الأسفل من النار ٠

وطرفـــة أخـــذ على عاتقه البعـــد عن هـــؤلاء الأشرار ، والإعراض عنهم ، ومقاطعتهم كل المقاطعة ٠

« وهـــو يكشف عن التزام بالنموذج الأمثل ، وعن تمرد على كل ما من شأنه أن يشين صاحبه ٠ والشاعر في صرفه لنفسه عن هـــوى كل غادر وإعراضـــه عن أخلاقـــه ومعارضته لـــه إنمـــا يضـــع نفسه على الطريق الصحيح وصـــولا إلى تحقيق المثل الأعلى الذي ينشده ، وكلمـــا كان ذلك المثل إنسانا اقترب من صـــفة العلو التي تتجاوز العصر » (٨١) ٠

وأما رفقـــاؤه وجلساؤه وأصـــدقاؤه فمن أهـــل الفضـــل والدين ٠٠ أي السيرة الحميدة والخلق الفاضـــل الكريم ٠٠٠ أما أولئـــك الذين قلوبهم كقلوب الذئاب الضـــاريات تتمنى افتراســـك ، ولكنهم ينطقـــون بكلام

---

(٧٩) ســـورة الأحزاب الآيتان ١٩ ، ٢٠ ٠

(٨٠) ســـورة النســـاء ١٤٣ ٠

(٨١) النفس في الشعر الجاهلي ص ٨٢ ، ٨٣ ٠

معسول فهؤلاء سيرغب عنهم ولن يصحبهم ، فطبعهم يخالف طبعه .

ساصرف نفسى عن هـــوى كل غـــادر

واعرض عن اخلاقــه واخارقــه

واجعل اهــل الدين أهــل مودتى

ليعلم أهل الفضل من أنا واثقــه

وأما رجـــال نافقـــوا فى إخـــائهم

ولست إذا أحببت حـــرا أنافقــــه

قلوب الذئاب الضـــاريات قلـــوبهم

والسنهم أحلى الـــذى أنت ذائقـــه

فلست إليهـــم ما حييت براغب

ولا خير فى حب امرىء لا تطابقه

لقـــد ضاقت الدنيا بطرفـــة إذا لندرة هـــؤلاء الأوفياء المخلصين ، وإذا كان « لبيد » قـــد ضاق بالدنيا حين هرم ، ومات اترابه ، فتغيرت طباع الناس ، وأحس أنه كالبعير الأجرب بين هـــؤلاء ، إذ إن أخلاقهم وصفاتهم لا توافـــق صفاته ، ولا اخلاقـــه فقال :

ذهب الـــذين يعاش فى اكنـــافهم

وبقيت فى خلـــف كجلـــد الأجرب

فهـــو معـــذور ، لأن أصـــدقاءه ماتوا ، وخلف من بعـــدهم خلف يحمل صفات أخرى .

أما طرفـــة فلم يكبر ولم يهـــرم ومـــع ذلك ندر الصـــديق ، وقل الوفى ، ولـــذا ضاق ذرعا بأخـــلاق من حـــوله ...

ويتحدث عن الدنيا ويرى أن حب الدنيا والاغترار بها وبزخارفها الباطلة سبب الفساد فى كل شىء ، إذ تعمى القلوب ، وتكثر الهموم . والعاقل هو من هانت عليه الدنيا وكان قانعا راضيا بما قسم له :

ومن هانت الدنيا عليه فإننى
ضمين له أن لا تنم خلائقه

ومن كابد الدنيا فقد طال همه
ومن عف واستغنى رأى ما يوافقه

نعم ، إن طالب الدنيا منهوم لا يشبع ، كما قال الرسول — ﷺ — « لو أعطى لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » .

وقال : « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » فمهما حصل طالب الدنيا فإنه يبتغى المزيد ، ويزداد نهمه ، فيظل فى هم دائم .

ثم يقول :

ومن حارب الأيام طاشت سهامه
ومن أمن المكروه فالدهر عائقه

إذا المرء لم يبذل من الود مثلما
بذلت له فاعلم بأنى مفارقه

وما قد بناه الله تم بناؤه
وما قد بناه الظلم فالله ماحقه

ولابد من صوب وشيك وآجل
فحيث يكون المرء فالموت لاحقه

خذوها ذوى الالباب احكم نسجها
وصنفها مستحكم القـول صـادقه

ويقول : إن الصـداقة الحقيقية والإخاء يقومان على تبـادل الحب والوفـاء والبـذل والتفانى فى خـدمة الصـديق .. أما أولئـكم الذين يأخـذون ولا يعطون فلابد من مفارقتهم وقطع صحبتهم .

وإن بنيان الحـق والخير والعـدل متين قـوى ، أما بنيان الظلم والشر فسرعان ما ينهار إذ هـو مؤسس على شـفا جرف هار .

(أفمن أسس بنيانه على تقـوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شـفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم) (٨٢) .

والمرء ميت إن عاجلا أو آجلا ، والموت مدركه لا محالة .

أى : فابنـوا بنيان خير وحـق وعـدل واعملوا لهـذا اليوم .

ويختم قصـيدته بقـوله :

خـذوها ذوى الألبـاب .. البيت

أى هـذه النصائح والحـكم إنمـا هى صادرة عن مجرب خبير بفنـون القول ، عاش وجرب وهـو صادق فيما يقول .

وقـال(٨٣) :

صباح الفتى ينعى إليـه شـبابه
ومـا زال ينعـاه إليـه مسـاؤه

---

(٨٢) سـورة التـوبة آية ١٠٩ .

(٨٣) الديـوان ص ١٥٧ .

ويبكي على الموتى ويترك نفسه

ويزعم أن قد قل عنهم غناؤه

ولو كان ذا عقل وحزم لنفسه

لطال بلا شك عليها بكاؤه

نعم ، إن كل يوم يمر من حياة الإنسان يقربه من أجله ، وفي الأثر : ما من يوم ينشق فجره إلا ويقول يا ابن آدم انا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمني فرصة فإني لا أعود إلى يوم القيامة » .

وعلى العاقل إذا ما رأى ميتا أن يبكي على نفسه ولا يشغل عنها ببكاء الغير ، وأن ينتهز ما بقي من حياته ولا يضيعه سدى .

وطرفة لا يتطير أو يتشاءم ، لأنه إنسان واقعي ولذا ينصح من عزم على أمر من الأمور أن يمضيه ، ولا يتردد أو يتوانى في إنفاذه .. وهو معنى حديث الرسول — ﷺ — .

(... واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك —) وأنه لا يغني حذر من قدر .

يقول طرفة (٨٤) :

إذا ما أردت الأمر فامض لوجهه

وخل الهوينى جانبا متنابيا

ولا يمنعنك الطير مما أردته

فقد خط في الألواح ما كنت لاقيا

---

(٨٤) الديوان ص ٢٣٨ .

« ومن شــعر طرفــة تتبين انه كان مؤمنا بالقضاء والقــدر فى جميع أحــواله ، فخلقه بإرادة الله ، وفقره قضاء الله ، وما نزل به كان يرجعه إلى قــدر الله ، ورزقــه قــد ضمنه الله ، وما تطير ، ولا تشاءم بشىء ، .... ولم يصــدق ضاربات الحصى ، ولا زاجرات الطير ، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ، ولا يستطيع من يضرب الحصى ، أو يزجر الطير أن يعرف ما قــدره الله وقضــاه »(٨٥) ٠

يقــــول(٨٦) :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله فاعـــل

ويقــول للعقــاب(٨٧) :

وعجــزاء دفت بالجنـــاح كأمهـــا
مــع الصبح شيخ فى بجاد مقنع
فلـــن تمنعى رزقـــا لعبـــد يريده
وهـــل يعـــدون بؤساك ما يتوقـــع

أى : لن أتشاءم بك ، لأنك لا تمنعين رزقا أو تقــدمين أجلا ٠

وهنـــاك حــكم غير هـــذه متناثرة فى ديوانه ، ومن لم يعـــرف

---

(٨٥) د/على الجندى ــ الديوان ص ٢٦٩ ٠

(٨٦) الديـــوان ٢٢٨ ٠

(٨٧) ص ٢١٤ ٠ عجزاء : عقـــاب صغيرة الذنب ٠ دفت بالجنـــاح : ضربت به وتبخترت ٠ البجاد : الكساء المخطط ٠ مقنـــع : متغش به ٠ يعـــدون : يتعـــدى ٠ بؤســـاك : بؤســـك ٠ ما يتوقـــع : ما ينتظر ٠

قائلها يتوهم أنهـــا صادرة عن « شيخ مجرب ، عركته الحياة ، وحلب أشـــطره الدهـــر ...

« إنهـــا حكم ناضجة من شاب حـــدث ، تدل على عقـــل حصيف ، وفـــكر نير ، أكبر من عمره الزمني . وجمـــال هـــذه الحكمة بصـــدقها الشعوري ، ذلك أن طرفة لم يطلقها فكرة ذهنية باردة باهتة . بل غمسها بحوضـــه النفسي المتأجج بحميا الانفعال ، وبخاصـــة حينما كان يقـــد الحكمة تعقيبا على الفكرة التي يعالجها وتعليقا ، فتأتي متوهجة حارة ، قريبة من النفوس ، لصيقة بالقلوب ، لا يعـــوزها وضـــوح ، ولا يؤودها تعقيـــد .

« وقـــد صاغها طرفـــة بأسلوب سمح طلق مأنوس ، لا وعـــورة فيـــه ولا حوشي ولا غـــريب ، بل فيـــه السبك البديع ، وفيـــه المـــاء والرونق والطلاوة ، تنبعث منه الموسيقى متئدة رزينة ، شجية الإيقـــاع ، منسربة من اللفظ الكريم الفصيح .... »(٨٨) .

وما كانت تلك الحكم والتأملات في الحيـــاة لتصـــدر عن طرفـــة لـــو لم يتمرد ويغترب ويعاني ...

* * *

---

(٨٨) د/محمد علي الهاشمي : طرفـــة حياته وشعره ص ١٦٩ .

الفصل الثاني

أصداء التمرد في المعلقة

تمهيـــــــــد

لمـــا كانت معلقة طرفـــة غرة شعره ، وبهـــا اشتهر ، آثرت أن آتى بهـــا آخرا ، دون تقطيع أو تجزىء — لأنها وحـــدة متكاملة ، فضـــلا عن أن التمرد وأصـــداءه واضحان فيها وضوحا شـــديدا منذ المطلع .

وقبـــل أن ناخـــذ فى تفصيل ذلك نلقى ضـــوءا على مكانة المعلقة :

مـــع أن طرفة أحـــدث شعراء المعلقات سنا ، وأقلهم عمرا ، إلا أن معلقته أطـــول المعلقات ، إذ هى مائة وثمانية ، أو مائة وخمسة ، أو مائة واثنـــان .

وحين ننظر فى ترتيبها عند الشراح نجـــد أنها تأتى ثانية ، بعـــد معلقـــة امرىء القيس ..

فهـــل كان ذلك الترتيب مقصودا ليبين مكانة المعلقـــة ؟ أم أن هناك تشابها بين المعلقتين ؟

والجـــــواب :

أما أن مكانتها كبيرة عند النقاد فهـــذا ممـــا لا شك فيه :

* فهـــذا ابن ســـلام الجمحى يقـــول(١) :

وأما طرفة فأشـــعر الناس واحـــدة وهى قـــوله :

لخـــولة أطـــلال ببرقـــة ثهمـــــد
وقفت بها أبكى وأبكى إلى الغـــد

---

(١) طبقات الشعراء ٤٩ ، ٥٠ ط دار الكتب العلمية بيروت .

وتليهـا اخرى مثلهـا وهى :

اصحوت اليوم ام شـاقتك هـر

ومن الحـب جنـون مسـتعر

ومن بعـد لـه قصائد حسان جيـاد ٠

* وقـال ابن قتيبـة(٢) :

هـو أجـودهم طويلة ، وهـو القائل :

لخـولة اطـلال ببرقـة ثهمـد

. . . . البيت

ولـه بعـدها شـعر حسن ...

ونقـل ابن قتيبة عن أبى عبيدة قـوله :

طرفـة أجـودهم واحـدة ..

* وسئل حسان : من أشـعر الناس ؟ فقال :

. . . . وأما اشـعرهم قصيدة فطرفة ٠

* وسئل جرير ـ كذلك ـ فقال(٣) : أشعرهم الذى يقول :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا . . . .

والذين شـهدوا لطرفة بالفحولة ، واقروا لـه بالنبوغ إنمـا كان نصب اعينهم قصيدتاه : المعلقـة ، وهـر ٠

* قال أبو عمـرو بن العـلاء(٤) :

---

(٢) الشـعر والشـعراء ١/١٩٠ ٠

(٣) الأغانى (دار) ٨/٥٣ ، ١٩٩ ٠

(٤) شرح شواهد المغنى ٢٧٢ ٠

لم نجـد احـدا من الشعراء تعجـل فى حـداثة السن إلا طرفة ، فإنه قال الشعر حـدثا ، وشهر فى سنوات ، وقتل وهـو ابن بضـع وعشرين سـنة ٠٠٠٠

* وقال صـاحب الجمهرة(٥) :

هـو اشعرهم إذ بلغ بحـداثة سنه ما بلغ القـوم فى طول اعمارهم فخب وركض معهم ٠

اما الذين صرحـوا بان طرفة ياتى بعـد امرىء القيس شـاعرية فمنهم :

* لبيد بن ربيعـة ، الذى سئل عن أشعر الشعراء فقال(٦) :

الملك الضليل ، ثم الغلام القتيل ، ثم الشيخ أبو عقيل — اى لبيد ٠

* وقـال البغـدادى(٧) :

هـو أشعرهم بعـد امرىء القيس ، ومرتبته ثانى مرتبة ، ولهـذا ثنى بمعلقتـه ٠

ومن النقـاد المحـدثين قال الدكتور بدوى طبانة — بعـد أن ذكر مقطوعته فى تحـذير أعمامه لظلمهم وردة(٨) :

« وهـذه معالم شـاعرية ناضجة فى مثل هـذه السن المبكرة ، ممـا يجعل هـذا الشاعر أجـدر الشعراء أن يلقب بالنابغة ، لا أولئـك

---

(٥) الجمهـرة ٤١ ٠

(٦) الشعر والشعراء ٨٩ ، العمـدة ١/٩٥ والجمهرة ٢٠ ٠

(٧) خـزانة الأدب ١/٤١٤ ٠

(٨) معلقـات العـرب ص ١١٢ ٠

الذين عرف الناس شعرهم بعــد ان جاوزوا عصر الشباب ، وبعــد أن طال تمرسهم بهــذا الفن ، وبعــد أن نضجت ملكاتهم ، واتسعت دائرة تجاربهم فى الحيــاة والفن .

هــذا عن مكانة المعلقــة عند النقــاد ..

أما من حيث التشابه بين معلقتى امرىء القيس وطرفة فتلك حقيقة كما سنبين بعــد إن شــاء الله .

* * *

التمـــــرد واصـــــداؤه فى المعلقـــــة

بين اليـــأس والأمل والعمـــل

١ — اليـــــأس :

قـــال طرفـــة :

١ — لخولة أطلال ببرقة ثهمـــد
تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

٢ — وقوفا بها صحبى على مطيهم
يقـــولون : لا تهـــلك أسى وتجلـــد

وقـــد روى ابن الأنبارى البيت الأول هكذا :

. . . . ظللت بها أبكى وأبكى إلى الغد

اتفـــق الشراح القـــدماء على أن طرفة وقف على أطـــلال حبيبته « خـــولة » وهى امرأة من كلب ·· وأن أطـــلالها بمكان يسمى « برقـــة ثهمـــد » · وطرفة فى ذلك ليس بدعا من الشعراء الجاهليين الذين كان وقوفهم هـــذا وبكاؤهم تقليـــدا لا غير ، وأن هـــذا قالب جامد ودائرة ضيقة دار الشعراء فى إطارها ····

ونحـــن نتساءل : هـــل « خـــولة » هـــذه امرأة حقيقية أحبهـــا طرفة فعلا ؟ ليس فى شـــعر طرفة ما يدل على أنه أحب امرأة وكان بينهما لقـــاءات ، أو أنه تغزل فيها غزلا ينبىء عن أنها امرأة بعينها · ولم يكن عند طرفـــة من راحة البال والأمن والطمأنينة ما يســـاعده على ذلك ، فالهموم تحيط به من كل جانب ، والموت شاخص أمامه ··

وقــد ذهب أحــد الباحثين إلى : أن « خــولة » فى الشعر الجاهلى ترمز إلى ســيدة الــزرع ، وما يتبــع هــذا الــزرع من حيــاة الغنى واليسار ... فالغيث يظــل ينهل على دارها فى الربيــع والصيف .

ومن هــذا الرمز نستطيع أن نفهم « خــولة » فى معلقة طرفــة ، فهــو يشبه ناقته بتشبيهات حضرية ، ويقيم الحكمة فيها على الموازنة بين الغنى والفقير ، . ويصــور فيها الحياة اللاهية التى يحياها ابن القرى مــع الراح والقيــان »(٩) .

ولم يكن الوقوف على الأطلال تقليدا ، ولا دورانا فى دائرة ضيقة ، وإنمــا كان هــذا الحكم سطحيا ظلم به الشعر الجاهلى . والحقيقة أن الشعر — عموما — ليس بهــذه السطحية والسذاجة .

إن الشاعر الجاهلى « يوم يقف على الأطلال لا يذكر من أين أتى ، ولا كيف وصــل ، ولكنه يفجأ المرء بهــذه الوقفة على الطلل .. وهــو لا يتحــدث عن هــذه الوقفة بضمير الغائب ، بل يتحــدث عنها بضمير المتكلم ، فهو — وحــده — الذى سقط فى هــذا المكان ، وهــو وحــده الذى يبكى على الطلل ، وإذا كان معه صاحب أو صاحبان أو صحب فهــو غريب عنهم ، وهم غرباء عن الطلل ، فلاهم لهم — إذا وجــدوا — إلا أن يسألوه التجلــد والصبر »(١٠) .

وطرفــة — هنا — هــو الباكى وحــده ، وظل يبكى يومه وغده ، وأصحابه يواسونه فقط ، ويهــدئون من روعه :

---

(٩) الصورة الفنية د/نصرت عبد الرحمن ص ١٥٤ .
(١٠) نفســـه ١٢٨ .

وقــوفا بهــا صحبى على مطيهم

يقــولون لا تهــلك أسى وتجلــد

إنه فى الهم وحــده ، لا يكتوى بالنار ســواه ٠

إن « فى نسيج الوجــود خيطين : خيط الحيــاة وخيط الموت ، والحيــاة والموت ســداة الوجــود ولحمته ٠٠

« وفى الطلل حاول الشعراء الجاهليون أن يظهروا الخيطين معا ، فظهر القلق من الموت ، أو الفناء ٠٠ فقــد رحــل الإنسان الذى نصب الأثافى ، وطهــا الطعام ، ورحــل ساكنو البيت ، ورحــل راكب البحر ، ورحل الذى زرع النخل ٠ ومن القلق يتولد البكاء ، ولــذا بدا البكاء على الطلل بكاء إنسان قلق يحس بعمق أن الفناء يتربص به ٠٠٠٠٠ »(١١) ٠

إن اليأس العميق يسيطر على الشاعر إذ يرى عــوامل الزمن وقــد فعلت بالديار ما فعلت ٠٠

ثم هــذه الأطلال لمن ؟ إنها لامرأة ٠٠ قــد يقال : وماذا فى ذلك ؟

إن فى ذلك الكثير ، يتضــح حين نعــرف مكانة المرأة فى نظــر الجــاهلى ٠٠

إن الشاعر الجاهلى كان ينظر إلى المرأة بعين التقــدير والاحترام ٠٠ بل وربمــا « التقــديس » ٠٠

« وإلا فلمــاذا صورت رحلة الظعن بأزهى حللها ، وكامل زينتها ، مــع أن ذلك يجرى فى ذكرى الطلل ، والطلل يقترن بالحزن لأنه فراق ،

---

(١١) نفســـه ١٦٢ ٠

فهـل يا ترى يسعد شاعر وهـو يفارق صاحبته !! لابد أن يكون وراء تلك الأبهـة شىء آخر يتصل باعتقاده . فإذا دققنا النظر نعرف أن هـذه المرأة هى الشمس نفسها ، وأن رحلتها رحلة إلى العودة »(١٢) .

ومن هنـا تأتى رحلة الظعن تالية للوقـوف على الأطلال فتثير جانبـا من الذكريات الحلوة لدى الشاعر ، ويتحقق لـه نوع من الاستقرار النفسى بعد الحزن والأسى والقلق ... لأن المرأة التى خلفت — برحيلها — دمارا ستحل فى مكان آخر تنبعث فيـه الحياة .

وإننا لنلاحظ الإيجاز فى هـذا المطلع ، فهـل « اكتفى طرفـة بالتصـوير السريع لأنه كان يدخر قـواه الداخلية لبث شكاته النفسية العميقة بعـد ؟ ..

أم أنه كان يستشعر قصر العمر واقتراب الأجـل فكانت معانيـه الخاطفة المتلاحقة صورة عن حياته المتوثبة القصيرة ؟ »(١٣) .

نعم . إن المطلع يدل على نفسية الشاعر ، وهـو هنا قلق ، حائر ، متعجل ، الموت يتربص به ، إنه ممسك بالإنسان محيط برقبته ، مثـله مثل لجام الفرس .. إن طرفـة كان يشعر بدنو أجله ، وقصر عمره ، وقـد جاء مطلعـه معبرا — بإيجازه — عن ذلك .

فكيف يتسنى لنـا بعـد ذلك أن نقـول إنه يقف على أطـلال الحبيبة خـولة ، المرأة التى شغف بها ... الخ ؟ .

---

(١٢) الأسـاطير — د/أحمد كمال زكى ص ٨٣ .

(١٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام د/شكرى فيصل ص ٧٥ .

وهــذا صــدى من أصــداء التمرد لأن الشاعر الذى لا تفنى ذاته فى شخصية القبيلة ، ليس كشعراء القبائل الذين يقفون وقــوفا طويلا ، لأنهم خلو من الهموم ، وينعمون بالأمن فى ظــل القبيلة .

والشاعر حين يقف على الأطلال أمام هــذه الصم الصــلاب « يرى نفسه حائرا أمامها .. إن أهــل الدار القــدماء كانوا يشغلون الشــاعر أحيــانا عن هــذه العناصر ، فلمــا رحلوا تكشفت هــذه المــادة التى علقت بأعماق ذهنه . ولم يكن الاحتمال أو الفراق إذن إلا حــدثا يعرى أو يكشف المستور من مشكلات عقــل الشاعر ... »(١٤) .

بيد أن الشاعر أمام هــذا اليأس والخراب والدمار « يجاهــد من أجــل إعادة بنــاء الأشياء .. إنه يريد منذ البداية أن يلم شمل بلاده فيما يشبه عقــد الملكية ، تحــدد فيه الحــدود بذكر المواضع والأماكن على وجــه الدقــة بحيث ترى كل المواقــع فى الجزيرة ملكا ليمينه .

الشعراء وحــدهم القادرون فى شــعرهم على أن يجعلوا الــكل فى واحــد ، والخراب نعيما مقبلا .

إن الشاعر حين يقف على الديار يقف وقفة مملوءة بالعناصر الإيجابية تؤكد قــدرته على مواجهة قــدره ، وتجاوز ضعفه .

كان الوقوف على الأطــلال كما لاحظ « فالتربراونه » يحمل طابع الإيجابية ، إذ سرعان ما يعــود الشاعر إلى الحياة ، وفى حالات كثيرة يعبر عن استصغاره لهــذه القضايا الوجودية بأن يقول : دع ذا . . . .

---

(١٤) صوت الشاعر القــديم ص ٢٠ (بتصرف يسير) .

« فهم يشبهون ما بقى من آثار الديار « بالوشم » ٠٠ والوشم لـه طابع الرقية عند العربى ، ولا نتردد فى أن نقـول : طابع السـحر ٠٠ الديار دائـما وشم مجـدد ، والوشم فيـه لون الخضرة ، وكانت العرب تقـول : أوشمت الفتاة إذا بدا ثديها ينتأ ، وتقـول : أوشمت السماء إذا بدا فيها البرق ، وأوشمت الأرض إذا بدأ نباتها يظهر ، والوشمة : قطرة المطر ٠ الوشم خصب ، والشاعر بإلحاحه عليـه يستخرج هـذا الخصب من الغيب برقية يجعل فيها الصحراء الجرداء بساطا من الخضرة فى حال من التجـدد ٠٠ »(١٥) ٠

وكذلك حين يشبهون ما بقى من آثار الديار بخط الكتاب وما شاكله ، أوهى كـكتاب مفتوح « ويأخـذ هـذا الرمز قيمته فى شعر الشاعر إذا كنـا على يقين من أن الكتابة عند العرب فى جاهليتهم لم تكن منتشرة انتشارا عاما ، كانت الكتابة عندهم الشىء النادر ، فهى وقف على الكهان والسحرة ٠ يقـول الدكتور مصطفى ناصف : « الكتابة ذاكرة الإنسـان وماضيه ، فالكتابة مجـددة لا تزول وكذلك المـاضى لا يزول ٠ المـاضى زمن ذو طابع متناقض يقف الإنسان أمامه عاجزا ٠٠٠ »(١٦) ٠

أضف إلى ذلك ما يذكر فى الشعر الجاهلى من وجـود ظباء وآرام

---

(١٥) د/السيد فضل : الشعر الجاهلى وقضية التفسير ص ٣٦ ، ٣٧ ٠
(١٦) نفسه ص ٤٠ ، وقرءاة ثانية لشعرنا القـديم د/مصطفى ناصـف ص ٦٠ ٠

ونعام وغير ذلك فى هـــذه المقـــدمة الطللية ٠٠ وكلها عناصر إيجابيـــة فيها الحيـــاة وفيها النمـــاء ٠٠٠ الخ ٠

إننى أوافـــق النقاد والباحثين الذين ذهبـــوا إلى أن سيدة الطلل هى الشمس عند الجاهليين ٠٠٠ والشعراء يبكون على الطلل ويتذللون أو يبكون على الشمس التى رحلت فادى رحيلها إلى خراب الديار وإقفارها ، فمـــا من امرأة حقيقية تقفر ديار قـــومها إذا ما رحلت ، ولكنها الشمس التى كان يقـــدسها الجاهليون هى التى يؤدى رحيلها إلى إقفار الديار ٠ فالشس رمز الخصب عند الإنسان(١٧) ٠

« ورحلة المرأة فى الشعر الجاهلى هى رحـــلة الشمس كل يوم ، ورحلتها فى الصيف والخريف والشتاء والربيع ٠ ولا ندرى أن كان العرب فى الجاهلية يعتقدون ان الشمس تركب ناقـــة أو سفينة ٠٠ »(١٨) ٠

وســـوف يأتى ذكر لذلك فى الصفحات التالية :

وصـــف الظعن والارتحـــال :

٣ ـــ كأن حدوج المـــالكية غـــدوة

خـــلايا ســـفين بالنواصف من دد

٤ ـــ عدولية أو من ســـفين ابن يامن

يجور بهـــا المـــلاح طورا ويهتدى

---

(١٧) راجع : الصورة الفنية د/نصرت عبد الرحمن ص ١٢٧ ، الأساطير د/أحمـــد كمـــال زكى ٠

(١٨) الصورة الفنية ص ١٣٢ ٠٠ معلوم أن الفراعنة كانوا يعتقدون ذلك وقـــد اكتشفت فى مصر مراكب الشمس وهى موضوعة بجـــوار الهـــرم الأكبر ٠٠

٥ ــ يشق حباب المــاء حيزومها بها

كما قسم الترب المفــايل باليــد

بعــد أن وقف الشاعر على الأطلال أخــذ يصف الظعن والارتحال كعادة الشــعراء الجاهليين .

والعجيب أن الشــعراء يصفون الظعائن والحــدوج أوصــافا تدل على أن المرأة الظاعنة ســعيدة وليست حزينة ، إن المرأة وهى راحــلة متزينة بأبهى حللها ، وكامل زينتها ، وهى متضمخة بالطيب ...

أما القــوم فيخرجون من ديارهم تظللهم سحابة من الحزن ، قــد رثت ثيابهم وخلقت ، بخلاف موكب المرأة ..

فهــل هان الوطــن على العــرب الجاهليين حتى يفارقــوه وهم ســعداء ؟ أو يرحلوا عنه كأنهم ذاهبون إلى عرس ؟ وإذا كان الوطــن رخيصا إلى هــذا الحــد فلم وقف الشاعر على الأطلال ؟ ولم بكى عليها وهى خراب ؟(١٩) .

« لقد صورت المرأة فى رحلة الظعن بأبهى حللها وكامل زينتها مع أن ذلك يجرى فى ذكرى الطلل ، والطلل يقترن بالحزن لأنه فراق ، فهــل ترى يسعد شــاعر وهــو يفارق صاحبته ؟ لابد أن يكون وراء تلك الأبهة شىء آخر يتصــل باعتقاده ، فإذا دققنا النظر نعرف أن هــذه المرأة هى الشمس نفسها ، وأن رحلتها رحلة إلى عودة ، بل هى ترحــل إلى ينابيع المــاء ، ولقــد تطوف ما تطوف ثم تحط رحالها عند المــاء »(٢٠) .

---

(١٩) راجع : الصورة الفنية ــ د/نصرت عبد الرحمن ص ١٢٨ ــ ١٣١ .
(٢٠) الأســاطير د/أحمــد كمال زكى ص ٨٣ ، ٨٤ .

وطرفـــة يشبه الحـــدوج بالسفن العظـــام ، ويشبه شـــق السفينة المـــاء بشق المفـــايل التراب ٠٠ وهنا ملاحظات :

الأولى :

فى دوافـــع شـــك الدكتور « طـــه حسين » فى الشـــعر الجاهلى واستدلاله على انتحاله ذكر أن الشعر الجاهلى لم يصـــور الحياة الجاهلية ولا البيئة الجاهلية ، وقال : « ومن عجيب الأمر أنا لا نكاد نجـــد فى الشعر الجاهلى ذكر البحر أو الإشارة إليـــه ، فإذا ذكر فذكر يدل على الجهـــل لا أكثر ولا أقـــل » (٢١) ٠

وأبيات طرفة هـــذه التى ذكر فيها البحر والسفن التى معها قوارب صغيرة (الخلايا) وتحـــديد ملاح شهير (ابن يامن) ومكان شـــــهير بصناعة السفن (عـــدولى) ٠٠ كل ذلك يثبت أن الشعر الجاهلى لم يغفل ذكر البحر وصـــلة العربى به ، ولم يكن طرفـــة هـــو الوحيد الذى ذكر البحر ، بل ورد عند غيره أيضـــا ٠

لكن الملاحظ أن حـــديث الجاهليين عن المفازة والصحراء والفـــلاة أكثر وأعمـــق من حـــديثهم عن البحر ٠ بل إنك تلاحظ أنهم مفتـــونون بالفلاة ، فلمـــاذا ؟

إن الشاعر الجاهلى « مفتون بعالم أصم ، وكان مفتونا بالأصوات التى تشبه الصرير لأنها لا تفصح ، وكان مفتونا بالهـــوادج ، لأنها مغطاة بالثياب والأستار ٠ كان كل بعيد مستور فاتنا لـــه ، وكان يجد فى مظاهر

---

(٢١) فى الأدب الجاهلى ص ٧٧ — ٧٩ ٠

الغطـــاء أو النقاب صورة من مشكلات عقـــله ٠٠٠ » ٠

« وكانت الصحراء فى خيـــال الشاعر القـــديم أجل مـــا يبدو أمام قارىء حـــديث متعجل مشغول بالرحلة ذاتها ٠٠ وكان اقتحام الصحراء ضربا من تطهر النفس من مشاعر أقرب إلى الاستسلام وقبول ما كان ، كان الشاعر القـــديم يجـــد متعـــة فى الشعور بالوحـــدة والوحشة ، وكان يرى لنفسه وقـــارا إذا أحاطت به الصـــحراء من كل جانب ٠ وكان يرى مجاهـــدة الصحراء فريضـــة واجبة لمن شغلتهم المودة عن كثير من مقومات النفس ٠٠٠٠ »(٢٢) ٠

الثانيـــة :

يلفت النظر فى أبيات طرفة هـــذه الجمع بين المتناقضات ، بين الصحراء والمـــاء ، بين أمواج الرمل وأمواج البحر ٠٠

« وكأنمـــا انصرف طرفـــة إلى المـــاء ، إلى النواصف من دد ، وإلى ســـفن ابن يامن ، وإلى المـــلاح فى عرض البحر يهتدى ويجور ، وإلى الحباب يشقه الحيزوم ، وكأنمـــا نسى الصحراء أو غفـــل عنها ، ثم لم يلبث أن ارتد إليها : ردته طبيعته الأصيلة فجمعت وجوده النفسى والمـــادى فى هـــذا التشبيه ٠

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ كما قسم الترب المفايل باليـــد

ولم يكن طرفة هـــو الوحيد الذى وقـــع على هـــذه المفارقة ، ولكن هنـــاك غيره ، كالمثقب الذى قال :

---

(٢٢) صـــوت الشاعر القـــديم ص ٣٠ ٠

يشـــبهن السـفين وهـن بخت
عراضـــات الأباهـر والشـؤون

لكنـه لم يبلغ ما بلغـه طرفة ..

وإن مثل هـذه المقارنة والمفارقة بين المـاء والصحراء ، بين الترب والموج ، بين المفايل والمـلاح .. تعبير صريح عن الغنى الداخلى فى نفس طرفة انعكس فى هـذا الصنيع الفنى ..

ولكن طرفة لم يطـل القـول فى ذلك ، إنمـا آثر أن يطيـل فى وصـف ناقتـه »(٢٣) .

لقـد كان طرفة متوزعا بين الخـوف والأمل ، بين الرغبـة فى الحيـاة والخـوف من الموت .

الثالثـة :

إن صـدى الاغتراب والتمرد واضـح كل الوضوح فى هـذا الجمع بين المتناقضات من ناحية ، وروح المغامرة من ناحية أخرى ..

وتظهر روح المغامرة فى لعبة « المفايلة » التى هى شبيهة بالمقامرة ، وكلتاهما مغامرة ، وطرفة يهـوى المغامرات .

« لقـد كان طرفة مفتونا بالحياة — أينما كانت — ومن هنا نجـد غزلـه شركة بين جمال الأنثى وجمال الطبيعة ، وتتوالى صور كلتيهما مشرقة زاهية : السفن الضخمة ، المـلاحون ... إلخ .. والشاعر مفتون بهـذا الجمال — الأنثوى والطبيعى — على حـد سـواء ، ولكن هـذه

---

(٢٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص ١٤٥ — ١٤٦ (بتصرف يســير) .

الفتنة ليست ضريرة أو غبية ... إنها ضرب من العشق ، والعشق مغامرة ، وفى المغامرة خيبة ونجاح ، هجر ووصل ، رشاد وضلال ٠

« ولن نتعب كثيرا حين نلمس آصرة النسب بين هذه المغامرة وهذه الرحلة البحرية — والرحلة مغامرة أيضا — التى يجور ملاحها حينا ويهتدى حينا آخر ٠

كلتاهما مغامرة شائقة — الفتنة والرحلة — فيها الخوف وفيها الأمل ، ويتلهى المغامرون عادة بأى شىء ، أى شىء يقطعون به الوقت ، وينسون به هموم الطريق »(٢٤) ٠

والسفن — وهى تشق البحر — ، والملاح — وهو يجور حينا ويهتدى حينا آخر — والمفايل — وهو يشق التراب شقا — كل هذه ليست بعيدة الصلة بنفس طرفة ٠

« لقد وضعت السفن والملاح جميعا فى إطار لا يخلو من المرح ، ووضعت فكرة الغد التى سيرجع إليها طرفة آخر الأمر فى إطار المفايلة ، ومغزى ذلك أن طرفة هنا لا يعيا بالمستقبل ، ويستطيع أن يقسم الترب لا يخلط بعضه ببعض ، ولا يجور بعضه على بعض ، ولا يروعه ما يحتويه الترب فى داخله ٠ وإنما يتصور طرفة نفسه سابحا كالسفينة يشق طريقه فى الحياة أو الفكر لا يجد فى ذلك عنتا كثيرا ، ولا يصخب صخب الحائر الذى أضنته الحيرة ٠

« ولم يستطع طرفة — برغم هذا كله — أن يزعم أنه يعرف

---

(٢٤) الرحلة فى القصيدة الجاهلية د/وهب رومية ص ٢٩٥ ٠

الطريق . كل ما استطاع ان يثبته هو شيء آخر . طرفة بجور آنا ويهتدى آنا . وهو يتوزع بين الجور والهدى ، يتوزع بين عالمين ، ولكنه يحلم حلما غريبا . يريد أن يجرب الخطأ والصواب دون أن يشقى هذا الشقاء المظلم البائس الذى يعوقه عن الأمل وشيء من التحرر والثقة »(٢٥) .

الرابعة :

وهى ملاحظة ليست خاصة بأبيات طرفة فحسب ، بل تشمل كل الشعر الجاهلى فى حديثه عن الظعن .. إن رحلة الظعن تثير عددا من الأسئلة — فضلا عما تقدم — :

أليس عجيبا أن تمضى هذه الرحلة دون خطر ، فلا يهاجمها الصعاليك ولا يتعرض لها اللصوص أبدا ، ولا تلقاها الوحوش ، ولا تضل الطريق أبدا ... !!!

أليس غريبا — كذلك — أن تخلو هذه الرحلة من الحداة من الرجال ، فلا يشهدها إلا رجل واحد على بعد وهو الشاعر ؟ !!

أليس غريبا ألا يتوقف الشعراء وقفة تذكر أمام إبل الظعائن على اهتمامهم الشديد واللافت بوصف النياق !!

أليس غريبا أن ينتقل الشاعر من الطلل إلى الظعائن إلا أن يكون هذا الانتقال الفجائى يشبه دهشة من يأمل أن ينال شيئا فيرى ما تمنى ماثلا أمامه دفعة واحدة !!

---

(٢٥) صوت الشاعر القديم ص ٢١٦ .

وإن القــوم ليشكون الجــدب ويبكون ويستبكون ، والنسوة يمضين في مواكب أسطورية يجللهن البهــاء والرونق .. فهناك ألوان زاهية ، وعطور ، وذهب ، وزبرجــد ، ولــؤلــؤ ، وستائر حريرية ، يتركــن وراءهن من فتات العهن ما يشبه الزهــور ، أليس ذلك تأكيدا لهـــذا المعنى الشعائرى الذى يقول : إذا كان ثم دمار فهنا هــو الخصب والنماء مستمر مــع موكب الظعن ، وما يتحول إليــه من رموز ، فهــو طــورا ســفينة وآنا نخيــلا . !!!(٢٦) .

ولا تزال الأسئلة تطرح نفسها وتتزايد حــول هــذه الرحلة ممــا يجعلنا نتوقف أمامها لنتعرف أسرارها ونكون أقرب إلى تفسيرها تفسيرا صـــحيحا .

٢ — الأمـــــل :

أشرنا — فيما مضى — إلى أن طرفة هلك وهو ابن عشرين أو تزيد قليلا ، معنى ذلك أن كل شعره قالــه فى شــبابه ، بل معظمه فى فترة المراهقــة ، وهــذه المرحلة — عادة — يكون الإكثار فيها من الغزل ، فالعاطفة حينئذ تكون مشتعلة متدفقة ، ومن هنا تكون غزارة الغزل المعبر عن هــذه العواطف .

لكن الذى نجــده فى شــعر طرفة لا يعبر عن حياة عادية ، إنمــا كان طرفــة يعيش مرحلة ســنية أكبر من حقيقة عمــره ، وأسباب ذلك فصــلناها .

---

(٢٦) راجــع : الشعر الجاهلى وقضية التفسير ص ٥٠ — ٥٢ .

وفى معلقة طرفة يأتى غزله قليلا يقول فيه :

٦ — وفى الحى أحوى ينفض المرد شادن
مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد

٧ — خذول تراعى ربربا بخميلة
تناول أطراف البرير وترتدى

٨ — وتبسم عن ألمى كأن منورا
تخلل حر الرمل دعص له ندى

٩ — سقته إياة الشمس إلا لثاته
أسف ولم تكدم عليه بإثمد

١٠ — ووجه كأن الشمس حلت رداءها
عليه نقى اللون لم يتخدد

قالوا : إنه يصف امرأة — هى حبيبته — فيشبهها بالظبى (أحوى) فى كحل العينين وسمرة الشفتين ، وهذا الظبى يرفع رأسه ليتناول ثمر الأراك (المرد) ، وهو (شادن) أى قوى واشتد حتى إنه يستطيع الاستغناء عن أمه ، وهو يلبس عقدين من لؤلؤ وزبرجد . وقالوا : إنه انتقل من موضوع الأطلال إلى موضوع الحبيبة الجميلة ...

ولكن الشعر ليس بهذه السذاجة ، وإنما يمكننا أن نتصور أن طرفة قد نظر إلى هذا الظبى الحر السعيد ، الذى لا يثقله ولا ينوء كاهله أنه تابع ، وإنما هو ينعم بالحرية ، لا يحد منها قيد ..

« نظر طرفة إلى الظبى السعيد الذى يأكل ثمر الأراك فجعله — آنا — مثلا لنفسه . ويظهر أن شجرة الأراك فى الشعر القديم شجرة

طبية فاضلة ، ويظهر أن الظبى لا يريد أن يقحم نفسه فيما لا قبل له به . ويظهر أن الظبى لا يتصور الأراك قد ناله شئ من السوء . ويظهر انه لا يشقى بفكرة الجوع » .

« ومضى طرفة يستحث خياله ، ويدفع عن نفسه الحزن ، فتصور فتاة تتقلد سمطين : أحدهما من لؤلؤ ، والثانى من زبرجد . فتاة لا تثقلها حركة ولا عبور ، ولا يعنيها هم واضح . فتاة رأت نفسها جميلة موهوبة ، ورأت فى اللؤلؤ والزبرجد صفاء النفس ونقاءها ، وخلوها من متاعب الدنيا وهموم الريب ومشقة العصيان »(٢٧) .

« إن شعراء الجاهلية يحرصون على إحياء الطلل ، فالظبية فى كلام طرفة عالم يتداخل فيه الطلل والحيوان الجميل ، والإنسان المحبوب ، وما ينبغى أن يخدعنا ما نسميه الانتقال »(٢٨) .

فإذا لم تكن هذه الظبى هى نفس طرفة فليست ببعيدة عنها ، أليس طرفة طامحا إلى الحرية ، استغنى عن القبيلة ، لا يريد أن يذكر ما كان من خروج أو نفى ، وهو الذى يرى نفسه الفتى الأوحد الفذ الذى لا يدانيه فتى فى القبيلة !!! فاسمع إليه وهو يقول بعد ذلك :

خذول تراعى ربربا بخميلة

تناول أطراف البربر وترتدى

قال القدماء : الخذول : « هى التى خذلت صواحبها وأقامت على ولدها ... » .

---

(٢٧) صوت الشاعر القديم ص ٢١٦ .

(٢٨) قراءة ثانية لشعرنا القديم د/مصطفى ناصف ص ٥٨ .

وطرفــة كذلك خــذل القبيلة وكــل ما فيها ، وانفــرد بنفسه ، وخــلا إليهــا ...

« راح طرفــة يمعن في صــور أخرى تشبع حاجته الشديدة إلى الصفو والسلام ، فتصور البقرة التي روعها الفقــد في بعض الشعر ترعى مــع صواحبها — وتتلفت بين وقت وآخر إلى وليدها . بقــرة ثرية الذات آمنة ، تجــد نفسها في ولدها وصاحباتها ، وتحقق لحظات من الحيــاة خالية من الكلفة والحزن .

« هــذه مثل النفس التي يطمح إليها طرفة في هــذا الجزء من القصـــيدة .

« ولنتأمل مرة أخرى طرفــة يتصور نفسه وقــد عالج فقــدا كامنا في عقله ، أو استطاع أن ينســـاه ، وأنه وجــد في بعض الصــديق ما يرتاح إليــه ، وتصور نفسه من خلال هــذا كله وليــدا كوليد البقرة ، يتطلع إلى الحياة لا يخاف شــيئا خــوفا ثقيلا ، ولا يحزنه شيء هــذا الحــزن الثقيــل »(٢٩) .

وتبســم عن ألمــى كــأن منــورا
تخلل حر الرمل دعص لــه ندى
ســـقته إياة الشمس إلا لثـــاته
أســف ولم تكدم عليــه بإثمــد

وقــد رأى النقــاد أن « أجمــل وصف لفم الفتاة وأسنــه وصف

---

(٢٩) صــوت الشاعر القــديم ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

طرفـــة بن العبد ، إذ جعل فتاته حين تبسم تظهر لثاتها السمر وأسنانها البيض اللامعـــة المتلألئة التى تشبه الأقحوان الذى ظهر زهره ونبت فى رملة حـــرة ندية القعر ، فظهر الأقحوان أبيض صافى اللون ، وقـــد سقت أشـــعة الشمس هـــذا الفم فبدت أسنانها براقـــة لامعة ، وظهرت لثاتها التى ذرت عليها الإثمـــد سمرا ، فاشتد لسمرتها بيـــاض الثغر ، وهـــذه المرأة حريصة على جمال أسنانها ، فلم تكدم بها عظما أو شـــيئا صلبا خـــوفا على أطرافها أن تنثلم ... »(٣٠) .

إن طرفة هنـــا يصور نفسه ، « فيتصورها أقحوانا منورا تخـــلل دعصه النـــوى ، وتصور نفسه كرمل الدعص الخالص النقى ، .. وتصور نفسه كالفتاة التى سقت ثغرها ضياء الشمس ، وخلعت الشمس رداءها عليـــه .. لنقـــل : إن طرفة أراد أن يقيم صـــلة جـــديدة بالشمس ، أراد أن يسطع الضوء على قلبه . وكما عاش الظبى والبقرة والفتاة فى هـــذا الحلم الرائع يعيش طرفة بعض الوقت »(٣١) .

« لقـــد غمر طرفة نفسه بجـــو من أحاسيس الطفولة البريئة من الخـــوف حين صور لعبـــة المفايلة .. فإذا اطمأنت نفسه — أو قاربت — استعار صورة وديعـــة أخرى لا تعرف الخوف من عالم الطفولة ، هى صورة الظبى الشادن ، وراح يتعهدها بالرعاية والحب . وهـــو حـــين يسترسل فى رسم لوحته هـــذه نعرف يقينا أنه يقص علينا حلمه الفضى

---

(٣٠) الزينة فى الشعر الجاهلى . د/يحيى الجبورى ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ دار القـــلم — الكويت .

(٣١) صـــوت الشاعر القـــديم ص ٢١٧ .

الجميل ، حلمه بحياة بريئة من الخــوف والهم ، عامرة بالحب والجمال ، مشرقة بالبهجة والنضارة .. »(٣٢) .

ونلاحظ أن طرفة ذكر الشمس مرة فى بيته السابق ثم عاد ليذكرها ثانية فى قــوله :

ووجه كأن الشمس حلت رداءها

عليــه نقى اللــون لم يتخــدد

فما دلالــة ذلك ؟ وما علاقــة الشمس بالمرأة ؟ . وما علاقــة الشمس بالغــــزال ؟

يقــول أحــد الباحثين :

« قــد بات من سقط المتاع القــول بأن وظيفة التشبيه فى الشــعر الجاهلى هى التزيين أو التوضيح ، فما الشاعر طاهيـــا يريد أن يزين ما يطهــو كى يلــذ للناس التقامه ، وما هــو بمعلم يفترض فى تلاميذه الغباء فيسعى إلى إيضــاح ما لا يحتاج إلى إيضاح ، ولكن التشبيه يضرب فى أعمــاق الوجــود الإنسانى الذى يسعى إلى اقتناص الحقيقة »(٣٣) .

« وما أهــون أمر الشعر إذا حمل على أنه إخبــار يراد إبلاغــه للسامع وليس فيــــه معنى إلا ما يقتضـــيه التشبيه وطرفـــاه بين مشبه ومشبه به .... »(٣٤) .

« والمشبه والمشبه به إذا ما كثر ترددهما يدلان على علاقة رمزية

---

(٣٢) الرحلة فى القصيدة الجاهلية ص ٢٩٦ وما قبلها .

(٣٣) الصــورة الفنية ص ١١٣ .

(٣٤) د/لطفى عبد البديع/التركيب اللغوى للأدب ص ١٢٨ .

ابعـد من العلاقة الظاهرية بين الطرفين » .

والمرأة فى الشعر الجاهلى تشبه بـ « الدمية ، الشمس ، الغزالة ، المهـاة » وهـذه المشبهات بها - كلها - مقـدسة عند الجاهليين ، وقد أشـار القرآن إلى الشمس ..

لقـد عكف الشعراء الجاهليون على استغلال الشمس فى التشبيه على ما فعـل طرفة وقيس بن الخطيم والنابغة الذبيـانى ، ومن أقـوالهم المشهورة والمحفوظة « تبـدت لنـا الشمس » و « بيضاء كالشمس » ، و « كأن الشمس حلت رداءها » ... الخ .

وكانت الغـزالة تذكر مـع الشمس ، وشبهت المرأة بكل منهما ، ويعنى هـذا أن المرأة لم تكن مهينة ولا محقرة(٣٥) .

وهـل « يقـدر الوثنى على تشبيه المرأة بمـا يعبد إن لم يكن للمرأة الموجـودة فى الشعر الجاهلى شىء من القـداسة » ؟

إذا المشبه والمشبه به بينهما علاقـة أخرى غير وجـه الشبه ، وهى القـداسة .

وأما التشبيه بالغزالة فهو كثير جـدا فى الشعر الجاهلى ، فقد كان الغزال مقـدسا عند الجاهليين ، وقـد اسـتدل الباحث بعـدة أدلـة ونصوص تؤكد قـوله(٣٦) ، وأضاف إلى ذلك ملاحظة جـديرة بالقبول وهى :

---

(٣٥) الأساطير د/احمد كمـال زكى ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٣٦) من مصادره : السيرة النبوية لابن هشام ، مروج الذهب للمسعودى ، الكامل لابن الأثير ، ودواوين حسان بن ثابت ، وامرىء القيس ، والأعشى ، والأساطير العربية قبل الإسلام د/محمد معين خان .

أن شعراء الجاهلية — على كثرتهم وتعـدد قبائلهم — لم يذكروا أنهم صادوا غزالا ، وهـذا يدل على قـداسته عندهم . حتى إنهم إذا مات الغزال ينوحـون عليه ، ويصنعون لـه التماثيل ، ويضعونها فى محاريب الملـوك ، ويجرمون من قتله ...... الخ(٣٧) .

وبين الشمس والغـزالة علاقـة . فمن معانى « الغزالة » الشمس .. ولـذا استخدم الشعراء الجاهليون الغزالة رمزا للشمس .

فمرة يشبهون بالغزال رمز الشمس ، وأخرى بالشمس نفسها .. وهـل يستطيع شاعر — فى عصر وثنى — أن يشبه المرأة بمـا يعبد إلا إذا كانت المرأة فى شعره غير ما نظن(٣٨) ؟

بل إن المرأة نفسها كانت رمزا للشمس ، وفى شعر الجاهلية نماذج تؤيد ذلك وتؤكده(٣٩) .

وإن الشاعر حين يقف — على أطلال المرأة ويقف لأجـل الشمس والمهاة والعين والنعام — يقف وقفة خاشـع يؤدى شعيرة .

ويلاحظ فى بيتى طرفـة : وفى الحى أحـوى .. أن شجر الأراك يكون مرة نبتا صغيرا (المرد) وأخرى يكون غضـا طريا (البرد) والأحـوى امرأة مسحورة تضع عقـدا فـوق عقـد من لؤلؤ وزبرجـد ، وهى فى الوقت ذاته غزال صغير شادن ، ينبغى لـه أن يعتمد على نفسه

---

(٣٧) راجع مزيدا من ذلك فى كتاب الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى . د/نصرت عبد الرحمن ١١٤ وكذا الأساطير د/أحمد كمـال زكى ص ٨٣ وما بعـدها .

(٣٨) الصـورة الفنية ص ١١٥ .

(٣٩) راجـع — المرجـع السابق وفيه نصوص .

كما يفهم من معنى «شادن» ، «خذول» كبير ينبغى له أن يقيم على رعاية ولــده ، كما يفهم من معنى « خــذول » ٠٠)(٤٠) ٠

والصورة تكشف عن العلاقات المعقدة ، التى تربط بين المرأة وبين الشمس ونظائرها ، أو قل رموزها الأخرى من الأمومة والخصوبة — وقد عمــد الشاعر لتحقيق ذلك إلى الجمع بين عناصر ثلاثة : الجمال المثالى ، والمرعى الخصب ، والظبية الأم — ثم جمع بين هــذه المرأة التى يوفر لهــا كل هــذه الصفات ٠ وبين الشمس التى وهبت هــذه المرأة بمــا خلعته عليها من أشعتها شباب الحياة وربيعها »(٤١) ٠

وإذا كان اليأس قــد استبد بالشاعر وهــو واقف على الأطلال ، فإن بوارق الأمل تتفتح أمام ناظريه ، فاتخــذ المرأة رمزا لــه ٠٠

ولا يعبر عن الأمل بصورة قبيحة إنمــا بأحسن صورة يتخيلها الشاعر ومن هنــا كان تصويرهم للمرأة — كل حسب آماله — حسناء ، بيضاء ، ناهــد ، مصقولة الترائب ، جيداء ، شعرها أســود ، عيناها كحيلتان ، شفتاها لمياوان ، أسنانها كالبرد متناغمة النبت(٤٢) ٠

« لقــد اخــذ النقاد المحــدثون على الشــــاعر الجاهلى حسيته المفرطــة فى تصوير المرأة ، وارادوه أن يصف لواعج حبــه ، وجــوى فؤاده ، كعادة المحبين الذين تامتهم حبيباتهم ٠٠

« ولكن الشاعر الجاهلى لم يحب امرأة معينة ، بل اتخــذها رمزا للأمل ، وقــد رآه فى عينها وثغرها وجيدها »(٤٣) ٠

---

(٤٠) الشعر الجاهلى وقضــية التفسير ص ٤٨ ، ٤٩ ٠
(٤١) الشعر الجاهلى د/إبراهيم عبد الرحمن ص ٣٤٨ ٠
(٤٢، ٤٣) الصــورة الفنية ص ١٦٤ ، ١٦٥ ٠

٣ ــ العمـــــــــــل :

رحـــلة الصـــحراء والنـــاقة

« وإذا كان الشاعر الجاهلى رمز لليأس بالطلل ، ورمز بالمـــرأة للأمل فإنه قـــد رمز برحلة الصحراء للعمل .

« وإذا كان قـــد عبر بالمـــرأة عـــن الأمل فى الحيـــاة ، فإنه قـــد عبر برحلة الصحراء عن العمل من أجـــل تحقيق الأمل »(٤٤) .

قـــال طرفـــة :

١١ ــ وإنى لأمضى الهم عنـــد احتضاره
بعـــوجاء مرقـــــال تروح وتغتـــــدى

١٢ ــ أمون كألـــواح الإران نســـأتها
على لاحـــــب كـــأنه ظهـــر برجـــد

١٣ ــ تبارى عتـــاقا ناجيـــات واتبعت
وظيفـــا وظيفـــا فـــوق مور معبـــد

١٤ ــ تربعـــت القفـــين بالشـــول ترتعى
حـــدائق مولـــى الأســـرة أغيـــد

١٥ ــ تريـــع إلى صوت المهيب وتتقى
بـــذى خصل روعات أكلف ملبـــد

إلى أن يقـــول :

٣٩ ــ على مثلها أمضى إذا قال صاحبى
ألا ليتنى أفـــديك منهـــا وافتـــدى

---

(٤٤) نفســـه ص ١٦٧ .

بهـــذه الأبيات عـــد طرفـــة من أبرز نعـــــات الناقـــة إن لم يكن أبرزهم .

قـــال ابن رشـــيق :

« أما نعات الخيل فامرؤ القيس وأبو دؤاد وطفيل الغنوى والنابغـــة الجعـــدى . وأما نعات الإبل فطرفة فى معلقتـــه من أفضلهم .. »(٤٥) .

نعـــم ..

لقـــد مضى « طرفـــة إلى وصف ناقتـــه ، فأطال فيه إطالة ملحوظة تشغل من المعلقـــة ثلاثة وثلاثين بيتا ، وكأنمـــا شغلته ناقتـــه عن كل شىء ، ويقف أمامها وقفـــة المثال البارع يسوى لها تمثالا رائع الجمال ، بالغ الدقة ، غنيا بالتفاصيل الدقيقة والجزئيات الصغيرة ، يحرص فيـــه على أن يوفى كل جزء منه حقـــه ، وكأنه يريد أن يقـــدم تمثالا نابضـــا بالحيـــاة — للناقـــة المثال — التى تستحق أن يقف أمامها وقفة العاشـــق المفتون ، يتغنى بها هـــذا الغناء الطويل ، ويعزف لها هـــذه المعزوفة الضخمة المتنوعة الأنغام والألحـــان »(٤٦) .

كان الشاعر الجاهلى متعلقا بناقته ، مفتونا بهـــا ، وقـــد أشرنا إلى ســـبب ذلك .

ومن هنـــا وقف يتأملها « ويردد بصره فيها ، وما أكثر ما اقترب منها يحـــدق فيها ويغـــلو ويسرف فى التحـــديق ، ثم يصـــفها عضـــوا

---

(٤٥) العمـــــدة ٢/٢٢٧ .

(٤٦) الروائع د/يوســـف خليف ص ٢٢١ .

عضـــوا ، ويصف هيئتها وطباعها وما بداخـــل صـــدرها من أحاسيس ومشـــــاعر ..

« ويمكن القـــول : إن الشاعر الجاهلى أقام معرضا ضخما للناقـــة ، وحرص فيـــه على رسمها بعناية كبيرة ، فصـــورها فى أوضاع متباينـــة شـــديدة التباين .

« ولكن أحـــدا من الشعراء ــ على كثرتهم ــ لم يرفـــع لناقتـــه هـــذا التمثال الضخم الذى شيده لهـــا « طرفة بن العبد » ، ومضى يعاود النظر فيـــه ويسرف فى التدقيق والمعاودة ، ويحرص حرصا بالغـــا أن يوفر لـــه خبرة ما فى البيئة البدوية من مواد أولية قادرة ــ بمـــا يسكبه فيها من ســـحر الفن ــ على النهوض بهـــذا البناء الشامخ العظيم .

« كان طرفـــة شاعرا يعـــرف كيف يتجـــه بالشعر إلى أن يكـــون نحتا وبنـــاء ، وكيف يستعير من العـــالم واللغـــة ما يمكنه من تحقيق هـــذه الصورة الشعرية المغامرة الطموح . ويكفى أن نتصور هـــذا الوصف الدقيـــق المفصل لندرك مدى ضخامة النصب ، ومدى فتنة الشاعر بهـــذا البناء الذى يرفعـــه ، ثم لا يمل من معاودة النظر فيه يحـــدد ملامحه ، ويبين قسماته ، كانما يريد بذلك تخليـــــد هـــذا الجانب من حيـــــاة القـــــوم »(٤٧) .

ومن هنا كان حكم القـــدماء لطرفة بإحراز قصب السبق فى وصف الناقـــــة .

---

(٤٧) الرحلة فى القصيدة الجاهلية من ٦٢ ــ ٧٨ (بإيجاز) .

وحين ننظر فى أبيــات الناقــة هــذه نجــد أن طرفة اعتمد فى تصويرها على التشبيه .. ففى الأبيات : حشد هائل من التشبيهات ، ولم يكن طرفة فى ذلك بدعا من شعراء الجاهلية . وإنمــا كان الاعتماد على التشبيه فى التصــوير ظاهرة عامة .

فناقــة طرفة : أمون كألواح الإران ، وطريقها كأنه ظهر برجــد ، وشعر ذنبها مثل جناحى نسر أبيض ، وضرعها كالقربة الخلق ، وهى فى عــدوها تردى كأنها نعامة تردى لظليم ، وفخــذاها كمصراعى بــاب قصر عال مملس ، وأضلاعها وفقار ظهرها كالقسى ، والفراغ الذى بين مرفقيها وزورها كبيتى وحش محفورين فى جــذع شــجرة ، ومرفقــاها كدلــوين على جانبى ســقاء .

وهى فى تراصف عظامها وتداخــل أعضائها كقنطرة الرومى التى بنــاها صاحبها بدقــة وإحكام . وآثار النسع كطرق وراد المياه ، وجنباها وصــدراها كالصخرة الملساء ، وهــذه الآثار مثل الرقاع فى القميص . وعنقها طــويل ، وهــو فى حركته — فى الارتفاع والانتصاب — كسكان سفينة فى نهر دجــلة وجمجمتها مثل الســندان فى الصلابة . وعيناها كمرآتين غائرتين فى عظم قــوى صلب فى أرض صخرية ، وهما تشبهان عينى بقرة وحشية مترقبة . وخــدها كصحيفة الشامى ، ومشفرها كجلد البقر المدبوغــة بالقرظ فى الطــول . وأذناها كأذنى ثور وحشى منفرد .

وأما قلبها فهــو كصخرة من صفيح محكم ....

« ولا يستطيع أحــد أن يدفــع العلاقة الحسية بين المشبه والمشبه به ، ولكن هــذه العلاقة الحسية ليست وحــدها ، فبجانبها علاقة معنوية

وهى القـوة حتى فى تلك القـربة الخلق التى شبه بهـا طرفة ضرع الناقـة الجاف إشارة إلى العقم ، والعقم فى النياق قـوة لها »(٤٨) .

« ومن يقرأ وصف الناقـة أو الفرس فى الشعر الجاهلى يجـد أن هـذا الشعر يتسع لشىء آخر . فالشاعر كان يدقـق ويتأمل فى كل عضو على حـدة وكأنه أمام صنم يتجـه إليه بالعبادة أو طلب الزلفى(٤٩) ..

« وإذا صح أن الشعراء الجاهليين كانوا يصورون ناقـة مثاليـة موجـودة فى السماء توصلهم إلى مغرب الشمس ليظفروا بالخلود ، فإن هـذا الفرض يساعد على فهم السبب الذى جعـل طرفة يقيم العلاقة بين الناقـة المثال وما شبهها به على أساس مادى معنوى ، فناقـة السماء ليست مادية فقط بل معنـوية ايضـا ، ولـذا جاءت التشبيهات مادية معنـوية »(٥٠) .

كما أن التصوير الحسى ليس ماديا صرفا ، بل هنـاك خلف هـذه المحسوسات مفاهيم معنوية لهـا دلالات عميقة فى فهم نفسية طرفة .

فهـو حـين يقـول :

تريع إلى صـوت المهيب وتتقى

بذى خصل روعات أكلف ملبـد

فظاهر البيت أن الناقـة تتمنع وتتأبى على الذكر .. وهنا سـؤال يطرح نفسه : لمـاذا اتقت الناقـة بذنبها الفحل ؟ لمـاذا تتمنع منـه ؟

---

(٤٨) الصـورة الفنية ص ١٨١ .
(٤٩) مدخل إلى دراسة الشعر الجاهلى د/ مصطفى الشورى ص ١١٠ .
(٥٠) الصـورة الفنية ص ١٨١ .

وتتأبى عليــه ؟ لعــل الناقة أخــذ ولدها فذبح فثكلته ، وإنهــا لا تريد أن تتكرر الفاجعة ... وهــذه الصورة وردت فى الشعر الجاهلى عنــد الخنساء ودريد بن الصمة الذى يقول مصورا حزنه على أخيه :

وكنت كــذات البور ريعت فاقبــلت
إلى جــذم من مسك سقب مجلــد

وكذلك صورة هــذه الناقــة الثكلى عند كل من عمرو بن معديكرب ومتمــم بن نويرة . وهــذه الموازنة بين حزنهم على من فقــدوه وحزن الناقــة ذات البو أمر يثير الانتباه ...

إن الموت ماثل أمام طرفة حتى وهــو يصف ناقتــه وينعتها بنعوت تدل على قوتها وشــدتها ومدى احتمالها .. وإلا فلمــاذا اختار هـــذا المشبه به (ألواح الإران) . وهــو خشب يصنع منه تابوت الموتى من السادة والأكابر كما ذكر الشراح ؟ .(*)

إن الموت يطارد الشاعر ، بل يلح عليه ، ولــذا كان ذكره عفــويا متناثرا فى المعلقــة .

وقــد رد الدكتور « محمد أبو الأنوار » على الدكتور « طــه حسين » فى رفض نسبة هــذه الأبيات لطرفة « بحجة أن الوصف فيها تغلب عليه النزعة المــادية » . وقال : « إن وجــود النزعة المــادية من أقــوى الأدلة الفنية على نسبة هــذه الأبيات إلى طرفة ، لأنهــا استمرار للخط

(*) يقول الدكتور لطفى عبد البديع : « لقــد ظل طائف الموت يطوف بالناقة منذ ذلك الحين — أى منذ ناقة صالح — كأنها راية سوداء تخفــق فى طريق الأقــدار والمصــاير ..... » الخ . انظر : عبقرية العربية ص ٢٢٧ ط النادى الأدبى — جــدة .

الفنى والنفسى والذهنى الذى يشكل الأبعاد الفنية والإنسانية فى تكوين هـــذا الشـــاعر » ٠

بل « إن سمة الوصف المـــادية كانت هـــدفا ووسيلة ، وكانت قدرا قابضا على العـــالم الفنى لهـــذا الشاعر ، وقـــد برزت على نحـــو شديد فى وصفه للناقـــة للأسباب التى حركته عمدا إلى التفنن فى وصفها ، ثم امتدت الظاهرة بعـــد ذلك تفرضها عليه يد الوجود الأقوى التى تسيطر عليه وتسيره ، والتى الهمته فلسفته ، والتى أوقعته فى حيرة التردد بين المجهـــول والمعـــلوم »(٥١) ٠

واول بيت من أبيـــات الناقـــة :

وإنى لأمضى الهم عنـــد احتضاره

بعـــوجاء مرقـــال تروح وتغتـــــــدى

يلمح القارىء فيـــه مدى ما يعانيه الشاعر ويكابده بسبب نفيه ، أو خروجـــه من القبيـــلة ٠٠

والعـــوجاء المرقال التى تروح وتغتدى — كما يقول الدكتور مصطفى ناصف — هى نفس طرفـــة فى أعمـــــاقها ، أعمــــاق طرفة لا تســـكن ولا تســـتريح(٥٢) ٠

لقـــد اعتادت نفس طرفة الأسفار ، وهى تتردد بين الرواح والغدو ، او هى مسافرة على الدوام ، تصل الليل والنهار فى أسفارها ٠٠ وقـــد صار — لكثرة أسفاره — ضامرا ، لاحقـــا بطنه بظهره ٠٠

---

(٥١) من قضايا الأدب الجاهلى د/محمد أبو الأنوار ص ١٨٧ ٠

(٥٢) صـــوت الشاعر القـــديم ص ٤٣ (بتصرف وإيجاز) ٠

« والناقـــة القـــوية التى تتبدى فى الرحلة هى إرادة الشاعر فى عنفوانها ، والناقة الطليح التى تظهر فى نهاية الرحلة هى إرادة الشاعر التى تطامنت فى دربالحيـــاة ... »(٥٣) .

لكان بلى الأطلال،وذكريات الحبيبة توحى لطرفة بالمقاومة والجلد، وقـــوة الإرادة والعزيمـــة على إقتحـــام الأهـــوال ، ومن هنـــا امتطى ناقتـــه التى هى معادل أو مكافىء لنفسه فى القـــوة والصبر والتحمـــل والإقـــدام وحـــدة الطبع ، وذكاء الفـــؤاد ... الخ .

ولنشأة طرفة فى منطقة حضرية كانت صوره الغالبة فى وصف ناقته حضرية ، ففى وصفها إحـــدى عشرة صورة حضرية ، فى مقابل خمس صور لنعامة ، ونسر ، وقربة جافـــة ، ولكناس غزالة ، ولمهـــاة مكحولة .. وطرفة فى صورة الحضرية يأخـــذها من العمـــــارة ، ومن أدوات الصناع ، ومن أدوات الكتابة ، ومن عـــدد البحر(٥٤) .

* * *

الفـــــــــــلاة

٣٩ ــ على مثلها أمضى إذا قال صاحبى

ألا ليتنى أفـــــديك منها وافتدى

٤٠ ــ وجاشت إليـــه النفس خوفا وخاله

مصابا ولـــو أمسى على غير مرصد

---

(٥٣) الصـــورة الفنية ص ١٦٩ .

(٥٤) راجع هـــذه الإحصاءات فى : الصورة الفنية ص ٩٦ وما بعدها .

على هـــذه الناقـــة القـــوية ، الصلبة ، الضخمة ، الجريئة ....
يمضي طرفة ، ويشق طريقه .. ولكن إلى أين ؟

إلى الفـــلاة .. تلك التي لم يصرح طرفة بذكرها ، وإنمـــا اكتفى بمكنيها ، لأنها معلومة لكل عربي .. فليس أحـــد يجهل الفلاة ..

ولعله لم يذكرها لأنها مخـــوفة ، مرعبة ، موحشة ، مجهولة ، فصار ذكرها أمرا غير مرغـــوب ، وإن كان اقتحامها ضربا من البطولة . وكأن ناقته قـــد اعتادت المسير فيها على ما هي عليه ممـــا ذكرنا .

ها هـــو صاحب طرفة يتمنى تحقيق المستحيل (ألا ليتني) وهـــذا المستحيل هـــو فـــداء طرفة ، بلـــه فـــداء نفسه .. فمن يقـــدر على الفـــلاة ؟ بل من يستطيع أن يفتدي نفسه منها ؟

لقـــد بلغت روحـــه الحلقوم ، وقلبـــه الحناجر ، وجاشت إليـــه النفس كما تجيش القـــدر عند غليانها ..

بل إنه عـــد نفسه ميتـــا وإن لم يترصـــده عـــدو .. وقـــوله « مصابا » أي تصيبه الفـــلاة إصابة تؤدي به إلى الموت .

وهنـــا ســـؤال يفرض نفســـه :

إذا كانت الفلاة بهـــذه الصورة فلمـــاذا يقتحمـــونها ويلجـــؤون إليهـــا ؟ ! ..

إنهم يصرحون — كلهم — بأن نوقهم تحملهم وهمومهم وتقتحم بهم الصحراء .. فلمـــاذا وهي البيداء ، الدوية ، القفر ، المهلكـــة ... إلى غير ذلك من أسماء تدل على الهـــلاك ؟ !

الإجابة نجـــدها عند الدكتور « مصطفى ناصف » إذ يقول :

إن « الجراة واقتحام المخاطر ليس أكثر من مداواة سأم عجيب ينتاب الشاعر الجاهلى كثيرا ... وليس السأم فى الحقيقة إلا شعورا بأن الذات لم تحقق بعـد كل ما يمكنها ، ولم تخرج بعـد دفائنها المكنوزة ، ولم تعثر بعـد على ما يكافىء همومها المتفتحة ، ومن اجـل ذلك يلجـأ إلى الفـلاة ...

« وقـد يرى الشـاعر ذاته مجـدبة مقفـرة لا تجـد ما يداوى سأمها ، وحينئذ يلجـأ إلى الفلاة ، يلجـأ إلى الفلاة لأنه شـديد الحاجة إلى الشعور بعالم ظاهره القسوة والاستغناء ، ويستعلى على العاطفـة المتغيرة .. »(٥٥) .

تلك إذا مغامرات لجـأ إليها الجاهليون لأسباب عـديدة من أهمها الفراغ ، وحب الاختلاء .. وغير ذلك .

والمغامرة فى حـد ذاتها محببة إلى الشباب ، ونحن نجـد ذلك فى عصرنا لدى شباب يريد أن يقتل وقته — كما يقـولون — فيخاطرون بأرواحهم فى سباقات قاتلة ، سباق سيارات ، أو سباق دراجات بخارية ، أو تسلق جبال بل وطيران فى الفضاء فى تشكيلات مختلفة .. وغير ذلك مـمـا نراه . ويودى بحياة كثير منهم ..

* * *

---

(٥٥) صـوت الشاعر القـديم ص ٣٣ .

عنـــوان المبـاسـاة

« الفـــتى الأوحـــد »

٤٢ ــ إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أنني

عنيت فـلم اكســل ولــم أتبلـــــد

هــذا بيت من أبيــات طرفــة التى سبق بهــا ٠٠ وهــو هنــا يعرف بنفسه حتى يعرض مشكلته على مجتمعه لكيــلا يسىء فهمه كمــا اســاء قــومه ، وهــو يتحــدث بثقــة كاملة عن نفسه ، ويفاخر بانه وحيد قــومه ، إذ هــو الفتى ، فتى القبيلة الأوحــد ، لا نظير لــه ، بل لا ثانى لــه ٠٠

إنهم يطلبــون « فتى » لأمر عظيم ، وخطب مدلهم ، فلا يجدون ســوى « طرفــة » يجيبهم ويغيثهم ٠٠

« انظر إليــه وهــو يتقــدم إليك ظريفا ، أنيقــا رشيقا ، خفيف الروح ، جــازما مــع ذلك كل الحــزم ، واثقــا بنفسه أشــد الثقــة ، راضيا عنها كل الرضا ، شــاعرا بواجبه الاجتماعى أوضح الشـــعور واقــواه ، يؤمن بانه قــد خلق لقــومه قبل أن يخلق لنفسه ، فهــو يجيبهم إذا دعــوه ، بل هــو يجيبهم إذا دعــوا وإن لم يوجهوا الدعوة إليه ، كانهم لا يستطيعون ــ أو لا ينبغى لهم ــ أن يدعــوا غيره ، وكانه هــو الفتى كل الفتى ، هــو الفتى الذى يختصر شباب قــومه اختصارا ، ويمثلهم تمثيلا ، ويحتمل عنهم أثقــال القبيلة كلها ٠

« وهــو يستجيب لدعــوة الداعى ــ ســواء أوجهت إليــه أم إلى

غيره — مسرعا ، لا كسلا ولا متبلــدا ، وكيف يكسل أو يتبلد وهــو الفتى الذى ملأ نفسه إعجابا بنفسه ، وملأ نفــوس قــومه إعجابا به ، واعتمادا عليــه ! فأول صــفاته إذن هــذا الشــباب الذى يدفعــه إلى أن يتمثل الواجب الوطنى أقــوى التمثل ، ويسرع إلى الإجابة إليه ... »(٥٦) .

على « أن كلمــة « الفتى » لا تفهم بمعزل عن « عوجاء مرقــال تروح وتغتــدى »(٥٧) .

٤٢ — أحلت عليها بالقطيع فأجــذمت
وقــد خــب آل الأمعــز المتوقــد

٤٣ — فذالت كما ذالت وليــدة مجلس
ترى ربهــا أذيــال ســحل ممــدد

وها هــو الفتى الأوحــد قام مسرعا إلى ناقته ، مقبلا عليهــا بالسوط ضربا ، فانطلقت مسرعة ، لا يمنعها من ذلك شــدة الحر ، أو غلظ المكان ، وكثرة الحصى المتوقــد بالحر الشديد .

وإذا بهــذه الناقــة تضرب فتتبختر فى مشيتها كما تتبختر وليدة عرضت على أهــل مجلس فأرخت ثوبها ، واهتزت بأعطافها ..

فكيف يتــأتى التبختر مــع الضرب ؟ أتضرب الناقــة بالســوط فتتبختر ؟

إن هــذا الضرب وذلك التبختر ليسا ببعيدين « عن نفس طرفــة

(٥٦) الدكتور طــه حسين فى : حــديث الأربعاء ٦١/١ .
(٥٧) د/مصطفى ناصف — صوت الشاعر القــديم ص ٤٤ .

وعقله على نحو ما نتوهم .. وانظر فى هذا التبختر فسوف ترى البؤس كامنا فى باطنه ايضا . ذلك أن صاحبنا اخذ يضرب الناقة بالقطيع والح عليها كما الح الحر والأماعز الملتهبة .

« هذه هى حركة عقل طرفة تبخترت من وجه ، وضربت بالقطيع من وجه . « فالفتى » من هذا الوجه ليس لفظا ملحميا مملوءا بروح الدعاية والفخر الغليظ ، ولكنه أحد عناوين المأساة العميقة ، أو لنقل إنه عنوانها المشرق ... »(٥٨) .

إنه يريك كيف يفرط القوم فى ثروة « قومية » كان من الممكن — لو حافظوا عليها — أن يكون لهم بها شأن آخر .. وليتهم أهملوا هذه الثروة فحسب ، بل إنهم رموها بعيدا بعيدا ، متوهمين أنها تعود عليهم بالضرر ، فحاولوا التخلص منها .

وإن « هذا الفخر — على طوله وعرضه — قريب النسب جدا من حديث الغزل والناقة — فيه الإحساس بسلطان المجتمع والضيق به ضيقا يوشك أن يكون خوفا ، أو قل : فيه هذا الإحساس العميق بالغربة عن المجتمع ، وهذه الجفوة الروحية القاسية ، وفيه الخروج على هذا السلطان والكفاح العنيد ضده ، والإيمان بحرية الفرد فيما يأتى وفيما يدع ، إيمانا يدفع بصاحبه إلى أن ينفق حياته حتى توشك أن تكون الحلم ، أو تكون فى سبيلها إليه .

« إن طعم المغامرة فى هذا الفخر أبين منه فى حديث السابق ..

---

(٥٨) نفسه ص ٤٤ ، ٤٥ .

وإن رقص الجارية التى شبه بها ناقتـه فى أثناء السير — إرضـاء لسيدها — يضرب فى وجهين متناقضين :

هـو — أولا — كما يرى الدكتور مصطفى ناصف : دليـل على هذه الحرية المبطنة بالخوف والعبودية والإذلال ٠

وهـو — ثانيا — : يلامس فكرة اللعب ويقـوم بوظيفته(٥٩) ٠

٤٤ — ولست بحـلال التـلاع مخافـة
ولكـن متى يسـترفـد القـوم أرفـد

٤٥ — وإن تبغنى فى حلقة القـوم تلقنى
وإن تقتنصنى فى الحـوانيت تصـطد

٤٦ — متى تاتنى اصـبحك كاسـا روية
وإن كنت عنهـا غانيـا فاغـن وازدد

٤٧ — وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى
إلى ذروة البيـت الكـريم المصمـد

إنه يعرف واجباته جيـدا ، وهـو يقوم بهـا على خير وجـه — كما يقـول شعره — ومن حقـه إذا أن يستمتع بالحياة على طريقته الخاصـة ، وكما يتراءى لـه ٠٠

وإنه ليعطى « قـومه وغير قـومه من نفسه وماله فى غير تحفظ ولا بخـل ولا إشفاق ، فمن حقـه الا يبخـل على نفسه بالخير ، والا يحـول بينها وبين نعيم الحياة ٠وصاحبنا لا يحرم نفسه كما لا يحرم

(٥٩) الرحلة فى القصيدة الجاهلية ص ٢٩٦ وما قبلها ٠

الناس ، وهو لا يستتر منك ، ولا من غيرك ، وهو يدلك على الأماكن التى تستطيع أن تجده فيها إن احتجت إليه ، فإذا فى ساعة الجد ، فتستطيع أن تلتمسه فى حلقة قومه هناك حيث يجتمعون فى ناديهم ، يتحدثون ويتشاورون إن عرض لهم من الأمر ما يدعو إلى التشاور ، فهو يشارك قومه فى جدهم كله ، وإن كان شابا ، لأن له من الرشد والحلم وحسن البلاء ما يمكنه من ذلك ، ويفرضه على قومه فرضا ... »(٦٠) .

فإذا ما فرغ من جده مع قومه عاد إلى نفسه وأترابه يلتمس المتعة واللذة هناك فى الحانات .

ولست أدرى سر اختياره للفعلين (تقتنصنى) ، (تصطد) حين يكون فى الخمارة ! ، فى حين قال (تبغنى) (تلقنى) إبان حديثه عن ساعات الجد .

وما إن لقيه الباحث عنه حتى قدم إليه كأسا صبوحا معتقة ترويه ، فهو يشده إلى حياته وطريقته ثم يقول : إذا ما تفاخر الناس فإننى أكون فى أعلا مقام ، وأعز مكانة ، فأنا أنتسب إلى بيت القمة ، ذلك البيت المضياف ، المغيث ، الذى يلجأ إليه الناس لقضاء حوائجهم .... ولا زال طرفة فى هذه الأبيات يعرف بنفسه ..

٤٨ — ندامای بیض كالنجوم وقينة
تروح علينا بين برد ومجسد

(٦٠) حديث الأربعاء ٦١/١ ، ٦٢ .

٤٩ — رحيب قطاب الجيب منها رفيقة
بجس الندامى بضة المتجرد

٥٠ — إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا
على رسلها مطروقة لم تشدد

٥١ — إذا رجعت فى صوتها خلت صوتها
تجاوب أظآر على ربع ردى

وهذه صورة أو مشهد من الخبارة ، يتلقاها المتلقى راسمة فى ذهنه جانبا من حياة طرفة اللاهية ، المسرفة ، الماجنة ٠٠ بين الخمر والنساء ، والطرب والغناء ٠٠

ويرى « إيليا حاوى » : أن من الطبيعى أن يخيل إلى بعض النقاد أن طرفة إنما هو امرؤ متهتك ، مستخف بالحياة ، لم ينظر إليها نظرة جد وتقدير ٠ ذلك أن ادعاءه الفجور ، وجهره بل تباهيه به يوهم الناقد أنه أمام امرىء مستهتر ، شأنه شأن غيره من طلاب اللهو والمتعة ٠٠٠٠ ثم يقول :

« إلا أننا إذا أنعمنا التفكير ، نشهد أن ذلك الوجه العابث الماجن ، إنما هو قناع خارجى ، وأن طرفة كان يصدر عن تفكير عميق جذرى ، وأن سلوكه الخارجى ليس سوى مظهر أو انعكاس أو نتيجة لما يعانيه فى الداخل من إحساس مبرم بالفشل والعقم والتفاهة ٠٠٠ »(٦١) ٠

---

(٦١) فى النقد والأدب ٢٤٠/١ ٠

ولما كان طرفة من بيت قمة فى الشرف والسؤدد والكرامة ، فإنه لم يتبذل فى الحوانيت منادما أى شخص — بل إنه ينادم كرام الناس ، الأحرار ، البيض كأنهم نجوم ..

وقينتهم التى تسقيهم تتحرك بينهم ، وتقبل عليهم ، متمايلة بين أيديهم ، وهى لابسة ثوبين من برد ومجسد .. وبينما هم يحتسون كؤوس الخمر يريدون أن يطربوا فيطلبون من قينتهم إسماعهم ، فتجيب ملبية مطلبهم ، وتغنى بصوت مطرب ، لا تكلف فيه ولا عناء .

وانظر إلى بيته الأخير الذى يشبه فيه صوت المغنية بصوت حنين النياق التى فقدت فصلانها فإنك تجد أن « الفقد » « والموت » يلحان عليه من جهة ، والناقة تكاد تسيطر عليه من جهة أخرى .

سبب اغترابه

٥٢ — وما زال تشرابى الخمور ولذتى

وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى

٥٣ — إلى أن تحامتنى العشيرة كلها

وأفردت إفراد البعير المعبد

٥٤ — رأيت بنى غبراء لا ينكروننى

ولا أهل هذاك الطراف الممدد

وهنا يجاهر طرفة ويعلن سبب اتخاذ القبيلة موقفها منه ، فبعد أن عرف نفسه إلى المتلقين ، وذكر مؤهلاته ، وما تفرد به بين قومه .. وما كان يستحقه من مكانة فيهم ، أخذ يطرح على المتلقى ما فعله

وكان مقتنعا به كل الاقتنـاع ، وهـو ما عـدته القبيلة خروجا على تقاليدها ، وتحـديا لهـا .. بل جناية ارتكبها ..

إنها شرب الخمر .. الذى يصر عليه ، بل ويبيع طريفه وتالـده فى سبيلها وتشعر انه مصر على المضى فى سبيله مدمنا للخمر ، وإن كلفـه ذلك ما كلفـه .

ومع انه كان مدمنا إلا أنه لم يطـل وصف الخمر ، ولم يكثر القول فيهـا ، كما اكثر الاعشى وعـدى بن زيد وعلقمه بن عبدة .. وهـو هنا يمر بهـا مرورا سريعا كذلك .

وذلك لأن المقـام ليس مناسـبا ، فهـو هنا يعرض حياته عرضا موجزا ، ويعترف بانه شرب الخمر ، وسيظل يشربها حتى الموت ..

ويقينا لـو أن طرفـة كان يقرأ العواقب قراءة سليمة لمـا استمر فى عناده وتحـديه .. بدليل عـودته إلى قـومه بعـد ذلك واعترافه بخطئه وما جرته عليه الخمر من شرور — كما أسلفنا — وإن لم يكن مقتنعـا ..

ثم يذكر حكم القبيلة عليه ، وكان حكما — فى نظره — قاسـيا ، منبئا عن غبائهم وسوء تصرفهم ، لقـد افرد كما يفرد الجمل المصـاب بالجرب بعيدا عن شباب القبيلة لكيلا يكون سببا فى عـدواهم . فهـو « ميكروب » ينبغى محاربته والقضاء عليه ، أو على الأقـل إبعـاده ، وتحصين شباب القبيلة ضـد هـذه العـدوى .. بأن تتخـذ ضـده هـذه العقوبة فيخشى الآخرون أن يصنعوا صنيعه ..

وظـــن طرفة — غرورا منه — انه ســوف يتلقفه اناس آخرون يكون ســـببا فى قــوتهم ، وعــونا لهم ، ومغيثا ..

وهــؤلاء الأصدقاء الجـــدد من الطبقات المختلفة معترفون بتفرد طرفة وتميزه ، ويقـــدرونه حــق قـــدره ، فالأغنياء المياسير لا ينكرون لأنه من نفس طبقتهم ، فهـــو ينتمى إلى « البيت الرفيـــع المصمد » ، والفقراء المحاويج معترفون بأياديه البيضاء عليهم ، فطالمـــا أغاثهم ، وفرج كروبهم ، ولـــذا فهم حراص على أن يكو نمعهم وبينهم .

الوجـــودية ولـــذة الفـــتى(٦٢)

٥٥ — الا ايهـــذا الزاجرى احضر الوغى

وأن اشهد اللذات هل انت مخلدى ؟

---

(٦٢) جـــوهر الفلسفة الوجودية يكمن فى أصـــل عام تفرعت منـــــه أصولها الأخرى ، هـــو إنكار وجود ماهية سابقة على وجـــود الإنسان والأشياء ، والإيمان بشىء واحـــد هـــو « الوجـــود » فحسب ! وينحصر هـــذا الوجـــود بالنسبة للإنسان فى « الكوجيتو الديكارتى » إشارة إلى قـــول « ديكارت » المشهور : « أنا أفكر إذا فأنا موجـــود » — ومعنى ذلك : أنه فى رأى الوجـــوديين لا يوجـــد شىء خارج هـــذا التفكير ، ولا سابق عليه . فلا يوجد إلـــه ولا توجـــد ماهية ولا توجـــد مثل ولا قيم أخلاقية متوارثة لهـــا صفة اليقين ، وإنمـــا كل هـــذا تراث عتيق اخـــذ النـــاس يتحللون منه ومن مصلحتهم أن يتحللوا ، حتى يلقـــوا عن كواهلهم

٥٦ — فإن كنت لا تسطيع دفـــع منيتى

فدعنى أبادرها بمـــا ملـــكت يدى

٥٧ — فلـــولا ثلاث هن من عيشة الفتى

وجـــدك لم أحفل متى قـــام عـــودى

٥٨ — فمنهن ســـبقى العـــاذلات بشربة

كميت متى ما تعـــــل بالمـــاء تزبد

٥٩ — وكرى إذا نادى المضـــاف محنبا

كســـيد الغضـــــا نبهتـــه المتورد

٦٠ — وتقصير يم الدجن والدجن معجب

ببهكنـــة تحـــت الطـــراف المعمـــد

٦١ — كـــأن البرين والدماليـــج علقت

على عشر أو خـــروع لم ينضـــد

« إن ســـلوك طرفة لم يكن ســـلوكا عفويا ، ساذجا ، وهـــو ليس ســـورة للعبث والهـــذيان ، وإنمـــا دليـــل على حقيقة نفسية لم تسفر أو تتضـــح فى شـــعره

ذلك أنه لبث يتساءل ويلح بأمر حيـــاته وحياة الناس . بأمر هـــذا

أوزارا ثقيـــلة ، وحتى يستطيع الفرد أن ينطلق فى الحيـــاة من وجـــوده الذى يختلط بمـــا كان يسميه السابقون ماهية الإنسان » .
راجـــع : الشعر الجاهلى — د/إبراهيم عبد الرحمن ص ٢٥٢ ،
الدكتور مندور : الفن ومذاهبـــه ص ١٠١ . ويرى الدكتور إبراهيم عبد الرحمن : أن الشاعر الجاهلى لم يكن يفكر على هـــذا النحو .. راجـــع : الشعر الجاهلى ص ٢٥٢ .

الوجـــود وما وراءه فالتبس وتعقــد ، وخيل إليـــه انه ليس ثمــة وجود وراء هــذا الوجود ، وأن الموت سيلم به لا محالة :

الا أيهــذا اللائمى أحضر الوغى
وأن احضر اللذات هل أنت مخلدى

فالقضية إذن بالنسبة إليـــه هى قضــية خلود . أى قضــية الموت والحيـــاة . ما جـــدوى عمــــرنا إذا كان الموت سيدركه . وما جـــدوى السعادة والمـــال والجـــاه والسلطة .... أن تجربة طرفة بذلك تغـــدو تجربة وجودية ... والشاعر لا يطيق مصيره لانه لا يعرف غايته ... ولـــذا طلب الهرب ، الهرب من مواجهـــة ذاته ، وســـعى إلى تخـــدير وعيـــه بنفسه .. فلم يجـــد امامه سوى الخبرة التى تخفف عن كاهـــله وطـــاة الوعى والإدراك وتدعـــه فى غيبوبة .... »(٦٣) .

والعنوان الذى يجمع الابيـــات هـــو « لـــذة الفتى والوجـــودية » .. فقـــد نظر إلى اللذات من خـــلال « مذهبـــه » الوجـــودى ، كما أن لذته هنا ليست مقصورة على خمر ونساء ، بل تعـــدتهما إلى وجه ثالث وهـــو الكرم .. وهـــو بمفهومه هـــذا « يدنو من مذهب الإباحيين الذين يرون أن الحكمة إنمـــا هى فى انتهاب لذائذ الحياة والتمتع بكل لحظـــة من لحظاتها ، ففى نظرهم أن الحياة لا قيمة لهـــا ، وإنمـــا هناك شىء واحـــد حرى بالإنسان أن يتحرى عنـــه وهـــو اللذة . وهـــو حين يعلن ذلك ويجاهر به إنمـــا يتصدى للآخرين ، ويحاول أن يبرز أنهم يصدرون

---

(٦٣) فى النقـــد والأدب ٢٤٢/١ بتصرف وإيجاز .

فيما يعتقدون عن غباء ... وما اعتزازه بنفسه إلا مظهرا لزرايته بقومه ، واحتقاره لمصيرهم .. »(٦٤) .

ويبدو طرفة « فتى جاهليا ، مقبلا على الحياة فى غير ما حدود يرى فى الموت دعوة إلى إصابة اللذة ، ودعوة إلى الزهد فيما يكدر هذه اللذة والكفاح ضده .

« ولذته هذه فتنة بالحياة وجمالها ، وصورها المتميزة ، سواء أكانت تلك الحياة تهالكا فى الحب ، أم ظعنا وحبيبة ، أم ناقة وضربا فى الفلوات ، أم شجاعة وكرما ، وصلة رحم وشرب خمرة ، أم صمما عن العذال والزاجرين ، وهى بعد ذلك — أو هى نتيجة لكل ذلك — هذا الندب المتميز عما يندب به الواغل فى الرجال .

« إنها هذا الشوق الجامح إلى تطهير الفرح الجاهلى من الحزن والخوف ، وتصفية الحياة من الأكدار والمنغصات ، وتبرئة الحرية الفردية من القيود . أتظننى بعد ذلك مغاليا إذا قلت : إن موقف طرفة فى معلقته — وفى موته أيضا — موقف وجودى أصيل ؟؟(٦٥) .

« لقد أبدى طرفة تأففا غريبا من الخلود ، والواقع أن تعلق طرفة بالفلاة هو الذى أودى بعقله . أودى بعقله حب الحرب وحب اللذات . وهذان — معا — وجهان من عشق الموت ، أو وجهان من التنكر لفكرة الخلود ، وعانى طرفة فيما يظهر ، ولم يستطع أن يدرك أنه يخلص لعلته أو يتشيع لها . لقد كان العكوف على هذه اللذة الحسية

---

(٦٤) المرجع السابق .

(٦٥) د/وهب رومية . ص ٢٩٨ الرحلة فى القصيدة الجاهلية .

مرضا يشجع عليه مفهوم جاهلى للزمان يتبدى من خلال الفلاة ...

« وفى اللــذة الحسية وتجربة الحرب لا يعى المرء مضى الحياة ، ويتعرض راغبا أو غير راغب لإلغائها أو يفقــد الشعور بالزمن . لقــد كانت جاذبية هــذا النوع من التجارب عنوانا على البؤس العقلى . لم يستطع طرفة أن يتفهم معنى للزمان لا يعارض حياة الإنسان ، وأقبــل على اللذائذ الحسية المهلكة لأن الزمن — عنده — لا يرحم ... »(٦٦) .

والحــديث عن انتزاع هــذه اللذات انتزاعا من المجتمع ومن الحياة أمر شائع وصورة متكررة فى الشعر الجاهلى .. فهم يقرنون بين الحديث عن اللذات والموت ..

يقــول امرؤ القيس :

تمتــــع من الدنيــا فإنك فانى
من النشوات والنســاء الحســان

من البيض كالآرام والأدم كالدمى
حواصــنها والمبرقــات الــروانى

وقال الحــارث بن ظــالم :

اعــــزفا لــى بلــذة قينتيــا
قبــل أن يبــكر المنون عليــا

قبــل ان يبــكر العــواذل إنى
كنت قــدما لأمرهــن عصــيا

إلــخ ..

(٦٦) د/مصطفى ناصف . صوت الشاعر القــديم ص ٤١ ، ٤٢ .

« والشاعر فى هـذه النماذج كلها شاب مندفـع بعنفوان صباه إلى حيـاة لاهية وفى ذهنه عن الفناء فكرتان ملحتان :

أولاهما : أن الموت لا مفـر منـه ، وهـذا يلغى كل اعتبارات الحـذر والحيطة لـما تأتى به الأيام من حاجـة . فالنهاية لا يمكن أن يتلافاها غنى بغناه ، أو راشـد بمـا يصـطنع من الرشـاد ، والغنى كالفقر ، والراشـد كالغاوى ، والحياة والموت مثلان ...

والأخرى : هى أن الموت قـد يكون قريبا ، بل قـد يكون غـدا ، وهـذا يدفـع إلى اغتنام غفلات الدهر والمبادرة إلى التمتع بالحياة :

فإن كنت لا تسطيع دفـع منيتى

فدعنى أبادرها بما ملكت يدى »(٦٧)

والألفاظ المستخدمة فى الحديث عن التلـذذ توحى بهـذا الانتزاع — تأمل الكلمات : (لا تسطيع — دفـع — دعنى — أبادرها — ملكـت يدى — سبق) تجـد مصـداق ذلك .

ذلك لأن اللـذات فى نظـرهم لا يستحقها إلا القـوى الجرىء الجسور الفائز ، ولـذا فقـد ملكها ، وذلك أثر من آثار البيئة القاسية التى حفزتهم حفزا إلى حب التملك الشديد ، والاستئثار بالأشياء ، ولذلك تجـد حربا جاهلية تقـوم بين قبيلتين بسبب امرأة مثلا كحرب كنـانة وسـليم ..

ولا يزال البعـد المـادى للأشياء يشد طرفة ويستهويه « فها هـو

(٦٧) الحياة والموت فى الشعر الجاهلى ص ١٩٧ .

يصف خليلته فى يوم لهــو ومتعة ، فيجعل أطرافها وهى مزينة بالأساور والخلاخيل كأنها فى امتــدادها واستقامتها أغصـــان أشــجار العشر أو الخـــروع .

« وهـــو فى هـــذا المقام لم يشأ أن يصقل رؤيته لهـــا ، أو إحساسه بهـــا بأبعاد شاعرية ، ولكنه جعلها كأغصان لم تشذب ، لم تمســـها يد الصقل والصناعة ، وإنمـــا أعجبه وجـــود الطبيعة واختلاطها ، ومن ثم نص على أنه شجر الخروع الذى لم يخضـــد ، ولم يحـــدثنا عن عيونها الحالمـــة ، ووجناتهـــا المضيئة ، وأنفاسها المعطـــرة ، وتمايلهـــا الراقص .... » (٦٨) .

بل إن « الوصف المـــادى يستقطب أيضا أبعـــاد الوجـــود النفسى والشعورى لدى « طرفة » ، فهـــو عندما يتجه لوصف ملـــذاته فإنه فى الحرب مقـــدام ضراب ، وفى النفقة مسرف متلاف ، كرائم أموالِه يعقرها للترفيه والتسلية ، وكأســـه داهقة روية لكل من يفـــد عليـــه . إنه يهتم بتحـــديد هـــذه المعانى فى بعـــدها المـــادى .

ومن ثم لم يقـــل لنـــا إن الشجاعة والكرم ذكر ثان المرء ، وعمر جـــديد يمتد بعـــده ، وحياة أخرى يحياها بين القوم بعـــد غيابه عنهم ، إذ ما قيمة ذلك كله إذا لم يكن هـــو ماثلا بشحمه ولحمـــه يباشر هـــذه الملـــذات ؟ (٦٩) .

---

(٦٨) د/محمـــــد أبو الأنوار ـــ من قضـــــايا الأدب الجاهلى ص ٨٦ وما بعـــدها .

(٦٩) نفســـه ص ٨٤ .

وحين تنظر فى هـذه اللـذة من وجوهها الثلاث تظن أن فيهـا خلطا .. فالكرم صفة طالمـا تغنى بها الجاهليون ، وإغـاثة المستغيث وتفريج كربه مـا عـده الجاهليون فضيلة كبرى . وهـذا يتناقض مـع المجـون والسكر ، فمع أن كثيرا من شـعراء الجاهلية افتخروا وتغنوا بذلك إلا أن المجتمع كان ينكره .

لكننا — كما ألمحنا سابقا — وجـدنا أن طرفة يعـد هـذه الفضيلة لـذة ، فهو إنمـا يغيث ويكرم بدافـع اللـذة ، وليس بدافع الفضيلة .

إنها لـذة كلـذة الخمر ، ولـذة الاستمتاع بالمرأة .. لم يكن إذا ترتيب اللذات ترتيبا عبثيا ، وإنمـا هـو مقصـود حين تكتنف كل من لذتى الخمر والنساء اللـذة الوسطى « الكرم » ، وهى لا تأتى بعدهما .

وطرفة هنا لا يقلـد مجتمعه ، وإنمـا كانت لـه فلسفته الخاصـة التى يصـدر عنها فى تفكيره وفى فعـله ..

ولأنه متمرد ينبذ التقليد ، ويفعل ما يراه هـو لـذة ، وإن خالفت العرف الجاهلى ، بصرف النظر عمـا إذا كان خيرا أو شرا .

يقـول الدكتـور طـه حسين(٧٠) :

« فواضح جـدا أن المثل العليا تتغير بتغير البيئات والعصور ، ولكن واضح أيضا أن الأشخاص كذلك يتغيرون بتغير البيئات والعصور ، فلـو عاش طرفة فى بيئة غير بيئته أو عصر غير عصره ، لمـا كان طرفـة ، ولكان تغير فلسفته نتيجة لتغير شخصيته ، ولكان من الجائز ألا تعجبنـا

---

(٧٠) حـديث الأربعاء ٢ / ٧٠ .

فلسفته لــو أنه صــورها فى أبيات من الشعر كهــذه الأبيات .. » .

وإذا كان الموت غير مقــدور عليه ، وهــو حقيقة مطلقــة خالدة ، ففى نظر طرفة أن فى اللــذة نفسها والإسراف فيها طريقا طيبة إليه .. وعلى الإنسان ــ كما يرى ــ أن يجرى إليه بعــد أن يروى نفسه من كل ما يلتذ به حتى لا يدركه الموت وفى النفس حاجات إلى اللــذة .

وقريب من قــول طرفــة فى اللــــذات الثــلاث قــول بشر بن أبى خــازم(٧١) :

وعشت وقد أفنى طريدى وتالدى

قتيــــل ثلاث بينهــــن أصرع

فإن سقاط الخمر كانت خبــــاله

قديما فلوموا شارب الخمر أو دعوا

وحــب القــداح لا يــزال منــاديا

إليهــا وإن كانت بليــــل تقعقع

نغــاء الحســان المرشــقات كأنهــا

جآذر من بــين الخــدور تطــلع

وغير ذلك كثير .

بيــد أن هــذه الحياة التى يفخر بهــا الفتيان لم تكن هى الحياة الطبيعية المعتادة لأهــل الجاهلية ، فهى بطالة أو باطــل ، وهى غى وضلال يسدر فيه الشباب ثم يصحو منه الرجــل الناضج .. قال الأعشى :

---

(٧١) ديــوانه ١١٩ تحقيق د/عزة حسن دمشق ١٩٦٠ .

واقصرت عــن ذكر البطالة والصبا

وكانت سفاها ضــلة من ضلالكا(٧٢)

وقــد احتلت الخمر فى الشعر الجاهلى مساحة كبيرة « وقــد كانت وشربها عند الشاعر الجاهلى لــونا من ألــوان الفتوة والرجــولة ، نجد ذكرها دائمــا مقترنا بالشجاعة والكرم .. فهــذا عنترة يقــول :

هلا سألت الخيــل يا ابنة مالك

إن كنت جاهلة بمــا لم تعلمى

يخبرك مــن شــهد الوقيعــة اننى

أغشى الوغى واعــف عند المغنم

وإذا شربت فإننى مســـــــتهلك

مالى وعرضى وافــر لم يكــلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى

وكمــا علمت شــمائلى وتكرمى

وقريب منه قــول امرىء القيس :

كانى لم اركسب جــوادا للــذة

ولم اتبطــن كاعبا ذات خلخــال

ولم اسبق الزق الروى ولم أقــل

لخيلى كــرى مرة بعــد إجفــال

فهى عند الجاهلى باب من أبواب الرجــولة ، تقترن عند الذكــر

---

(٧٢) الحياة والموت فى الشعر الجاهلى ص ٢٢٧ .

بالحرب وكرها وفرها ، وبالسيادة فى المجالس وبنيل وصال الغوانى ٠ والفارس الحـــق هـــو من يبذل فى سبيلها ماله ، ويشرب ويسقى أصحابه كما قال الأعشى :

وكـــاس شربت علـــــى لـــذة
واخــــرى تداويت منهـــا بهـــا

لـــكى يعـــلم النـــاس أنى امرؤ
اتيت الفتـــوة مـــن بابهـــا(٧٣)

المـــــــوت

« الـــكاس والجمجمـــة »

٦٢ ـــ فذرنى أروى هامتى فى حياتها
مخافـــة شرب فى الحيـــاة مصرد

٦٣ ـــ كـــريم يروى نفســـه فى حيـــاته
ستعلم إن متنا غـــدا أينا الصدى

٦٤ ـــ أرى قبر نحـــام بخيـــل بمـــاله
كقبر غـــــوى فى البطالة مفسد

٦٥ ـــ ترى جثوتين من تراب عليهمـــا
صـــفائح صم من صـــفيح منضـــد

٦٦ ـــ أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيلة مال الفـــاحش المتشـــــدد

---

(٧٣) قراءة جـــديدة لشعرنا القـــديم ص ٢٤ ٠

٦٧ ــ أرى العيش كنزا ناقصــا كل ليلة

وما تنقص الأيام والدهر ينفــد

٦٨ ــ لعمرك إن الموت ما أخطــا الفتى

لكالطــول المرخى وثنيــاه باليــد

٦٩ ــ متى ما يشأ يوما يقــده لحتفه

ومن يك فى حبــل المنية ينقــد

ولا يزال الشاعر يقرن بين اللــذة ورى نفسه منها وبين الموت ٠٠ وهــو ممعن فى تمرده ، مخالف للجاهليين فى معتقداتهم الباطلة التى يتخيلون من خلالها أن روح الإنسان تتحــول إلى طائر يسمى الهــامة أو الصـــــدى ٠

وهــذان البيتان أوردهما « إيليا حاوى » على نحــو يخالف ما جاء فى المعلقــة ٠٠ هكذا :

فذرنى أروى هامتى فى حيــاتها

ستعلم إن متنا غــدا أينــا الصدى

كريم يروى نفسه فى حيــاته

مخافــة شرب فى الحياة مصرد

وأرانى مستريحا إلى هــذا الترتيب ، فهــو أقرب إلى القبــول ، وكل شطرة تطلب أختها فيــه ٠

والبيتان « يظهران طرفة منشغلا بيقــين الحاضر ٠ باللحظة التى يمــر بها عن اليقين المحتمل الذى قــد لا يتحقق أو يستحيل ٠ فهــو إذ يقول : « فدعنى أروى هامتى فى حياتها » كأنمــا كان يظهر اعتقاده

بأنه ليس ثمـــة وراء الحياة الحاضرة حياة أخرى . كما أنه كان من الذين يعتقـــدون انه ليس وراء الموت ظما او تصرد .

« فالبيت الأول إذن يظهر وجهـــا من اعتقادات الشاعر بمـــا وراء الحيـــــاة »(٧٤) .

إن طرفة يشرب ويروى نفسه فى حياته قبل ان يمـــوت فينقطـــع الشرب ..

وطرفة — بذلك — « يترجح فى أبيات هـــذه القصيدة بين أحوال عـــديدة ، نازعا من الفخر والاعتداد ، إلى المجـــون والعبث ، متوسلا حينا آخر بالسخرية المضمرة والتهكم ، معـــبرا بذلك جميعه عن معاناته وآرائه بالحيـــاة والموت .

« وقـــد غـــدا شعره بذلك شـــعرا وجـــوديا ، يعلن ســـأم النفس وانخـــذالها او حيرتهـــا بالمصير والحيـــاة . والتصدى لأمرى الحيـــاة والموت ، هـــو موضوع من اعمق المواضيع الشـــعرية وأخلـــدها ، لأن الشاعر لا ينشغل فيـــه بالتحرى عن المعانى لمـــا لهـــا من قيمة بذاتهـــا ، أو لمـــا تمثله من الصورة المطلقة لواقـــع الأشياء .. »(٧٥) ..

والبيت الثانى يلخص مذهب طرفة فى الحياة ، وهـــو مذهب يميل إلى اقتناص لـــذة الحياة خـــوفا من ضياعها ، ويأسا من دوامها ، فلعل فى تحقيق اللـــذة انتصارا على الموت ، ذلك انه إذا كان الموت — كمـــا تصوره الجاهلى — هـــو نهاية الوجود الإنسانى ، والتوقف عن ممارســـة

---

(٧٤) فى النقـــد والادب ٢٤٤/١ .
(٧٥) نفســـه ٢٤٥/١ .

الحيـــاة بكل متعها ، فإن الموقف الوجودى للشاعر الجاهلى إنمـــا يبرز عنيفـــا فى تحـــديه للموت والفناء بالغوص عن لذائذها ، لا حبـــا فى اللـــذات بوصفها لـــذة ، ولكن حبـــا فى الحيـــاة وتعلقا بها ، وكراهية فى الفناء الذى تتوقف به ممارســـة هـــذه اللذات »(٧٦) ·

وقـــد أشرنا فيما مضى إلى سيطرة الموت على نفس طرفة ، منـــذ تحـــدث عن الأطلال وما فيها من بلى ، ثم فى حـــديثه عن الناقـــة وتشبيهها بألواح الإران التى تصـــنع منها توابيت الموتى من السادة · وعندما تتقى الناقة بذنبها الفحل حتى لا تنجب ويصير ولدها بوا ، وحين شـــبه صوت المغنية بصوت ناقـــة أم ترجـــع الحنين بصوتها حزنا على ولدها ، وفى حـــديثه عن ابن عمـــه ـــ كما سيأتى ·

كل هـــذا يؤكد ـــ بالإضافة إلى ما سقناه ـــ نسبة هـــذه الأبيـــات فى الناقـــة إلى طرفة · هـــذا من وجـــه ·

ومن وجـــه ثان ، فإن الموت يلح على الشاعر منذ بدء المعلقة وحتى نهايتها · وذلك أمر بدهى وهـــو ملحوظ بشكل عام فى شعر المخلوعين والمتمـــردين(٧٧) ·

---

(٧٦) النفس فى الشعر الجاهلى ص ٦٦ ودروس ونصوص فى قضـــايا الأدب الجاهلى ص ٢٨٧ ·

(٧٧) يقـــول تأبط شرا :

وإنى وإن عمـــرت أعلم أننى
ســـألقى ســـنان الموت يرشـــق أضلعا

=

وها هــو طرفة « يكاد لا يؤخــذ بفكرة عارضة ، حتى يعود يتردد من جــديد إلى هــذه الفكرة ، فكأنه كان يشرب الخمرة بجمجمة ، تعروه باليأس والقنوط ، فيما هو يلهو وتيماجن ، أو كأن الجمجمة كانت تتراءى لــه عبر الكاس ، بل فى قعــــره تنغص عليـــــه متعته تتولاه بالبراح والقنــوط » .

... « وإن فكرة البراح والزوال لتأخــذ على الشاعر أحـــلامه وأفكاره جميعا »(٧٨) .

وهـــو مندفع إلى اللـــذة بعنف وقـــوة ، وكأنه يمنع فيخلص نفسه ويهرول إلى اللـــذات ، وهـــذا أثر من آثار البيئة فى نفس العربى — فهم حين « يتحـــدثون عن ملذاتهم ويتغنون بهـــا ترى فى حـــديثهم حماسة وقوة ، هى حماسة الفاتك القادر ، وقوة المنتصر الظـــافر ... »(٧٩) .

وهـــو مندفع إليها يريد أن يقتنص الوقت — لإحساسه بدنو أجله — فى رى نفسه من الخمر ، تلك التى ستنقطع عنه بموته .

ويقـــول أبو الطمحـــان :

لو كنت فى ريمان تحرس بابه
أراجيـــل أحبـــوش وأغضـــف آلف

إذن لأتتنى حيث كنت منيتى
يخب بهـــا هـــاد بأمرى قائف

الشعراء الصعاليك د/يوســف خليف ص ٣٥ .

(٧٨) فى النقـــد والأدب ٢٤٥/١ .

(٧٩) الهجاء والهجاءون ص ٧٨ .

وهــذا الاندفاع نحــو الحيــاة والتمتع بلذاتها يصــور حبــه للحياة ، وحرصــه عليها ، وخــوفه من الموت وتحسره على انقطــاع هــذه الملــذات ..

ثم يوازن « بين رجلين : أحــدهما شرب فى الحياة حتى ارتوى ، والآخر أخــذ نفسه بالظمأ واحتمال الصــدى ، فأما أحــدهما فسيحال بينه وبين الشرب إذا مات ، وقــد حال بين نفسه وبين الشرب قبــل أن يمــوت .

« وأما الآخر فسيحال بينه وبين الشرب إذا مات ، ولكنه قــد ارتوى قبــل أن يمــوت . ومن يدرى ! لعــله يجــد أثر هــذا الرى ، ولعــل حظه من الصــدى أن يكون أقــل من حظ صاحبه ذاك الذى حرم نفســه الرى أثناء الحيــاة ! »(٨٠) .

لقــد كان طرفة ممتلئا همــا من رأسه إلى أخمص قــدميه ، كان همــه ثقيلا ، وكان متوترا ، قلقــا ، طائر النفس .. يرى الموت فى كل شىء أمامه مهما كانت قــوته ..

ولا غرو فمــا اكتنفه من ظروف تجعــل صاحبها — إن لم يتمــن الموت — فإنه يراه ويتوقعــه فى كل لحظة — فهــو الوحيــد الفريد الغريب ، الطريد ، فى صحراء قاسية ، لا سند لــه فيها ولا ظهير .

لقــد نظر طرفة إلى « الحجارة الصماء وقــد صففت ، وســويت بعضها إلى بعض ، وانتظمت بعــد الانتظام . وهــذا ما حــدث من

---

(٨٠) د/طــه حسين . حــديث الأربعاء ٧١/٢ وما بعــدها .

تطـــور الصمم ، فقـــد استراح الإنسان واستراح الزمان • ولم تعـــد الحجـــارة شـــعثاء غبراء ، لا يعرف لهـــا اســـتواء ولا تصفيف ولا انتظام »(٨١) •

ثم تأتى الأبيات التى تبدأ بالفعل « أرى » لتؤكد أن الشاعر كان يرى الموت ماثلا أمام عينيه « والتى تصـــدر عن الشاعر حكمـــا مرســـلة ، لا سبيل إلى إنكارها ، ولا إلى الجـــدال فيها ، وإنمـــا هى مقنعة ملزمة ، لا تحتمل مكابرة ولا مـــراء ، وهى مـــع ذلك لا تسقط عليك كما تسقط الصواعـــق المرسلة ، وإنمـــا تنزل على نفسك السكينة التى تمنحك الأمن والراحـــة والهـــدوء »(٨٢) •

وأما بيتـــــه :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى

لكالطول المرخى وثنيـــاه باليـــد

فهـــو رائع ، وصل به الشاعر إلى يقين الموت ، وقـــد استعان فى هـــذا التصوير بالبيئة الجاهلية وما فيها من دواب تقاد بالرسن ، والصورة تبرز نفس طرفة القلقة التى لا تشعر بالحرية ، أو إذا شعرت بها فإنهـــا تجـــد الموت يترصـــدها ، أى أنها مكبلة من جانب آخر •

لقـــد تخلص من قيود القبيلة وأغلالها ، ولكن هناك قيودا أخرى تمسك به بقـــوة ، إذ تمسك برقبته •• إنها قيـــود الموت •• الذى يستوى فيه النـــاس جميعا •• الكريم والبخيل ، المسرف المبـــدد ماله ، والممسك على نفسه ، كل هؤلاء قبورهم متشابهة متساوية •

(٨١) د/مصطفى ناصف / صوت الشاعر القـــديم ص ٤٠ •
(٨٢) حـــديث الأربعاء ٢/٧٢ •

.. نعم إن الناس يختلفون فى الدنيا ما بين رفيع ووضيع ، وشريف وحقير ، وكريم وبخيل ، وغنى وفقير ... الخ ، ولكن هؤلاء جميعا فى قبورهم متساوون ، لا فرق بينهم أمام الموت .

وهكذا كان الموت والحياة تتنازعان المعلقة من بدايتها ..

لقد كان طرفة « يحاول فهم الوجود من حوله ، فيجد القشرة الظاهرة منه تشد انتباهه وهو لم ينته بعد من روعتها فى شتيت مظاهرها وأشكالها وعلاقاتها التى تمتد بين الأشياء المتشابهة المتشابكة ...

« والدليل على أن طرفة كان يريد أن ينفذ إلى شىء فى ضمير الحياة فتصده القشرة الخارجية لها ، لأنه لم ينته بعد من الإحاطة بها ، ولم ترو نفسه منها ريا يصرفه عنها . انه حاول فى هذه القصيدة الوصول إلى شىء من فلسفته التى تعبر عن حيرته وتردده بين البعد المادى الذى يراه محيطا به مطبقا عليه ، والغيبة المجهولة التى تنتهى بالعدم المطلق حقيقة ، فإذا به فى هذه المحاولة يفهم العدم فهما يؤكد أن البعد المادى الحتمى الذى يطبق على الوجود أمام عينيه قد أطبق أيضا على هواجسه الداخلية فلم تقو رؤاه على تصور حياة أخرى من أى نوع ، علما بأن أقوال الديانات فى ذلك لم تكن عصية على التسرب إلى أسماعه ، ولكنها قشرة الوجود المادى كانت تشده وتحجزه عن الوصول إلى لب من نوع آخر مختلف عنها . ومن ثم نراه يقف عند هذا الوجود الخارجى حتى يهلك به وفيه »(٨٣) .

---

(٨٣) د/محمد أبو الأنوار — من قضايا الأدب الجاهلى ص ٨٤ .

ولنا عودة إلى الأبيات فى معرض الموازنة بين نظرة طرفة — ونظرة زهير إلى الموت .

طرفـــة وابن عمـــه « مالك »

٧٠ — فمالى أرانى وابن عمى مالــكا

متى أدن منه ينأ عنى ويبعـــد

٧١ — يلوم وما أدرى عـــلام يلومنى

كما لامنى فى الحى « قرط بن أعبـــد »

٧٢ — وأياســنى من كــل خــير طلبتــه

كأنا وضعناه على رمس ملحـد

٧٣ — على غير شىء قلتـــه غير أننى

نشدت فلم أغفل حمولة معبــــد

٧٤ — وقربت بالقـــربى وجـــــدك أننى

متى يك عهـــد للنكيثة أشــــهد

٧٥) — وإن أدع للجلى أكـــن من حماتها

وإن يأتك الأعـــداء بالجهد أجهد

٧٦ — وإن يقذفوا بالقذع عرضـــك أسقهم

بشرب حياض الموت قبل التهدد

٧٧ — بلا حـــدث أحـــدثته وكمحـــدث

هجائى وقـــذفى بالشكاة ومطردى

٧٨ — فلو كان مولاى امرءا هـــو غيره

لفرج كـــربى أو لانظرنى غـــدى

٧٩ — ولكن مولاى امرؤ هـو خانقى
على الشكر والتسآل أو أنا مفتـد

٨٠ — وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على المرء من وقـع الحسام المهند

٨١ — فذرنى وعرضى إننى لك شـاكر
ولو حل بيتى نائيا عند ضرغـد

٨٢ — فلو شاء ربى كنت قيس بن خالـد
ولـو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد

٨٣ — فاصبحت ذا مـال كثير وعـادنى
بنـون كـرام سـادة لمسـود

اشرنا — فى معرض حـديثنا عن أسباب تمرد طرفة — إلى أن موقف اقاربه منه ، وظلمهم لـه كان سببا قـويا من أسـباب تمرده ، وتوقفنا عند هـذه الأبيات لنوضح موقف ابن عم طرفة منـه ودوره فى هـذا السـبب .

وطرفة فى الأبيات يعرض الموقف على المتلقى ، فيريه ما كان منه تجاه ابن عمـه ، وكيف كان يذب عنه ويقف إلى جانبه فيفاجأ بمعاملته له معاملة سيئة . وطرفة يعجب من موقف « مالك » ويقول : « وما أدرى علام يلومنى » فهـل هـو تابع ، مقلـد ، يلوم كما يلوم الآخرون : قرط ابن أعبد وغيره !! لـو كان كذلك فهـو مخطىء حقـا ، لأن طرفة يكره التقليد . وكان على « مالك » أن ينعم النظر ويحسن التصرف ويقلب الأمر على وجوهه ، وحينئذ سيتبين لـه أن طرفة غير مخطىء .

لقـد كان ذلك ظلمـا بينا ، ولم يكن « مالك » وحـده هـو الظالم وإنمـا قبيلة طرفة كلهـا كانت كذلك ..

و « مالك » هنا — وإن خص بالذكر — إلا أنه رمز للقبيلة كلهـا فى موقفها من طرفة — إنهم لم يفهمـوه على حقيقته ، وقـد أحسن إليهم وأساءوا إليه . وكانوا جميعا مقلـدين .

يقـول الدكتور طـه حسين(٨٤) :

« نحن أمام شاعر يؤذيه تقصير ابن عمه فى ذاته وإيذاء ابن عمـه لـه ، وإسراف ابن عمـه عليه ، والتواء ابن عمـه بحقـوق المـودة والقربى بخلا وشحا وأثرة ، فهو يألم لذلك ، ويضيق به ، ويشكو منه ، ولا سيما وهـو فى سيرته بعيد كل البعـد عن هـذه الخصال ، مرتفـع كل الارتفاع عن هـذه الهنات ، فمن حقـه أن يلقى من أكفائه ونظرائه مثل ما يلقى منه الأكفاء والنظراء .

« والذى يحتقر أعراض الحياة ويصغر المـال ويزدريه ، بل يصغر المنافع كلهـا ويزدريها ، ولا يكبر إلا الخلق الكبير ، ولا يقـدر إلا السيرة التى هى خليقة أن تقـدر ، لأنها مملوءة بمـا ينفـع الناس ويصـلح أمورهم ، الرجل الذى لا يبخل بالمـال حين يطلب إليه المـال ، ولا يبخل بالحياة نفسها حين تطلب إليه الحياة ، خليق أن يزدرى البخـل والجبن، وأن يزدرى معهما البخيل والجبان ، وهـو خليق أن يألم حين يرى من أكفائه ، أو ممن يعـدهم أكفاءه جبنا وبخلا ... » .

---

(٨٤) حـديث الأربعـاء ٧٣/١ .

والعجيب أن طرفة يشبه ابن عمه بالميت الذى لا يرجى منه خير ، ولا ينتظر منه أن يعود إلى الصواب .. لقد مات ، ودفن فلا أمل فى عودته .

ولا زال الفقر مؤثرا على فكر طرفة ونفسه ، إذ يرى أنه لو كان غنيا ، أو من ذوى الولد ، لكان له قدر ومكانة ، وأقبل عليه الناس ، من الأشراف والسادة .. أما وهو الفقير الذى لا ولد له فحق لمالك وأمثال مالك أن يهملوه ، ويفردوه إفراد البعير المعبد ، ويظلموه ، وما من معترض على ما ينزلون به من إساءات .

لقد كان طرفة فى هذه الأبيات حزينا كل الحزن ، متألما أشد الألم ، فما أساء إلى قومه ، بل أحسن كل الإحسان ومع ذلك ظلموه أشد الظلم .. ولذا جاء بيته الفريد الذى يتمثل به :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

رائعا ، مصورا أثر موقف قومه منه فى نفسه ، وأنهم ذبحوه ، بل أوقعوا به ما هو أشد من الذبح .. وهكذا يكون ظلم الأقارب

وإن الشقاء والبؤس لواضحان جد الوضوح هنا ، فطرفة يريك « أن الحياة ظلمته دون أن يذنب ، وأعطت غيره دونما استحقاق ....

لقد عاش فقيرا ، مشردا ، لا تؤويه عائلة ، ولا يشعر بإلفتها ، ليس له جو حنو واستقرار يسند إليه رأسه التعب ، بل إنه لا يبرح متنقلا من خمارة إلى أخرى ، يطارد ذاته ، بل يطارد سراب السعادة الذى يكاد لا يتخيله فى الكأس ، حتى يتمثل له فى قعرها بصورة جنى كريه .

« إن طرفة لم يعـــد هنا كالشنفرى او كتابط شرا أو كعنترة ، وإنما غـــدا كابن الرومى ينظر إلى نعيم الآخرين ناعيا جحيمه وبؤس مصيره ، غدا كابن الرومى ينظر إلى غبنـــه بلوعـــة وأسى ابكيين ، مكتويا بنـــاره صامتا حزينا ، فى حين كان ابن الرومى يعلن نقمته هاجيا ، ســـاخرا ، غضبا ، حسدا من عند نفسه على هؤلاء المترفين المنعمين . أما طرفة فلم يحسد الرجلين بل رنا إليهما ، تذكر عمره المهـــدور ، وأيامه الشـــاحبة المسفوحة ، فكأنه رحالة ينعى رحلته الخاسرة الفاشلة . . » .

« وجملة القـــول : أن نفسية طرفـــة لم تعرف اليقـــين الهـــادىء المطمئن ، بل لبثت موزعة بين بواعث القلق والشقاء ترذل واقـــع التقليد دون أن تتخلص وتصفو منه . . »(٨٥) .

لقـــد اجتمع الناس واحتشدوا من ذوى القرابة — ضد طرفة — ، وأنهكوه « إنهم مستسلمون لأسر الواقـــع الثقيل ، وهـــو عاشق للحرية ، ولقـــد دعاهم إلى حلمـــه الذى يصبو إليه ، ولكنهم زاهـــدون فيـــه ، فليس يرجـــو منهم المرء نفعا . لقـــد أياسوه من كل خير ، كأنمـــا هم أموات ، ثم زادوا على ذلك فلاموه وجفوه . . . »(٨٦) .

* * *

---

(٨٥) إيليا حاوى — فى النقد والأدب ٢٤٩/١ ، ٢٥٠ (بتصرف يسير) .
(٨٦) الرحلة فى القصيدة الجاهلية ص ٢٩٨ .

فخــــــــر

ثم يفخــر بنفســه قائلا :

٨٤ — أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه
خشــاش كرأس الحيــة المتوقــد

وذلك فى عشرين بيتــا يقول منها (٨٧) :

٩٥ — فإن مت فانعينى بمــا انا أهله
وشــقى على الجيب يا ابنــة معبد

٩٦ — ولا تجعلينى كامرىء ليس همــه
كهمى ولا يغنىّ غنائى ومشهدى

٩٧ — بطىء عن الجلى ، سريع إلى الخنا
ذلول ، بأجمــاع الرجال ملهــد

٩٨ — فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى
عــداوة ذى الأصحاب والمتوحــد

٩٩ — ولكن نفى عنى الرجال جراءتى
عليهم وإقــدامى وصدقى ومحتدى

١٠٠ — لعمــرك ما أمرى على بغمــة
نهــارى ولا ليــلى على بسرمد

١٠١ — ويوم حبست النفس عند عراكه
حفــاظا على عــوراته والتهــدد

---

(٨٧) ملهــد : مدفــع مضروب . الوغــل : الضعيف . محتــدى :
أصلى وحسبى .

١٠٣ — على موطن يخشى الفتى عنـــده الردى

متى تعترك فيـــه الفرائص ترعـــد

١٠٣ — واصـــفر مصبوح نظرت حـــواره

على النـــار واستودعته كف مجمد (٨٧)

وإذا كان طرفة يتحـــدى عادات وآراء الجاهليين ، ويهزأ بطريقتهم فى التفكير فإنه هنا يفخر بمـــا يفتخرون به من الدفاع عـــن العرض ، والعزة والأنفـــة ، وكثرة الحركة ، والذكاء ، وإن ضربته بالسيف قاطعة للمرة الأولى ، ولا يجرؤ أحـــد على الاقتراب منه وقت المعركة ، وهـــو كثير النحر للإبل ... إلخ .

وهنا ينبغى أن نتساءل « عن هـــذا التناقض البعيد بين أحـــوال طرفة ، فحينا هو جاهلى يفتخر بما يفتخر به فرسان الجاهلية وصعاليكها، وحينا آخر يتهزأ بآرائهم متحديا لعاداتهم ونظمهم وتفكيرهم . وقد يضار طرفة بهـــذا التناقض والازدواج ، لأنه متقلب متردد ... غير أن هـــذا التناقض إنمـــا هو مظهر للقلق الإنسانى .... »(٨٨) .

وما هـــذا التناقض والقلق والازدواج والتردد إلا ثمـــرة من ثمار التمـــرد .

ونلمح فى الأبيات أسى وحزنا عميقين على الرغم من أنه فى معرض الفخر ولا سيما فى قـــوله :

أصـــفر : الســـهم قبـــل أن يوضـــع فيـــه الريش والنصـــل .
مصبوح : غيرته النـــار وأثرت فيه . حـــواره : ما يعـــود به .
المجمـــد : البخيـــل .

(٨٨) فى النقـــد والأدب ٢٤٩/١ (بتصرف يسير) .

أنا الرجـــل الضرب الـــذى تعرفـــونه

تأمل فى قـــوله : « الذى تعرفونه » .. كأنه يقـــول : إننى كنت استحق من التقـــدير والإكرام ما يتوازى مـــع صفاتى هـــذه ..

وهـــذه الصفات ليست بخافية عليكم .. ومع ذلك فعلتم ما فعلتم . أيفرط القـــوم فى مثـــل هـــذا الرجـــل ؟ أليس من العقـــل والحكمة والصواب أن يوضع هـــذا الرجل فى موضعه !!!

ولكن أنى لهـــؤلاء أن يفهمـــــوا ؟ وأنى لهم أن يقـــدرونى حـــق قـــدرى وهم على ما هم عليه من عبث فى التفكير ، وضحالة فى الرأى !!

ويلفت نظرنا فى الأبيات — وسط هـــذا الفخر — رؤيتـــه للموت متخرما عمره : يقول لابنـــة معبد :

فإن مت فانعينى بمـــا أنا أهله
وشقى على الحبيب يا ابنـــة معبد

حتى فى غمرة فخره واعتزازه بنفسه يرى الموت !! أرأيت كيف كان الموت مسيطرا على الشاعر ، ممسكا بزمامه ، أينما توجه فهو معه !!!

وطرفة هنـــا بعـــد ما أثبت نكران قومه لـــه ، وجحودهم إياه ، طلب من « ابنـــة معبد » أن تعطيه شيئا ممـــا يستحق ، ليس فى حياته ، وإنمـــا بعـــد مماته . فطالمـــا أهمل فى حياته ، فلعله يصيب شـــيئا بعـــد مماته .

إن المعلقـــة — كما رأينا — كانت صورة لمـــأساة طرفة ، لقـــد وضع بين يدى المتلقى كل أطراف القضـــية ، وترافع عن نفسه ، وذكر حيثيات حكم القبيلة عليـــه ..

فجاءت صورة صادقة واقعية لحياته وشخصيته ، وهو — كشخص — كان رمزا لأولئك النظراء والأكفاء مثله ، الذين عاشوا فى مجتمع ذى تقاليد بالية لا تتفق وطريقة هؤلاء الأفذاذ فى التفكير .

* * *

الحكمة

« تؤكد الأمثال والحكم فى الشعر الجاهلى أن هذا الشعر لم يخلص منه لغته وجماله وإبداعه فحسب ، بل تجاوز هذا الشعر اللغة والجمال والإبداع إلى التعليم والمثل والحكمة ، وكلها علوم مستفادة ، فهى إما أن تكون خلاصة تجارب ، سعة ثقافة واطلاع ، أو حصافة عقل وسلامة رأى ، ولذلك بقيت الحكم فى الشعر الجاهلى سليمة تساير الزمان وتصلح للعظة والعبرة بدون انقطاع »(٨٩) .

وقد تحدثنا عن الحكمة فى غير المعلقة ، وتبين لنا أن طرفة رغم صغر سنه كان حكيما ، وها هى معلقته درة شعره وغرته قد ختمها بطائفة من الحكم تؤكد أنه كان حكيما .

ولولا تمرده واغترابه ما كانت تلك الحكم ، فكلما اشتدت الخطوب بالمرء ، وتداعت عليه المصائب ، وتضافرت عليه المحن زادت تجاربه وتعلم من أحداث الحياة وتقلباتها .. هذا فضلا عن البيئة المحيطة .

---

(٨٩) شاعرية زهير بن أبى سلمى فى ميزان النقد د/عبد الله العبادى ص ٢٣٥ منشأة المعارف — اسكندرية .

« ولم يكن العالم الذى يحيط بالشاعر القــديم عطوفا عليه ، ساعيا إلى رضاه وخــدمته وهناءته . ولم تكن ظاهرة الصمت المفزع إلا أمارة على خــوف عميق لم يكن يعرف الشاعر لــه دواء .

« وكانت الحكمة أو الفطنة رهينة بالإشارة إلى هــذا الصمت ولم تكن رهينة الالتفات إلى روعة الإنسان . الحكمة فى الشعر القــديم منوطة بالزمان وتحيــة ما لا يتحــدث ولا يحاور »(٩٠) .

وحسب الحكيم أن يكون ذا « نفس حساسة ، وبصيرة نافذة تستطيع أن تنفــذ إلى أغــوار النفوس وأسرار الحيــاة وأخــلاق البشر ، وإن قصرت بأصحابها الأعمار »(٩١) .

وبعض أبياته السابقة تدخل فى هــذا الباب كقوله :

أرى قبــر نحــام بخيــل بمــاله
كقبر غــوى فى البطــالة مفسد

ترى جثــــوتين من تراب عليهما
صــفائح صم من صــفيح منضــد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيــلة مال الفــاحش المتشــدد

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهــر ينفــد

---

(٩٠) صــوت الشاعر القــديم ص ٩٦ .
(٩١) معلقات العرب ـــ بدوى طبانة ص ٣٤٠ .

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى

لكالطـــول المرخى وثنيـــاه باليـــد

متى ما يشـــأ يوما يقـــده لحتفه

ومن يك فى حبل المنية ينقـــد

فهـــذه حكم لا ســـبيل إلى إنكارها ٠

وبيته الـــذى سقناه أيضـــا عن الظلم :

وظلم ذوى القربى أشـــد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

حكمة عظيمة ، ولـــذا رددتهـــا كتب الأمثال ٠ فهـــو من الأمثال السـائرة ٠

أما أبيـــاته التى ختم بهـــا المعلقة فهى قوله :

١٠٤ ـــ أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى

بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد !!

١٠٥ ـــ ستبدى لك الايام ما كنت جاهـــلا

ويأتيـــك بالأخبـــار من لم تزود

١٠٦ ـــ ويأتيـــك بالأخبار من لم تبع لـــه

بتـــاتا ولم تضرب له وقت موعـــد

١٠٧ ـــ لعمـــرك ما الأيـــام إلا معـــارة

فمـــا اسطعت من معروفها فتزود

١٠٨ ـــ عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه

فـــإن القـــرين بالمقـــارن مقتـــد

إن طرفة لا يزال يرى الموت .. وهــو يراه هنــا بعــدد النفوس ، فكل نفس لهــا موتها .. ومن لم يمت اليــوم مات غــدا ، وما الغــد ببعيــــد .

« ويكشف تعجبه من قرب اليوم من الغــد عن إحساس بقصر الحياة وكانما كان الشاعر محصورا نفسا وعقلا بين اليوم والغــد . والغــد هنا يعنى الايام المقبلة بعامة ، كما يعنى أيضا يوم المنية ، فلكل امرىء يومه ، اى لكل منيته التى ستأتى فى يوم من الأيام .

« وقــوله : « لا ارى بعيدا غــدا ..) يكشف عن أمنيته ببعد غد وتحسره لقربه . وجاء تعجبه : (ما اقرب اليوم من غــد) كاشــفا عن تلك الحسرة ، فهو معادل لقــولنا : ما أقصر الحياة ، وما أسرع مرور الأيام — وهى عبارات تكشف عن ذلك الخــوف الوجودى من الموت ، وعن الإحساس بالتناهى والدثور »(٩٢) .

« إنها صورة رائعة تمثل ورود المواكب البشرية على هــذا المورد المورود الدائم الغزير الذى لا ينفــد ماؤه على كثرة الواردين من عهــد آدم »(٩٣) .

ويقــول : إن الأيام لابد وان تكشف عن المخبوء ، وما جهلته أمس عرفته اليوم ، وهنــاك من يتطوع وينبئك بالأخبار دون ان تضرب لــه موعــدا لذلك أو تقــدم لــه فى مقابل ذلك طعاما ولا كساء ..

وقــــــوله :

لعمــرك ما الأيــام إلا معـــــارة
فمــا اسطعت من معروفهــا فتزود

---

(٩٢) النفس فى الشعر الجاهلى ص ٢٠ .
(٩٣) طرفــة بن العبــد ص ١٦٧ .

متسق مــع حقيقة الأيام ومفهوم المسلم لهـــا ... وهناك أحاديث نبــوية شريفة تؤكد هــذا المعنى .. منه : حــديث « الرميصاء » وغيره .

وقـــــــوله :

عن المـــرء لا تسأل وأبصر قرينة

فـــإن القـــرين بالمقـــارن مقتـــد

أسلفنا القـــول فيه فى بيت قريب منه .. وهـــو كقول الآخر :

إن كنت تبغى العـــلم أو أهـــله

أو شـــاهدا يخـــبر عن غائب

فاختبر الأرضـــ بأســـمائها

واعتبـــر الصـــاحب بالصـــاحب

وقـــال آخـــر :

« من ذا الذى يخفى عليك إذا نظرت إلى قرينه » ؟

وقيـــل : « الأخ مرآة أخيـــه » .

ومن أمثال الميدانى : « يظن بالمرء مثل ما يظن بقرينه » وفى أمثالنا العـــامية نجـــد هـــذا المعنى(٩٤) .

★ ★ ★

---

(٩٤) منه قـــولهم : « إن كان بـــدك تعرف ابنـــك وتسيسه إعرفـــه من جليسه » راجع ، الأمثال العامية — تيمور ص ١٠٣ .

الفصل الثالث

مـــــــوازنة

١ — بين طرفـة وزهير ونظرتهما إلى الموت .

٢ — بين معلقتى طرفـة وامـرىء القيس .

موازنات

اولا : بين طرفة وزهير ونظرتهما إلى الموت

وهذه الموازنة ليست في المعلقتين جميعهما بل في أبيات الحكمة فقط ، أو بالأحرى أبيات الموت عند كليهما .

وحين نوازن بين زهير وطرفة وكيف رأى كلاهما الموت والحياة نجد اوجه اتفاق وأوجه اختلاف .

اوجه الاتفاق :

على الرغم من فرق السن بين زهير (الثمانين) وطرفة (ابن العشرين) — حين أنشد كل منهما معلقته — فكلاهما يحدثنا عن الموت حديث راء له ، وليس مجرد سامع ، « وما راء كمن سمعا » .

قال زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

وقال طرفة :

أرى قبر نحام بخيل بماله
كقبر غوى فى البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما
صفائح صم من صفيح منضد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيلة مال الفاحش المتشدد

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة

وما تنقص الأيام والدهر ينفد

وليس الأمر مستغربا بالنسبة لزهير ، فالرجل قد كبر ، بلغ ارذل العمر ، وسئم الحياة .. وعادة فالناس فى مثل هذا العمر يذكرون الموت ..

اما بالنسبة إلى طرفة فغريب أن يرى الموت فى ريعان الشباب .. ولكن من خلال دراستنا لشعره وغربته وتمرده يزول العجب حين نعلم ما لاقى ، لقد شيبته الخطوب التوالى ، والآلام والمحن .. فرأى الموت فى كل وقت وفى كل مكان .. لقد رآه وهو فى غمرة النشوة ، رآه وهو يشرب الخمر . ولذا قيل إنه يشرب الخمر فى الجمجمة .

على أن حديث زهير عن المنايا ورؤيته لها أنها تخبط « خبط عشواء » قد أثار حفيظة العلماء ، فردوه « ولم يرضوا عنه ، لأن المنايا قدر أزلى مقدور ، ولا خبط هناك ولا عشوائية » . ويرى الدكتور أحمد محمد على : أن الاعتراض هنا قائم على منطلق لم ينطلق منه زهير ، إن الرسالات السماوية هى التى بينت للناس أن الموت قدر محدد ، لا يتقدم ولا يتأخر ، وزهير — وكذلك قومه — لم يكن على عقيدة سماوية حتى نحاسبه عليها ، ومعرفته ببعض ما جاء فى هذه العقائد السماوية كالإيمان بالبعث مثلا لا يعنى أنه يصدر عن عقيدة فى كل جزئياتها . ثم إن زهيرا يتحدث عن رؤيته « رأيت المنايا خبط عشواء » وقد سجل رؤيته كما رآها ، وهو رجل قد عاصر حرب داحس والغبراء ، لقد بدأت فى حياته وانتهت أيضا فى حياته ،

وهــذه الحــرب مات فيهــا من مات وعــاش من عــاش ، ولم يحكم الموت والحيــاة قانون ثابت فى رأى الجــن — وزهــير كمــا قلنــا يصــدر عن رؤيته — فقــد يضرب إنسان بالسيف فيخطئه السيف ويقــع على رأس من دونه — وهــو غير مقصود — فيموت . وقــد يطيش سهم فيصيب إنسانا قاده قــدره إلى المرور فى منطقة الحرب ، ولا ناقة لــه فيها ولا جمل ، وقــد يتقاعس إنسان عن الحرب فيموت ، ويلقى إنسان بنفسه فى التهلكة فيعيش ويبــقى . هــذه رؤية زهير قــد سجلها كما رآها ، فلا تثريب عليــه فى رؤيته ولا فى تسجيله .. »(١) .

الموت عند زهير حينما يصيب إنسانا فلا فكاك لــه منه (من تصب تمتــه) .

وعند طرفــة لا يستطيع أحــد — كائنا من كان — دفــع المــوت (فإن كنت لا تستطيع دفــع منيتى) .

وزهــير يقــول :

ومن هاب أسباب المنــايا ينلنــه
ولــو رام أســباب السماء بسلم

وطرفــة يقــول :

لعمرك إن الموت ما أخطــأ الفتى
لكالطول المرخى وثنيــاه باليــد

فحــديث زهير عن أسباب الموت ، وقــد روى بيته رواية أخرى :

---

(١) معلقة زهير فى ضوء نظرية النظم د/أحمد محمد على ص ١٢٧ .

ومن يبغ أطراف الرماح ينلنه

ولو رام أن يرقى السماء بسلم

وبيت طرفة بلغ غاية الدقة ، وصورته بلغت غاية الروعة ، وهو ينبىء عن نفسية طرفة التى يحيط بها الموت من كل جانب ٠

أوجه الاختلاف :

زهير سئم الحياة وملها لأنه عاش ثمانين عاما ٠٠٠٠

. . . . ٠ ومن يعش

ثمانين حولا لا أبالك يسأم

بيد أن هذا « السأم من تكاليف الحياة ليس شيئا خاصا بزهير ، وإنما هو قدر محتوم على كل من يبلغ الثمانين من العمر ، ورقم الثمانين هنا ليس مقصودا لذاته ، وإنما الغرض منه طول العمر ، فمن يطل عمره يسأم تكاليف الحياة ، فقد يسأم فى هذه السن ، وقد يسأم قبلها وقد يسأم بعدها ، السأم قادم لا محالة ، ولا سلطان لك على اتقاء هذا السأم إذا طالت السن ، والوحيد الذى يتقى السأم هو من يموت قصير العمر ، وهذه نتيجة ليست أهون من تلك ، إنهما أمران أحلاهما مر ، فما الذى يمكن أن يصنعه الإنسان إذن للتغلب على هذا القدر المحتوم ؟ أن يجعل المعروف من دون عرضه ، أن يصانع فى أمور كثيرة ٠٠٠ الخ »(٢) ٠

أما طرفة فهو إنه مقتبل العمر وريعان الشباب ، فى محب للحياة ،

---

(٢) معلقة زهير د/أحمد محمد على ص ١٢٥ ٠

وحبه للحياة جعله خائفا من الموت وكأنه آت غدا ، فالغد بالنسبة له مخيف ، لأنه سيقطع عنه الحياة ..

وطرفة متمسك بالحياة ، محب لها ، وزهير سئمها وملها ..

ولشدة خوف طرفة من الموت يريد أن يروى ظمأه من الحياة ..

كريم يروى نفسه فى حياته

ستعلم إن متنا غدا أينا الصدى

وطرفة يرى الموت آتيا غدا ، ويرى أن الغد ليس ببعيد :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى

بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد

فكل يوم يمر يقربه من الغد ، فيزداد خوفه ، لأن الكنز فى تناقص مستمر :

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة

وما تنقص الأيام والدهر ينفد

وتأمل كلمة (كنز) وما توحى به من قيمة للحياة فى نظر طرفة .

وزهير لا يرى الموت آتيا غدا ، بل هو يستبطئه ، لأنه مل الحياة ، وربما يكون الموت بالنسبة إليه غير عاجل ..

ويقول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله

ولكننى عن علم ما فى غد عم

وطرفـــة يقـــول :

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا

ويأتيـــك بالأخبـــار من لم تزود

زهير « يعلم المـــاضى والحاضر ، وأما المستقبل فلا علم لــه به ، ولا بمـــا يجرى فيه من حـــوادث ، وهـــذه حقيقة لامراء فيها ، ولكـــن زهيرا حين يثبت لنفسه علم الحاضر والمـــاضى فإنه يريد ان يخبر أن علمه هـــذا هـــو الذى أتاح لـــه أن يكتشف انواع العـــلاقات بين الأحـــداث المختلفة .... وعلم الحاضر والمـــاضى ليس ســـهلا إذا ما قرن باكتشاف العلاقات بين الأحـــداث..علم زهير إذا يكتسب قيمته من هنا...»(٣) .

أما طرفـــة فيتحـــدث عن الأيام — كل الايام وما فيها من حوادث وأخبـــار وأن ما يجهله المرء ستعلمه إياه الأيام ، وقـــد يفهم من ذلك أن طرفـــة علم الكثير ممـــا كان يجهله ، وأن الأيام كشفت لـــه أمورا كانت غائبـــة عنـــه .

وقـــد يفهم كذلك أن طرفة يرمى إلى جهل قـــومه حقائق كثيرة ، وظلمهم لـــه ، وأن الحقائق ســـوف تظهـــر كاملة أمام النـــاس وحينئذ سيعرف المخطىء والمصيب . الظـــالم والمظلوم ..

هـــذه إلمـــامه سريعة بمـــا بين معلقتى طرفة وزهير ..

* * *

---

(٣) نفســـه ص ١٣٠ .

ثانيا : بين طرفـة وامـرىء القيس

في بداية حـديثنا عن المعلقة ذكرنا أن معلقـة طرفـة لم تأت بعـد معلقة امرىء القيس جزافا ، وإنمـا لسببين :

الأول : أنهـا تليهـا في الجـودة .

الثاني : أن هنـاك أوجـه شبه بين المعلقتين وهـذا ما نقف عنده الآن .

إن هنـاك أوجـه شبه بين الشاعرين وحياتيهما وكان لذلك صـداه في المعلقـة . فمن التشابه بينهما :

١ ــ الشرب والسكر والتمرد على التقاليـد :

كل من امرىء القيس وطرفـة كان سـكيرا ، وكان السـكر سـببا أساسيا في غربتهما .. أما طرفـة فقـد أفضنا القـول عن سـكره ، وما جره عليـه من مآس .

وأما امرؤ القيس فذكر أن أباه طرده لأنه كان يسكر كثيرا فخيب بذلك أمل أبيـه فيه إذ كان يعـده ليخلفه على الملك .

كان طرفة متطرفا في شرب الخمر والإسراف على نفسه في المـلذات التي عـدها من عيشة الفتى كما أسلفنا .

وكان امرؤ القيس متطرفا في الشرب والمجـون والفجور وسـائر السلوك الجائر عن العرف والتقاليد .. فقـد انصرف انصرافا كاملا إلى اللهـو والمجـون بحيث لم يشغل نفسه بأى عمل جـدى حتى اكتسب وصـف « الملك الضليل »(٤) .

---

(٤) راجـع : معلقة امرىء القيس في ضوء جـديد ص ٨ د/ عبد الحليم حفني .

٢ ــ توظيف الشعر لخــدمة الذات :

كانت القبائل فى الجاهلية تعــد شــعراءها بمثابة وسائل إعــلام لهــا ، اما ان يوظف احــدهم الشعر لخــدمة شخصه ولذاته فهــذا مرفوض ، وقــد حــدث ذلك من كلا الشاعرين ، وإن كان أكثر عنــد امرىء القيس · ومثل هــذا الشاعر الذى « يقصر شعره على ذات نفسه ومشاعره الشخصية لم يكن جــديرا بالاحترام والتقــدير لدى القبيلة ·· ومن هنــا كان طرد حجر الكندى لامرىء القيس ابنه ، لانه كان شــاعرا ذاتيــا ، يقول الشعر فى لهــوه ولذاته ، ولم يكن يعنى بشؤون الملك لا قــولا ولا فعــلا فطرده أبوه ··· »(٥) ·

٣ ــ الغــربة وتخــلى الأصــدقاء :

كل من الشاعرين اغترب وتخلى عنه ذووه وأصــدقاؤه ··

وفى البداية وجــد كل منهما بديلا عن اهله وذويه ، فطرفة وجــد بديلا فى الفقراء المحاويج والأغنياء المياسير :

رايت بنى غــبراء لا ينــكروننى

ولا اهل هذاك الطراف الممــدد

وقــد بينا أن غربته كانت على مرحلتين : الأولى كان فيها مكرها لا بطلا ، والثانية كانت باختياره وناجمة عن اعتداده بنفسه وغروره ··

وكانت نهاية المطاف سؤال جارته لــه وتعييرها إياه :

---

(٥) ظاهرة التكسب فى الشعر العربى ص ١٢ (باختصار) ·

ولا غـــرو إلا جـــارتى وسؤالها

الا رب دار لى ســوى حـــر دارك

تعـــيرنى جـــوب البـــلاد ورحلتى

الا رب دار لى ســوى حردارك

فاحس باليأس ، واعترف بخطئه فى حـــق قبيلته كما أسلفنا .

وأما امرؤ القيس فحين طرده أبوه وجـــد بديلا فى اصـــدقاء وأعوان واتبـــاع ، استطاع أن يكون منهم حشودا يكر بهم على بنى أســد ، ثم انفضوا عنه ، وتخلوا عن مناصرته لمـــا وجـــدوا أمل الملك يتلاشى عنه .

وفى الطـــور الثالث من أطـــوار حياته كان هينا ذليـــلا ، بعـــد تخلى كل من لجـــأ إليهم عنه ، فشعر باليأس وخيبة الأمل .

٤ ـــ المذكرات الشخصية فى المعلقـــة :

كانت كل من المعلقتين بمثابة مذكرات شخصية لكل منهما ، فقـــد اتضح من خلال عرضنا لمعلقـــة طرفة أنهـــا كانت عرضا شاملا لمشـــكلته وطرحا لقضيته على المجتمع .. فعرف بنفسه ، وابرز مؤهلاته ، ولم يكتم شـــيئا ، وإنمـــا أوضح ما كان منه ممـــا عـــدته القبيلة جرما يستحق العقوبة ، وهـــو إسرافه فى شرب الخمر ، وبين أنه عازم على المضى فى سبيله إذ يرى ان هـــذه هى الحياة المثلى ولكن القبيلة عاجزة عن فهمه . ثم أفصـــح عن حكم القبيلة عليه بالاغتراب ، وكيف تخلى عنـــه ذووه ـــ ابن عمـــه مالك ـــ وذكر أثر موقفهم منه ، وظلمهم إياه فكان بيتـــه الفـــــريد :

وظلم ذوى القربى أشــد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

وأما معلقـــة امرىء القيس فتجــد فيهــا أطــوار حيـــاته الثلاث واضحة وضوحا شــديدا ٠٠

ولا نجــد للبيئـــة فيها مكانا واضـــحا بالدرجـــة التى تناســب جــودتها ، إذ لا نكاد نرى فيها من البيئة إلا الأرض ٠٠ والبيئة ليست الأرض وحــدها ، وإنمـــا فيها حيـــاة النـــاس ومعيشتهم وعـــاداتهم وتقاليــدهم(٦) ٠

يقــول الدكتور يوسف خليف(٧) :

« وتأتى أهمية معلقـــة طرفة من أنها قصيدة ذاتية خالصة ، فرغ فيها لنفسه دون أن تزحمه حقــوق القبيلة عليه ، واستطاع أن يرسم فيها صــورة معبرة عن نفسيته وشخصيته ، صادقة كل الصــدق فى نقـــل مشاعره ، صريحة كل الصراحة فى رصــد ما يدور فى أعماقه من قلق وشـــك وحيرة ٠ ولا تكاد تعــدلها فى هــذا الموقف من بين المعلقـــات الأخرى إلا معلقة أمرىء القيس ، ولكن إذا كانت معلقـــة امرىء القيس تعكس شخصية الشاب السعيد المتفائل المحظوظ المدلـــل الذى لا يشـــغله فى حياته سوى صاحباته وأصحابه(*) فإن معلقة طرفة تعكس شخصية

(٦) راجــع ، معلقة امرىء القيس فى ضوء جــديد ص ٩٧ ٠

(٧) الروائع ص ٢٢٣ ٠

(*) ونحن نخالفه فى ذلك ٠٠ فالجزء الأول فقط هــو الذى يصـــور ذلك ، أما بقية المعلقة ففيها ليـــل طويل كموج البحر ، وفيهـــا همـــوم لا حصر لهـــا ، وفيها ســـيل مدمر ٠٠٠ إلخ ٠ راجـــع الصـــفحة التاليـــة ٠

أخرى مختلفة تماما عن هذه الشخصية ، إنها تعكس شخصية شاب قلق فى حياته ، متشائم منها ، شاك فيها ، يدفعـه قلقـه وتشاؤمه وشـكه إلى الإقبـال على الحياة ليستمتع بهـا من قبل أن يدركه مصيره المحتوم الذى لا يدرى ما وراءه إلا أنه غيب مجهول محجب ٠٠٠ » ٠

٥ ـــ نهـاية طرفـة وامرىء القيس :

كل من الشاعرين مات مقتولا ، فطرفة قتـل بأمر الملك عمرو بن هند كما هـو معلوم ٠

وامرؤ القيس مات مقتولا بالسم ، إذ دس لـه القيصر سـما فى حلـة ، ما إن لبسها حتى تقـرح جسـده ومـات ، فقيـل لـه : ذو القـروح(٨) ٠

٦ ـــ ويتفقان كذلك فى : محاولة إثبـات كل منهما انتصاره على الخوف والقـلق :

« فامرؤ القيس قـد اتخـذ من وصـف الليل فى القصيدة وسـيلة إلى تشخيص ضيقه وقلقـه وخـوفه فى سلسلة من الصـور العـادية المتراكمة ، فإنه راح يحقق انتصاره على تلك المشاعر من خـلال وصـفه لرحـلة الصيد التى اختار لهـا وقتا بعينه هـو الصباح الباكر ، وحصانا « أسطوريا » لا يتعب ولا ينهزم ٠٠٠٠ ثم ختم الشاعر معلقته بهـذا البيت الذى يلخص نشوته بالانتصار الذى حققه ، والذى يصف فيـه الطير وقـد طغى عليـه النشاط كأنه سـقى خمرا أطلقت لسانه :

كـأن مكاكـى الجـواء غـدية
صبحن سلافا من رحيـق مفلفل

---

(٨) الأغـانى ٩/٩٩ ٠

وهكذا تتآلف الأغراض النمطية فى القصيدة لتعبر عن « مقـولة » بعينها ، وهكذا معظم القصائد الجاهلية .. فها هـو « زهير » — مثلا — كان مشغولا بتأكيد حاجـة بيئته لأسباب اقتصادية ، إلى السلام الذى راح يفلسفه فى معلقته ... ونبعت معلقة « عنترة » من حاجتـه إلى تأكيد ذاته وذوات كل العبيد فى مجتمع السادة الـذى كان يحول بينـه وبين حريته . ومعلقة « طرفة » تنبع من إحساسه بهـذه المفـارقة الحادة بين الحياة والموت فى بيئته الوثنية »(٩) .

لقـد حاول طرفة أن ينتصر على خـوفه وقلقـه واضطرابه بانتزاع هـذه اللذات التى هى الحياة فى نظره ، فكان خـوفه من الموت دافعـا لـه إلى حب الحياة .. بل إنه « يعلن أن الموت الذى لا فكاك منه هـو عـذره فيما يقبل عليـه من حيـاة »(١٠) :

أرى الدهر كنزا ناقصا كل ليـلة

وما تنقص الأيام والدهر ينفـد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى

لكالطـول المرخى وثنيـاه باليـد

يقـول الدكتور عفت الشرقاوى مفسرا مذهب طرفة(١١) :

---

(٩) من أصـول الشعر العربى القـديم د/إبراهيم عبد الرحمن — مجلة فصـول م ٤ ع ٢ ص ٢٨ (بإيجاز) .

(١٠) دراسات فى الشعر العربى محمد إبراهيم أبو سنة ص ١٥ .

(١١) دروس ونصوص فى قضايا الأدب الجاهلى ص ٢٨٧ دار النهضـة العربية — بيروت ١٩٧٩ .

هــو « مذهب يميل إلى اقتناص لــذة الحياة خــوفا من ضياعها ، ويأسا من دوامها ، فلعــل فى تحقيق اللــذة انتصارا على الموت ، ذلك أنه إذا كان الموت — كما تصــوره الجاهلى — هــو نهــاية الوجــود الإنسانى ، والتوقف عن ممارسة الحياة بكل متعها ، فإن الموقف الوجودى للشاعر الجاهلى إنمــا يبرز عنيفا فى تحــديه للموت والفناء بالغوص عن لذائذها ، لا حبــا فى اللــذة بوصفها لــذة ، ولكن حبا فى الحياة وتعلقا بها ، وكراهية فى الفناء الذى تتوقف به ممارسة هــذه اللذات » .

مفهوم الحرية عند طرفة وامرىء القيس :

وهــو وجــه من أوجــه الاختلاف بينهما ، وذلك : « أن الشاعر الجاهلى عرف ثلاثة أبعاد لمفهوم الحرية :

* المفهوم الاجتماعى للحرية ، وقــد عبر عنه الشعراء الصعاليك .
* المفهوم الوجودى او السلوكى ، وقــد عبر عنه امرؤ القيس .
* المفهوم الفكرى ، وقــد جسده طرفة بن العبد فى شعره .

أما المفهوم السلوكى — الذى يمثله امرؤ القيس — فقــد وجــد معبرا عنه فى كثير من أشــعار الشعراء الثوار والمتمردين الذين كانوا يختارون متعهم ويفضلون أن تكون لهم أنمــاط خاصة لحياتهم .

وامرؤ القيس اختار أن يكون ملكا للشعراء بدلا من أن يكون ملــكا على قبيلته ، وسلطانا للغرام بدلا من أن يكون سلطانا على الناس ، وقــد

وضعه هـــذا الخروج الســافر على نظــام القبيلة والأسرة فى صــفوف المعارضـــة »(١٢) .

وبينما يقسم الدكتور « عبد الحليم حفنى » حياة امرئ القيس إلى ثلاثة أطـــوار مستعينا فى ذلك بالمعلقة(١٣) . يرى « أبو سنة »(١٤) : أن أغرب ما فى حياة امرئ القيس أنها تنشطر شطرين ، كل شطر منهما يناقض الآخر . يعطى نصف حياته الأول صورة الخروج السافر على أعراف المجتمع وتقاليده ، فى حين يقف النصف الآخر على الالتزام بهذه التقاليد متمثلة فى إصراره على أخــذ ثار أبيــه . لقــد اختار حريته فى الشطر الأول ، واختار حرية المجتمع فى شبابه المتأخر أو كهــولته .

« وأما مفهوم طرفة للحرية فيتأسس فــوق إدراك فلسفى وجــودى لطبيعة الحيــاة والمــوت ، لقــد وضــع نفسه طبقــا لفلسفته على يسار مجتمعه ، فوقف مجاهرا بحريته فى اختيار أسلوب حياته ، وهذه الفلسفة وإن سبق إليها « أبيقــور » إلا أن إدراك طرفة الفطرى لفلسفته يعطيها طابعا أصيلا . إن خروجه يستند لأول مرة على منطق محكم ، وليس خروجا فوضويا ، وهــذا ما جعلنى أميز مفهومه فى الحرية عن مفهوم امرئ القيس ، إنه مفهوم فلسفى للحرية ، وليس مفهوما شعريا يقــوم على مبدأ النزوة واتباع الشهوة ، وإن كان مفهومه للحرية قــد انبثق من ردود المجتمع على ســلوكه ..

---

(١٢) دراسات فى الشعر العربى محمد إبراهيم أبو سنة ص ٨ ــ ١٥ .

(١٣) معلقـــة امرئ القيس فى ضـــوء جـــديد .

(١٤) دراســـات فى الشعر العـــربى .

لقــد كان كل من طرفة وامرىء القيس شاعرا يحمل هموما كثيرة ، ولــه طموحات كبيرة ، وعجز المجتمع عن فهم حقيقته .. فضاقت نفسه بمــن حــوله وما حــوله .

وبعــد . فإننى آمل أن تتــاح لى الفرصة بعــد للموازنة الدقيقــة المفصلة بين هــذه المعلقات الثلاث .

خاتمة

كانت رحلة طويلة ممتعة بصحبة الفتى الجاهلى « طرفة بن العبد » . استطعنا من خلالها التعرف على مشكلة طرفة وأبعادها الحقيقية ، وأن نتلمس المعنى الذى فى بطن الشاعر وإن كان البون الزمنى بعيدا .

لقد كان طرفة يحمل هما ثقيلا ، وفكرا عاليا ، لم يستطع قومه أن يفهموه ، ولهذا ضاق بهم .. كان ثروة قومية ، لكنها أهملت وضيعت ، وكم من « طرفة » آخر ضيعه مجتمعه ، وبتضييعه فقد قومه الكثير مما لو اغتنموه لكان لهم شأن آخر .

لقد كان ذا نفس حرة ، أبية ، لا تقبل الضيم ، كان معتزا بنفسه لدرجة الغرور .. وكان مصيره فى هذا المجتمع عزلة ، وتفردا ، واغترابا ، وقلقا ، وتوجسا ، وخوفا ، ورؤية للموت فى كل آن .

شعر بقرب أجله إن لم يكن اليوم فغدا « وما أقرب اليوم من غد » وكان ثمرة ذلك كله هذا الشعر الرائع .

حاولنا أن نقرأه قراءة جديدة وأن نؤكد من خلال هذه القراءة أن الشعر الجاهلى ظلم حين وصف بالسذاجة .. فلعلنا وفقنا فيما رجونا .

ولله الحمد أولا وآخرا ..

دكتور زكريا عبد المجيد النوتى

المصـــــادر والمراجـــــع (*)

ـ الأساطير ـ دراســة حضارية مقارنة د/أحمد كمــال زكى مكتبــة الشــباب ١٩٧٩ م ٠

ـ أساليب الصناعة فى شــعر الخمر والناقــة والأسفار د/محمد محمد حســين ٠

ـ اعلام الشعر الجاهلى (طرفة) د/خفــاجى ٠

ـ التركيب اللغــوى للأدب د/لطفى عبد البديع ط النهضة المصرية ٠

ـ تطــور الغزل بين الجاهلية والإسلام د/شــكرى فيصــل ٠

ـ حــديث الأربعــاء دكتور/طــه حسين ج ١ ٠

ـ الحيــاة والموت فى الشعر الجاهلى ـ مصطفى عبد اللطيف جياووك ط العراق ١٩٧٩ ٠

ـ ديوان الأعشى الكبير تحقيق د/محمد محمد حسين ـ ط مكتبة الآداب ٠

ـ ديوان دريد بن الصمة ـ تحقيق د/عمر عبد الرسول ـ ط دار المعارف ٠

ـ ديوان طرفة ـ تحقيق ودراسة د/على الجندى ـ دار الفكر ٠

ـ الرحلة فى القصيدة الجاهلية ـ د/وهب رومية ٠

ـ الروائع د/يوســف خليف وآخرون ـ ط هيئة الكتاب ٠

ـ الزينة فى الشعر الجاهلى د/يحيى الجبورى ـ دار القلم ـ الكويت ٠

ـ الشعر الجاهلى ـ قضاياه الفنية والموضوعية د/إبراهيم عبد الرحمن ـ مكتبــة الشــباب ٠

(*) هــذه بعض المراجع والمصادر ، وفى الهوامش كثير غيرها ٠

ـ الشعر الجاهلى وقضية التفسير د/السيد فضـل ٠

ـ شـعر الصعاليك ـ منهجه وخصائصه د/عبد الحليم حفنى ٠

ـ الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د/يوسـف خليف ٠

ـ الشعر العربى بين الجمود والتطور د/محمد عبد العزيز الكفراوى ـ ط نهضـة مصر ـ الثانية ـ ١٩٥٨ ٠

ـ شـعر الهـذليين د/أحمد كمـال زكى ٠

ـ الشعر والشعراء ابن قتيبة ٠

ـ صـوت الشاعر القـديم د/مصطفى ناصف ط هيئة الكتاب ٠

ـ الصـورة الأدبية د/مصطفى ناصف ٠

ـ الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى على ضوء النقـد الحـديث ٠ د/نصرت عبد الرحمن ـ عمـان الاردن ٠

ـ طرفة بن العبد حيـاته وشعره د/محمد على الهاشمى ـ عالم الكتب بيروت ٠

ـ ظاهرة التكسب فى الشعر العربى د/درويش الجندى ٠

ـ فصل المقـال فى شرح كتاب الأمثال ـ لأبى عبيد البكرى ـ تحقيـق دكتور إحسان عباس ود/عبد المجيد عابدين ـ ط مؤسسة الرسالة ٠

ـ فى ظـلال القرآن ـ سـيد قطب ـ دار الشروق ٠

ـ فى النقـد والأدب (جـ ١) ـ إيليا حاوى دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ٠

ـ قراة ثانية لشعرنا القـديم د/مصطفى ناصف ٠

- قراءة جديدة لشعرنا القديم - صلاح عبد الصبور - دار العودة - بيروت .
- مدخل إلى دراسة الأدب الجاهلى د/مصطفى الشورى .
- المستقصى فى الأمثال للزمخشرى - حيدر آباد - الهند - ط أولى .
- معلقة زهير فى ضوء نظرية النظم د/أحمد محمد على - دار الحديث .
- معلقة امرىء القيس فى ضوء جديد - د/عبد الحليم حفنى .
- معلقات العرب د/بدوى طبانه - ط أولى .
- من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى د/سعد ظلام .
- من قضايا الأدب الجاهلى د/محمد أبو الأنوار .
- الهجاء والهجاءون د/محمد محمد حسين .

الفهرســــــت

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع | صفحة

البـــاب الثانى

اغتـــراب طرفـــة

البـــاب الثالث

اصـــداء الغربة والتمـــرد فى شـــعر طرفة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٩٩٤/٨٤٠٥
تحريرا فى ١٩٩٤/٨/٣٠

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
ت : ٥١٠٦٧٢٤